

لبنان

والنهضة العربية الحديثة

وهي رسالة قدّمت الى الدائرة العربية في الجامعة
الاميركية في بيروت تنميا للشروط المطلوبة لنيل شهادة "استاذ في العلم"

ايلول ١٩٥٢

تأليف

جبران الخوري مسعود

مراجع البحث
مرتبة حسب الترتيب الابجدي

(١) - المراجع العربية

- ابن عبد ربه
ابو جوده (يوسف)
العقد الفريد - طبعة احمد امين
الامير فخر الدين المعني الثاني - محاضرة في المعهد
الثقافي الايطالي - سنة ١٩٥٣
الالحن - بيروت - سنة ١٩٤١
روابط الفكر والروح بين الشرق والغرب - بيروت - الطبعة
الثانية - سنة ١٩٤٥
الجداول - نيويورك - سنة ١٩٢٧
جريدة "السمير" - عدد ٢٦ كانون الثاني - سنة ١٩٤٨
رد السهم عن التصويب ولبعاده عن مرمى الصواب بالتقريب -
الاستانة - سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤ م)
النهضة العربية في العصر الحاضر - مصر - سنة ؟
الدرر - بيروت - سنة ١٩٠٩
الوسيط في الادب العربي وتاريخه - مصر - ١٩٥٠
رد السهم للسهم - الاستانة - سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤ م)
اغاني الدرويش - نيويورك - سنة ١٩٢٨
ابو ماضي (ايليا)
ابو ماضي (ايليا)
الاحدب (الشيخ ابراهيم)
ارسلان (شكيب)
اسحاق (اديب)
الاسكندري (الشيخ احمد)
الاسير (الشيخ يوسف)
ايوب (رشيد)
مجموعة الرابطة القلمية
شاعر الطيارة فوزي معلوف - مصر - ١٩٤٨
ادباء العرب في الاندلس وحصن الانبياء - بيروت - ١٩٤٤
اعلام اللبنانيين في نهضة الادب العربية - ١٩٤٨
تاريخ التعليم في لبنان - محاضرة في "محاضرات الندوة" -
السنة الرابعة - النشرة ٩ - ١٢ - سنة ١٩٥٠
باحوط (وديع) في
"البدوى الملقم"
البستاني (بطرس)
البستاني (بطرس الكبير) في
البستاني (فؤاد افرايم)

(ب)

تاريخ لبنان العام ، المطول الثاني - جونية - سنة ١٩٤٦

بلييل (ادمون)

الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث

تقلا (سليم) في

الارواح المتمردة - مجموعة مؤلفات جبران

جبران (جبران خليل)

مجموعة مؤلفات جبران - بيروت - ١٨٥٠

جبران (جبران خليل)

المواكب - بيروت - سنة ؟

جبران (جبران خليل)

عجائب الاثار في التراجم والاخبار - مصر - سنة ١٣٢٢ هـ

الجبرتي (عبد الرحمن)

(١٩٠٤ م) - الجزء الثالث ، المجلد الثاني .

ان الادب كان مسؤولا - ترجمة رثيف خوري - بيروت - ١٩٤٨

جدانوف (اندره)

ديوان سليم نصرالله جدى - جمعه جرجي نقولا باز -

جدى (سليم)

بيروت - سنة ١٩٥٠

ذكرى الهجيرة

الجر (شكرالله) في

جمعية اتحاد الشبيبة الاسلامية

منتخابات - بيروت - سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥

جمعية زهرة الاداب

التعليم القويم ضد شر المخدرات الذميمة

جمعية السيدات المسيحية

مصر

لمنع المسكرات والمخدرات

سنة ؟

بالقطر المصري

العروة - المجلد الاول - سنة ١٩٢٦

جمعية العروة الوثقى

ديوان نعمغ الحاج - الجزء الاول - نيويورك - سنة ١٩٢٣

الحاج (نعمه)

منتخابات - الاسكندرية - سنة ١٩٠٣

الحداد (نجيب)

مجموعة الرابطة القلمية

حداد (ندره) في

تاريخ الامير فخرالدين المعني - بيروت - سنة ١٩٣٦

الخالدي (الشيخ احمد)

التبشير والاستعمار - بيروت - سنة ١٩٥٣

خالدي (مصطفى)

ثورة بيدبا - بيروت - سنة ؟

خوري (رثيف)

حقوق الانسان ، من اين والى اين المصير - دمشق - ١٩٣٧

خوري (رثيف)

(ب)

تاريخ لبنان العام ، المطول الثاني - جونه - سنة ١٩٤٦

بليبل (ادمون)

الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث

تقلا (سليم) في

الارواح المتمردة - مجموعة مؤلفات جبران

جبران (جبران خليل)

مجموعة مؤلفات جبران - بيروت - ١٨٥٠

جبران (جبران خليل)

المواكب - بيروت - سنة ؟

جبران (جبران خليل)

عجائب الآثار في التراجم والاخبار - مصر - سنة ١٣٢٢ هـ

الجبرتي (عبد الرحمن)

(١٩٠٤ م) - الجزء الثالث ، المجلد الثاني .

ان الادب كان مسؤولاً - ترجمة رثيف خوري - بيروت - ١٩٤٨

جدانوف (اندره)

ديوان سليم نصرالله جدي - جمعه جرجي نقولا باز -

جدي (سليم)

بيروت - سنة ١٩٥٠

ذكرى الهجيرة

الجبر (شكرالله) في

مجموعة خطب - بيروت - سنة ؟

جمعية اتحاد الشبيبة الاسلامية

منتخبات - بيروت - سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥

جمعية زهرة الاداب

التعليم القويم ضد شر المخدرات الذميمة

جمعية السيدات المسيحية

مصر

لنزع المسكرات والمخدرات

سنة ؟

بالقطر المصري

العروة - المجلد الاول - سنة ١٩٣٦

جمعية العروة الوثقى

ديوان نعمع الحاج - الجزء الاول - نيويورك - سنة ١٩٢٣

الحاج (نعمه)

منتخبات - الاسكندرية - سنة ١٩٠٣

الحداد (نجيب)

مجموعة الرابطة القلمية

حداد (ندره) في

تاريخ الامير فخرالدين المعني - بيروت - سنة ١٩٣٦

الخالدي (الشيخ احمد)

التبشير والاستعمار - بيروت - سنة ١٩٥٣

خالدي (مصطفى)

ثورة بيدبا - بيروت - سنة ؟

خوري (رثيف)

حقوق الانسان ، من اين والى اين المصير - دمشق - ١٩٣٧

خوري (رثيف)

(ج)

- خوري (رثيف) الفكر العربي الحديث ، اثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي - بيروت - ١٩٤٣
مجمع المسرات - بيروت - ١٩٠٩
- الخوري (الدكتور شاكر)
- ديب (وديع) اطروحة عن الادب المهجري تقدم بها لنيل شهادة استاذ في العلوم ، الجامعة الاميركية - بيروت
- الرابطة القلمية
رابطة الكتاب السوريين
روينصون (ادوارد)
الريحاني (امين)
الريحفتي (امين)
- مجموعة الرابطة القلمية - نيويورك - سنة ١٩٢١
درب الى القمة - دمشق - سنة ١٩٥٢
يوميات في لبنان تاريخ وجغرافيا - ترجمة اسد شيخاني - بيروت - سنة ١٩٥٠
انتم الشعراء - بيروت - ١٩٢٢
الريحانيات - بيروت - ١٩٢٣ - ١٩٢٤
- زيدان (جرجي) تاريخ آداب اللغة العربية - الجزء الرابع - الطبعة الثانية - مصر - سنة ١٩٣٧
- السحرتي (مصطفى) خليل مطران ، الرجل والشاعر - مصر - سنة ١٩٤٩
سركيس (سليم) فسي
سعادة (جبران) في
سليمان (فؤاد)
سماحه (مسعود)
- الانتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث
ذكرى الهجرة
درب القمر - بيروت - سنة ١٩٥٢
ديولن مسعود سماحه - بروكلن - سنة ١٩٣٨
- الشدياق (احمد فارس) غنية الطالب ومنية الراغب - الاستانة - سنة ١٣٠٦ هـ
(١٨٨٨ م) - الطبعة الثانية
الشهابي (الامير حيدر) لبنان في عهد الامراء الشهابيين - نشر رستم والبستاني - بيروت - سنة ١٩٣٣

(د)

- صالح (الياس) في
صغير (الخوري بطرس)
الفكر العربي الحديث
الامير بشير الشهابي - سنة ١٩٥٠
- ضمون (توفيق)
ذكرى الهجرة - سان باولو - سنة ١٩٤٥ - ١٩٤٦
- الطهطاوي (رفاعة رافع)
تخليص الابريز الى تلخيص باريز - مصر - سنة ١٢٥٠ هـ
(١٨٣٤ م ٠)
- عقل (وديح)
عقيقي (نجيب)
عناني (الشيخ مصطفى)
ديوان وديع عقل - بيروت - سنة ١٩٤٠
المستشرقون - الطبعة الثانية - مصر - سنة ١٩٤٧
راجع : الاسكندري
- الغزى (الشيخ نجم الدين)
الغضبان (عادل)
غيز (هنرى)
الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة - الجزء الاول - نشر
جبرائيل جبور - بيروت - ١٩٤٥
الشيخ نجيب الحداد - مصر - ١٩٥٢
بيروت ولبنان منذ قرن ونصف للقرن - ترجمة مارون عبود -
بيروت - ١٩٥٠
- الفاخوري (حنا)
فاخوري (عمر)
فاخوري (عمر)
فاخوري (عمر)
فارس (فيليكس)
فريحه (انيس)
فياض (الياس)
فياض (نقولا)
فياض (نقولا)
تاريخ الادب العربي - حريصا - سنة ١٩٥١
اديب في السوق - بيروت - سنة ١٩٤٢
الحقيقة اللبنانية - بيروت - ١٩٤٤
لا هوادة - بيروت - ١٩٤٢
الفكر العربي الحديث
تبسيط قواعد اللغة - بيروت - سنة ١٩٥٢
ديوان فياض - الجزء الاول - بيروت - سنة ١٩١٨
ذكريات ادبية - محاضرة في "محاضرات الندورة" - النشرة
٣ - ٤ - سنة ١٩٥٢
رفيف الاقحوان - بيروت - سنة ١٩٥٠

قازان (نعمه)	معلقة الارز - سان باللو - سنة ١٩٣٨
القروى (الشاعر)	الاعاصير - سان باولو - سنة ؟
القروى (الشاعر)	القرويات - سان باولو - سنة ١٩٢٢
قنصل (الياس)	الاسلاك الشائكة - البرازيل - سنة ١٩٢٨ - ٢٩٢٩
كارن (جون)	رحلة في لبنان في الثلث الاول من القرن التاسع عشر - ترجمة رثيف خورى - بيروت - سنة ١٩٤٨
كتسفليس (وليم)	مجموعة الرابطة القلمية
كرد علي (محمد)	خطط الشام - الجزء الرابع - دمشق - سنة ١٩٢٦
كفورى (جورج)	اللغة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها - بيروت - سنة ؟
كبنغاير	ذكرى فوزى معلوف
لطف الله (فيليب)	ذكرى الهجرة
لونكريك	اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث - ترجمة جعفر خياط - الطبعة الثانية - بيروت - سنة ١٩٤٩
المؤتمر العام الثالث لمنظمة الاونسكو	اعلام اللبنانيين في نهضة الاداب العربية - بيروت - سنة ١٩٤٨
مجلة الورود	
مدور (فريد)	شعلة من الصحراء - بيروت - سنة ؟
مدور (فريد)	كذبه يا ابي - بيروت - سنة ؟
مشرق (نجيب)	المشروعات - حريصا - سنة ١٩٣١
مطران (خليل)	ديوان الخليل - مصر - ١٩٤٩
معلوف (شفيق)	عبقير - الطبعة الثالثة - البرازيل - سنة ١٩٤٩
معلوف (شفيق)	ندا - المجازيف - بيروت - سنة ١٩٥٢
معلوف (فوزى)	على بساط الريح - ريو دى جانيرو - سنة ١٩٢٩

*(و)

المقدسي (انيس الخورى)
الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث - بيروت -
سنة ١٩٥٢
نفع الطيب من فغن الاندلس الرطيب - مصر - ١٩٤٩

ناصر الدين (امين)
ناصر الدين (امين)
نخله (رشيد)
نصولي (انيس)
نعيمة (ميخائيل)
نعيمة (ميخائيل)
نعيمة (ميخائيل)
نيكل (٠١ ر)
الالهام - لبنان - ١٩٣١ ش
صدى الخاطر - لبنان - سنة ١٩١٣
محسن الميزان - بيروت - سنة ١٩٣٦
اسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر - بيروت -
سنة ١٩٢٦
الاباء والبنون - نيويورك - سنة ١٩١٧
كان ما كان - بيروت - سنة ١٩٣٧
همس الجفون - بيروت - سنة ١٩٤٣
مختارات من الشعر الاندلسي - باشراف عمر فروخ - بيروت
سنة ١٩٤٩

الوليد (ابو الفضل) في
وهيبه (منير)
اليازجي (ابراهيم)
اليازجي (خليل)
ذكرى الهجرة
الزجل - حريصا - سنة ١٩٥٢
لغة الجرائد - مصر - سنة ؟
المروءة والوفاء - مصر - سنة ١٩٠٢ (الطبعة الثانية)

ذكرى فوزى معلوف - زحله - سنة ؟
لبنان في عهد الاستقلال - بيروت - سنة ١٩٤٧
x x x x x x x x
x x x x x x x x

(٢) - المراجع الأجنبية

- 1) Abd _ El - Jalil - Brève histoire de la littérature arabe - 5e édition * Paris, 1947
- 2) Aoun (Faiez) Fauzi Ma'lûf et son oeuvre - Paris 1937
- 3) Arcache (Jeanne) l'Emir à la croix : Fskhreddine II Ma'an - Paris, 1945
- 4) Davis (Short history of the Near-East
- 5) Divers historien et archéologues Précis de l'histoire d'Égypte - T. 3
- 6) Hayes (Carlton) The historical evolution of Modern Nationalism - New - York, 1931
- 7) Hitti (Philip) History of Syria - London, 1951
- 8) Isaac (J) l'Epoque révolutionnaire - Paris, 1950
- 9) Johannet (René) Le principe des nationalités - Paris, ?
- 10) Malet et Isaac Histoire contemporaine -
- 11) Nasrallah (P.J.) l'Imprimerie au Liban - Beyrouth, 1948
- 12) Raphael (P.P.) Le rôle du collège maronite romain dans l'orientalisme au XVIIe et XVIIIe siècles - Beyrouth,
- 13) Volney (M.C.F.) Voyage en Syrie et en Egypte - Paris; 2e édition

توطئة

تسوية

يوم زحفت ارجال هولاء على بغداد تقضي على معالم الفكر والعمران،
كتب على مشاركة العرب الهوان، فصارت قوة اهل البلاد ضعفا، ومسح مجدهم ذلة
وخسفا. وقد انتقل العرب في الشرق من نكبة الى نكبة تتقاذفهم ايدي الفاتحين
الذين لم يكونوا ليرفوا للعقل ومحصول العقل حرمة. فما ان تمكن التتر من
البلاد، حتى اطلت من مصر طلائع المماليك الذين قيض لهم ان ينكبوا الشرق
العربي بحكم دام حتى اوائل القرن السادس عشر. وكان حروب المماليك ضد
التتر والصليبيين، وحملاتهم على السكان القابعين في جبال لبنان، ومشاكلهم
الداخلية التي حولت مصر الى مسرح للخianات والمؤامرات، لم تكف العالم العربي،
فانقض السلطان سليم العثماني على سوريا ولبنان وفلسطين ومصر، فخيم بذلك على
بلادنا عهد قائم سمرنا في الجهل، بينما الغرب الذي نشأ على غذاء الفكر
الاسلامي يسير الى الامام، علومه تزدهر، وعقله يصقل، وآدابه تتبلور، حتى اصبح
اليوم واصبحنا وبيننا وبيغروق تكاد لا تزيلها قوة.

هذا، وما تطلبث المصيبة ان تعم، فكان الحدثان يأبى الا ان يصيب
عرب الغرب الاسلامي ما اصاب اخوانهم في الشرق، فنكتسح جيوش فردينان وايزابلا
معاقل العرب في الاندلس، وتقضي، او هي تحاول ان تقضي، على كل ما هو
عربي، ادبا كان ام دينيا ام نزعة. فينتحب المسلمون

على ديار من الاسلام خالية قد افقرت ولها بالكفر عمران

حيث المساجد قد صارت ككاشما فيهن الا نواقيس وصلبان (١)

ويهييمون، لا يلوون على امر، قرصانا يثأرون من سفن الاسبان والمسيحيين

لما حل بهم، او عمالا وصناعا " تفرقوا ببلاد المغرب الاقصى من بر العدو مع (٢)
بلاد افريقية، فاما اهل البادية فمالوا في البوادي الى ما اعتادوه، وداخلوا

(١) نيكل - مختارات من الشعر الاندلسي - من قصيدة لابي البقاء الرندي - ص ٢٠١

(٢) لعلها " من " ٢

اهلها ، فاستنبطوا المياه ، وفرسوا الاشجار ، وعلموهم اشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها ، واما اهل الحواضر فمالوا الى الحواضر واستوطنوها ، واما اهل الصنائع فانهم فاقوا اهل البلاد ، وقطعوا معاشهم ، واخملوا اعمالهم ، وصيروهم اتباعا لهم ومتصرفين بين ايديهم (١)

بعد عهد سيطر فيها الجمود على عقول العرب ، عاد الى العربية وآدابها التي سقطت كميرة خابية خلل قرون وقرون ، قيس جديد ما لبث ان تصاعد ضياؤه قويا مبيرا . وما لبثت يدان ان تهافتتا الى هذا القبس تقطعان به السدب الوعر : يد من ضفاف النيل ، ويد من مشارف لبنان . وكثيرا ما كانت احدى اليدين تتفجر بالدم المبارك الذي يتسرب اليها من اليد الثانية .

حبب المناسبات المختلفة لبنان نظاما اداريا جعله يتمتع ، دون سائر البلدان العربية ، ببعض الاستقلال الداخلي ايام العثمانيين . فبعد الخطاب الذي القاه فخرالدين الاول في حضرة السلطان سليم العثماني ، اعجب العاهل التركي بخضوع الامير اللبناني وباسرافه في كيل الالقاب والمدائح والادعية ، ولم يكن هو اقل من الامير مجاملة ، فاطلق عليه لقب "سلطان البر" وسلّطه على الشوف والمقاطعات المجاورة . وقد احتفظ الامراء المعنيون ، والامراء الشهابيون بعدهم ، باستقلال داخلي كان يضعف ويقوى حسب ما يكون عليه الامير من صلابة او تخاذل . وبعد نجاح المؤامرة التي حيكت في الاستانة لازالة النظام الاستقلالي والامارة اللبنانية في سنة ١٨٤٢ ، عرف لبنان نظاما هو اقرب الى نظام سائر الولايات منه الى النظام الحر المنعق . ولكن عهد المتصرفية اعاد اليه بعض امتيازاته فاصبح سنجقا مستقلا ، مبدئيا ، من الناحية الادارية . وقد ساعدت هذه الاوضاع الدخلية الخاصة لبنان في التقدم وتبوء المرتبة الاولى بين جيرانه في ميدان الثقافة . وقد وصف حتي هذا الوضع بقوله : " بين المقاطعات الشرقية المختلفة التي خضعت للنفوذ العثماني كان لبنان اقلها تأثرا بالمظالم التي فرضها عبد الحميد . فان نظام الحكم الذاتي الذي تمتع به لبنان بعد سنة ١٨٦١ ساعده على المحافظة على تيار الافكار والتأثيرات الثقافية التي كانت تتسرب اليه من الغرب منذ عهد بعيد ، والتي غداها فخرالدين وشيخ (٢)

ولئن قامت فئة تعلن ان النهضة لم تكن لتتفتح اكمامها لولا حملة
بونابرت على مصر، ولولا همة محمد علي وتفانيه، وان مصر بالتالي هي مهد
النهضة الوحيد، فان الحقيقة تأبى علينا الا ان نعلن ان النهضة ليست وليدة
حملة بونابرت، على ما حققتها به هذه الحملة من لقاءات ثقافية واجتماعية جديدة،
وانها ليست خليفة محمد علي فحسب، مع ما يذله هذا الحاكم في سبيلها، بل
هي كذلك بنت لبنان، نهلت من روحه، وهرو وترعرعت على ساعده، فكان نعم الاب،
حضرها يوم بسمت لطلتها دنياه منذ القرن السادس عشر، وتعهدها حتى استقام
عودها، وكان دائما يسهر على خطواتها في ارضه، او يرسل ابناؤه الى مصر
ينوبون عنه بهذه المهمة ابان اغترابها. فحين كان اللبنانيون يضيّقون بحكامهم
ذرها، كانوا يركلون الى حيث تؤمن لهم حرية الفكر، فيقدمون للنهضة خدمات
جلّى. يقول عبد الجليل: " في مصر، وجد اللبنانيون والسوريون الذين حملتهم
مظالم الترك على الهجرة ميدانا واسعا للنشاط، فعلوا فيه كدعاة متحمسين للحرية
والعربية. وقد بلغت الحماسة ببعضهم درجة شعروا بها بانهم في دعوتهم من
اتباع النبي العربي الذي كان اول من مهد للعربية سبيل الانتشار" (١) وسيأتينا
لنا في الفصول التالية ان ثبت اثر المهاجرين الى مصر في مختلف ميادين
النهضة.

اتيت بهذه اللوحة التاريخية كي يرتسم واضحا في الازهان الدور الذي
مثله لبنان على مسرح النهضة العربية. لقد ساهم لبنان بقسط وافر من النهضة عن
طريقين: الطريق الاولى هي الاتصال المباشر الذي كان يجمع بين لبنان والغرب
منذ اقدم العصور، والذي اتخذ طابعا دينيا ما لبث ان اتسم، باحكام الضرورة،
بسمة الثقافة، ذلك لان المبشرين ادركوا ان سبل الاقناع تكون انفذ اذا ما درّسوا
الناس صغارا على ان يسلكوا طريق مفاهيمهم الدينية الخاصة، فانشأوا المدارس
لاغراض دينية في الاصل، فانت تلك المدارس على العلم بالنفع من حيث قصد
اربابها الى الكسب الديني الذي لم يكن لينزه دائما عن صلات له بالكسب السياسي.
اما الطريق الثانية فهي رحيل الادمغة التي جنّدها لبنان الى مصر والمهاجر، فكانت

رسل خير تحمل الى حيث حلت بذور العبقريّة التي طالما حفلت بها تربة الفكر
في لبنان .

وسأحاول في الفصول التالية ان ابسط جواً النهضة التي حلّت
اللبنانيون فيها ، متفقين مع النهضة الى اسبابها البعيدة ، دارساً مظاهرها ، عارضاً
مميزاتها ، مقدماً لها ، اتاماً للفائدة وتيسيراً للفهم ، بلمحة من الاحوال الثقافية
والادبية في عصر الانحطاط ، ايماناً مني بان تذوق الجميل في النهضة يكون
اصح اذا وقف القارئ على احوال ما قبل النهضة . وقد بذلت جهدي لاقتفائي
اكبر كمية ممكنة من آثار ادباء النهضة وشعرائها من اللبنانيين المقيمين والمغتربين ،
جامعاً دأبي البحث في المثرات التي حركت اقلام الكتاب ، وفي اظهر الاتجاهات
التي كان لهم فيها جولات منظمة . وقد كان هدفي ، يوم فكرت بدراسة الموضوع ،
ان ألمّ بنواحي النهضة جميعاً ، فلا اقف عند ناحية مهملة النواحي الاخرى ، فأمل
ان اوفق في عملي الى ما فيه تحقيق للغاية التي ارنو اليها .

كأرشة الأءب

الأحوال الثقافية العامة

قبل ان استعرض الاحوال الثقافية التي كانت سائدة قبل النهضة ، لا بد لي من التحدث عن ناحيتين من النواحي التي كان لها على الحياة الخاصة والعامة في عهد العثمانيين اثر بـين : اعني بهما الناحية الاقتصادية والناحية الادارية والسياسية . ذلك ان الاقتصاد والسياسة والادارة توجه الحياة العامة وتوجه بالتالي الثقافة ، وهي صورة للحياة العامة ، الى الازدهار او الى التقهقر .

يكاد تاريخ البلاد العربية اثناء الاحتلال العثماني يكون متصلا بتاريخ الولاة ومن تبعهم من الانكشارية والموظفين . . . ذلك ان الوالي كان سيد البلاد المطلق ، يتصرف بقدراتها دون ان يخضع لرقابة عالية يفرضها عليه الباب العالي . ومتى علمنا ان الوالي كان كثيرا ما يدفع ثمن منصبه ، ادركنا الحكمة من جعله القرش محورا يدور حوله تفكيره . ولكن الوالي لم يكن وحده يسعى الى الكسب ، بل هنالك جماعة الانكشارية التي قامت على اكتافها فتوحات كثيرة ، والتي اصاها الظفر فاصبحت عالة على الدولة تجر عليها الولايات لما تحدثه في انحائها من اضطرابات تعود في معظمها الى مطالبة هذه الجماعة بالاموال ، والى سطوها على المحال والبيوت ناهبة .

هذا ، ودون الوالي ، ودون الانكشارية ، لصوص محترفون ، وقفوا همهم للسرقه القانونية : الرشوة . لم يكن بعض الموظفين يرون في الارتشاء غير عادة درجوا عليها ليؤمنوا بها حاجاتهم المادية ، ذلك ان الجو الذي اضفته الادارة على عمال الدولة كان جوا يوحي بالخبت والمحابة والرياء والصفقة .

هذه العقلية ، عقلية القرش ، سيطرت على البلاد العربية طيلة اربعة قرون . فهل من المنتظر ان تتمخض عقلية القرش هذه عن غير المادة ؟ هل من المنتظر ان تنتج عقلية القرش ثقافة يعتز بها ويفاخر ؟ لقد تحولت اتجاهات الناس نحو البهيمية ، فانحصر همهم في الكسب المادي بدلا من ان يفسحوا مجالا للروح ان تسرح وللذوق ان يحلق . فكنت تراهم ، وكان الايام في نظرهم قسروش متراصة ، وكان الوجود في شريعتهم ضريبة يؤدونها ثم يولون وكأنهم لم يكونوا . لقد تأثر العرب بحكامهم ، وفي مختلف الميادين ، فتعثمنوا ، وتركسوا ،

فضعت فيهم ملكة العربية كما سرى في فصل لاحق ، واصاب العربية وآدابها من هذا الوضع غبن طعنهما في الصميم ، وأودى بها الى زوايا الانحطاط ، فليس من المستغرب بعد هذا كله ان يحظر قانون القائمية على الموظفين تقاضي القرش الحرام وقبول الرشوة تحت طائلة العقاب (٢) وان يخصص لحظر الرشوة مادة من المواد الثماني عشرة التي تألف منها دستور المتصرفية (٢٠)

وهناك آفة اخرى اضافت الى مساوي الحالة التي ذكرت مساوي لعبت دورا هاما في بعث البلبلة في صفوف العرب ، الا وهي القوة الغاشمة التي طالما تسلم بها المحتلون . منذ ايام المماليك ، والثورات اثر الثورات تتوالى ، فيلجأ الحكام الى القرش احيانا ، ولكنهم غالبا ما كانوا يلجأون الى السيف يطفئون به شرارة النافرين . ولم يكن العثمانيون الذين ورثوا المماليك اقل من هؤلاء بطشاً . فقد اغرق السلاطين الاتراك بلاطاتهم بدماء ذويهم ، قتلوا اولادهم واخوتهم خوفاً من ان يحطمهم الطمع يوما على اغتصاب العرش (٣) ويوم تخطى الفاتحون جبال طورس حملوا وزر الدم معهم الى بلادنا دون حرج ، فحلت في ديار العرب الفتن تبيد معالم الطمأنينة .

ففي لبنان ، اثارها العثمانيون حربا ضروسا على المعنيين والشهابيين ، محاولين القضاء على ما تبقى من استقلال لبنان الذاتي ، فجردوا الحملات على قرماز وفخر الدين ، وشجعوا الجزار على ارهاق اللبنانيين ايام الامير يوسف والامير بشير الثاني . ويبدو ان لغة السيف لاقت في عرف الامير بشير الثاني صدى مستحسناً ، اذ انه راح يطبق خطة الجزار ، يسل عيون من تحاول "مينه ان تعلو على الحاجب" ويشنق ، ويذبح ، ويخنق . . . ولم يكف البلاد ما عانت ، فقام الباب العالي ، وقامت غيره من الابواب العالية في اوروبا ، تحرض الاخ على اخيه ، فاشعلوا نار ثورة في لبنان لاسباب سياسية ، ولكنهم اقاموها دينية ، فكانت .

-
- (١) ادمون بلبيل - تاريخ لبنان العام - المطول الثاني - ص ٢١٦
(٢) ادمون بلبيل - تاريخ لبنان العام - المطول الثاني - ص ٢١٦ . تقول المادق :
يجب ان يكون الحكام باجمعهم موظفين . وان اقدم احدهم على ارتكاب الرشوة فهو مستحق للعزل بل مستوجب للتأديب على قدر قباحتها .
(٣) راجع اخبار بيازيد الاول وبيازيد الثاني وسليم في : ٢١٩ - ١٨١ . P.P. منه

وفي العراق ، كان الولاة يرتكبون جرائمهم فلا يلاقون احيانا من الدولة ما يريدونهم . ولم يقتصر التنظيف في العراق على الولاة او الحكام ، بل حلت الحروب القاسية بين السنيين والشيعة ، بين الاتراك والاييرانيين ، فكثر القتلى من الطرفين . واليك وصفا مختصرا لبعض ما كان يجري : " امراماد بذبح جميع الايرانيين ايمـ وجدوا ، وكان الكثير منهم قد التجأ الى المعسكر العثماني . فقتل الجميع وكان بين المقتولين ثلاثئة زائر كانوا قد عبروا في تلك الايام لزيارة الكاظمين . وجيـ بالف من الاسرى التاسعين بين يدي السلطان ، فامر بقطع رؤوسهم فقطعت حالا . ولم يترك اى ايراني حيا لا في المعسكر ولا في حواليه ، ولا في المدينة نفسها . ومن المحتمل ان هذه المذبحة لم يفرق فيها حيدا بين العرب والفلس لان عدد المقتولين كان عظيما يقدر بثلاثين الفا . وبذا روت هذه المذبحة الاخيرة عطش السلطان الفاتح للدماء " (١)

وفي مصر كانت المناوشات بين الوالي العثماني والبيك الملوك وقائد الجيش مستمرة . فالوالي يحاول اخضاع المماليك والقواد ، والقائد يحاول ان ينال حظوة في عين السلطان بدسه على الوالي ، والمماليك ، شأنهم في ذلك شأن كل حاكم اذل ، يحاولون ان يوسعوا خرق الخلاف بين العثمانيين ، وان يوحّدوا صفوفهم تحت سلطة " شيخ البلد " . ولكن مشيخة البلد كانت كثيرا ما تحول نقمة المماليك من العثمانيين اليهم ، فيتناحر الزعما " في حرب شعواء دامية . وكانت القوة الغاشمة تنتصر دائما . اما المغلوب فكان غالبا ما يقتل ، او يحمل على الفرار الى الصعيد حيث ينتظر نصرة الحظ ليعود الى القتال من جديد " (٢)

اما الحجاز فقد رزح تحت نظام اقطاعي ارستوقراطي ظالم . تجلت مظاهر هذا النظام في قانون " ابي نعي " (٣) الذي به سيس البشر على ايدي " الاشراف "

(١) لونكريك - اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث - ص ٢٠ - ٢١

(٢) *Dictionnaire historique et archéologique. Préface ...* P. ٨١

(٣) قانون اصدره الشريف " ابو نعي " احد حكام الحجاز . وفيما يلي بعض مواد القانون ، وهو يدل دلالة صريحة على ما فيه من تعسف وتعال ، وعلى ما كان يعانيه السكان البائسون من جرائ تطبيق مفعوله .

١ - اذا قتل شريف اخذ من اهل القاتل اربعة وقتلوا ٢ - صانع الشريف تقطع يده ،

٣ - لا يقتل الشريف اذا قتل غير الشريف ٤ - الشريف لا يحاكم في مجلس خصمه .

في لبنان ، وفي العراق ، وفي مصر ، وفي الحجاز ، وفي سوريا ،
وفي اليمن ، وفي كل سماء من سماء العرب ، ظلم يغطي . فاذا بالشعر نظم
سج وقافية مصطنعة ، واذا بالادب كلمة فارغة وجملته لا ابداع فيها ، واذا بالفن
دف ومزمار في الحانات او في اللوائ ، او خصر يمين برقصة في حريم سلطان !!

" بدأت طلائع الانحطاط في القرن التاسع (للهجرة) ، فلم ينبغ في
الشام من احدث عملا علميا عظيما ، او دل على نبوغ في فرع من فروع العلم ، وكثر فيه
الجماعون والمختصرون والشارحون من المؤلفين ، والسبب ان حكومة المماليك البرجية
والبحرية كانت تشدد في ارهاق المتفلسفة والمتفهمة على غير الاصول المتعارفة التي
لم يشتهر منها سوى اربعة ائمة : الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي . فكان المخالف
قليل يغرر على مذهب المالكية ، والقتل ايسر مراتب التفرير عندهم ، ثم زادت الحال
اشتدادا في اوائل القرن بانسيال جيوش تيمورليك على البلاد ، وقتله بعض العلماء ،
وحمله معه الى سمرقند كل ممتاز بعلم او صناعة " (١)

ولقد رأينا ان العثمانيين ترسموا سنن المماليك في البطش والقمع ،
فراحوا يقضون على كل وميض عبقرية يلوح في خاطر اديب او مفن ، فغدت البلاد
وكانها مقابر احياء . ويصف محمد كرد علي العهد العثماني بقوله : " زاد انحطاط
العلم في القرن العاشر ، فلم تكن ايام الترك ميمونة على المحارف في هذه الديار ،
وكانت الاداب تسير ان ذاك بقوة التسلسل منبعثة قوتها من تاريخها القديم القويم .
وان اختلف لسان الحاكم والمحكوم عليه ، وخصت الوظائف الدينية الكبرى بجماعة
السلطان من الترك ، مالت النفوس عن العلم ، اللهم الا من كانت لهم فطر سليمة
عشقوه لفائده في تهذيب النفس والتحلي بالفضائل وقليل ما هم " (٢) ثم يتابع
قائلا : " دخل القرن الثاني عشر ولا تجديد فيه ولا جديدة الا النظر في قضايا
قديمة لاكتها الالسن قديما لا ابداع فيها ولا اختراع ، فالمسائل الدينية المقررة
تنتقل خلفا عن سلف ، والاداب العربية تنحط حتى اصبح الشعر والنثر في حالة
مخزية ، وصارت الفتوى والقضاء والمناصب العلمية ملعبة وشعبذة وسخرية والمدارس

(١) محمد كرد علي - ص ٥٥

(٢) محمد كرد علي - ص ٥٢ - ٥٨

ماوى الحمير كما قال احد العارفين بذاك العصر (١)
هذه لمحة تمهيدية اردت اثباتها قبل ان استعرض نواحي الادب والعلوم
في عصر الانحطاط . ولا شك في ان صيدنا سيكون هزيعا جدا اذا ما قيس بما
كان للعرب قديما وبما اصبح لهم اليوم . وساقف تاول ما اقف عند المكتبات .

الكتاب والمدرسة مثقلا الشعوب ومقياس حضاراتها . فان امة عرفت بكثرة
كتبها ومدارسها وشغف اهلها بها، فهي امة تقيم للعقل وبناته وزنا خطيرا . كان من
الطبيعي بعد ما خلفه العرب من كتب خلال امصرهم الذهبية ، ان تعتصم هذه
الكتب في مكتبات المتأخرين الخاصة والعامة . ولكن الحدثان الذى طارد العرب
سياسيا ابى الا ان يصيب الادب ، لذلك كان الغزاة البرابرة والحكام الجهلة
يقضون على المكتبات ويضطهدون الكتب ، (٢) اما لجهل وغباوة في نفوسهم ، واما لان
الكتب اساس الاستقلال العقلي الذى يؤدى دائما الى السعي وراء الاستقلال القومي .
وهكذا ، فان ما تبقى من الكتب العربية انتقل الى بعض المكتبات
خصوصا في مصر وسوريا ، حتى اذا ما آذنت شمس النهضة بالاشراق كانت المكتبات
خير معين للباحثين (٣) .

ولم تخرج الكتب في عصر الانحطاط عن كونها مصدرا للنفع ينحصر
ببعض العلماء ، او اداة يفاخر بزينتها ادعياء العلم ، لذلك لم تعم فائدتها . اما
ما كان منها رائجا فهو ما يبحث في الدين والصلوات والشروح والقواعد والصناعة
اللغوية . يقول غيز : " تدخل الكتب ايضا في عداد الهبات التي تقدم للمساجد

(١) محمد كرد علي - ص ٦٤

(٢) يقول بليبل ، الجزء الثاني ، ص ٣٨٩ : " وكان في جبل عامل عدد كبير من
المخطوطات القيمة المحفوظة في المكاتب الخاصة ، واشهرها مكتبة آل خاتون ، فاخذ
منها الجزار خمسة آلاف يجلد واحرقها في افران عكا " . ويقول فولتي ، الجزء الثاني
ص ١٩٠ - ١٩١ : " كان الرهبان (دير المخلص - صيدا) قد جمعوا في الاونة
الاخيرة كميات كبيرة من الكتب العربية المخطوطة والمطبوعة . ولكن منذ ثماني سنوات
تقريبا اشعل الجزار نيران الحرب في بلادهم ، فنهب جنوده الدير وشتتوا كتبه "

(٣) راجع الفصل الخاص بالمكتبات فيما بعد في

بغية تثقيف الشعب الاسلامي القليل المطالعة بطبيعته (١) . وهذه الكتب تكون عادة مصاحف وشروحا وكتب عبادة اخرى " (١) ويقدم لنا فولني فكرة واضحة عن الكتب المخطوطة والمطبوعة التي شاهدها في دير مار يوحنا فيورد لنا عناوينها بالفرنسية والعربية . واليك لائحة ببعض هذه الكتب (٢) ، وهي تمثل النوع الذي اشترت اليه اعلاه :

" اباطيل العالم — مرشد الخاطي — مرشد الكاهن — مرشد المسيحي — المزامير — تقليد المسيح — الانجيل والرسايل — مواظفم الذهب — المطالب والمباحث (قواعد) — ديوان جرمانوس فرحات — القرآن — الالفية — مقامات الحريري — فقه اللغة — الطب لابن سينا . "

بعد ما استعرضنا احوال الكتاب بهذه النظرة السريعة لا ننتظر ان نقف في ميدان الثقافة على علوم راقية وفنون سامية وخلق جميل . كل ما نتوقع ان نشاهده كتائب لصق الجوامع والكنائس ، ومعارف بدائية لا تتعدى القراءة والكتابة الا الى النظم المتفلسف المصطنع ، والتأرجح البهلواني فوق قواعد اللغة .

عرفت بلادنا ابان الاحتلال الروماني والاحتلال البيزنطي نهضة علمية تجلت في المدارس التي طبقت شهرتها الافاق ، وفي العلماء والمخترعين ، والمشرعين الذين ساهم بعضهم بقسط وافر في تحرير الشرائع الرومانية ، وبعد تلك العهود ، اخذت المدارس تتسم بالطابع الديني ، وبقيت تتدرج حتى ايام الفاطميين ، ومن تلاحم فكان منها مدارس منظمة ، خصوصا في طرابلس حيث انشئ عدد منها . وعلى رأسها " دار الحكمة " التي انشأها القاضي جلال الملك علي ابن عمار لنشر الدوحة الفاطمية ، والمدرسة الزرقية وغيرهما . " الا ان التعليم فقد في هذه الحقبة شيئا من شموله ، الانساني ، فماتحصر بالقراءة والكتابة والحساب البسيط والتفسير الديني ، واتجه بعضه جهة عملية ترشح طلابها للوظائف الادارية " (٣)

(١) غيز ، جز ١ ، ص ٣٣ . ان لهجة المؤلف في التبد المطلق حول طبيعة المسلم والمطالعة تدعو الى عدم التسليم . ذلك لان ما عرف عن المسلمين في التاريخ هو عكس ما اتى به . ولكن كلام غيز قد ينطبق على حالة المسلمين في المرحلة التي يتكلم عنها بويديم هذا الكلام اديب مؤرخ مسلم هو محمد كرد علي الذي يقول : " وقد ضعفت في هذا القرن ملكة البيان في المسلمين ، وهم يتلون القرآن ولكن بدون ان يتدبروا معانيه بيفهموا اجازته حتى اصبح الفقيه والمحدث والنحوي والبياني والمنطقي لا يحسن كتابة سطرين الا بصعوبة ليس بعدها صعوبة " ص ٢٨

وجدت المدارس في لبنان ، ولكن العلوم ، كما ذكرت ، كانت بدائية .
وأتى للعلوم ان تنتشر ، والكتاب المطبوع بقي نادرا حتى عهد متأخر ، أتى للثقافة
ان تذيب في الناس ، والجريدة ، وهي ليست دون الكتاب خطورة ، لم تعرف السى
بلاد العرب سبيلا الا في منتصف القرن التاسع عشر ؟ يقول غيز : " الثقافة صعب
تعظيمها بينهم وجعلها في متناول جميع الناس . فالبلدان هنا محرومة من الجرائد
لا يذاع ولا ينشر فيها شيء " . لا نجد شخصا واحدا (١) يتعاطى الكتابة ولو على مسيل
التسلية ، والقصاصون الذين يتولون ، كل مساء ، خلال ساعة ، تسلية عاطلي المقاهي ،
يستقون معلوماتهم القصصية من مخطوطات بالية مبتذلة " (٢)

وبينما كان الغرب يتقدم في عجل سحري ، مخضعا العلوم لمنفعته ،
مسخرا الطبيعة ومواردها لسعادته ، كان الشرق ، وحتى الشرق المتعلم ، ينظر ،
والعجب آخذ بعينه ، الى بعض " مبتكرات " الغرب ، وهو اما ان يصدق بالتصديق
ليس بالامر اليسير ، او ان يتنكر لما يسمع ويتعلم ، فيرمى عندئذ بالتأخر والرجعية .
وقد اتفق بعض من رحلوا الى لبنان في وصف الحركة الثقافية ، فيقول ادوارد
روبنسون في وصف امتحان حضرة في مدرسة عبيه التي انشأها المرسلون الاميركان :
" حضر الامتحان عدد لا يستهان به من سكان القرية بينهم واحد او اثنان من
ذوى الرتب العالية . وبينما كانوا يصغون الى الامتحانات بدا عليهم الاضطراب
والانزعاج عند سماعهم عن دوران الارض ، حتى ان احدهم تحدث عن هذه المشكلة
الى احد المرسلين " (٣) ويصف طوني فولني وضعاً مماثلاً في دير ماريوحنا
فيقول : " ان رهبان ماريوحنا الذين يملكون الكتب وقيمون العلاقات الوثيقة مع
روما ليسوا اقل من غيرهم جهلا . فانهم لم يسمعوا قط ، قبل حلولي بينهم ، بان
الارض تدور حول الشمس " (٤)

اما الفن فلم يكن اقل من العلوم تفهقرا وانزوا . وان كان للادب والعلوم
ما يبرر وجود بقايا منها نظرا لتاريخ العرب الادبي الحافل ، فان الفن كان
منبوذا ، خصوصا ما كان منه في فروع النحت والتصوير والنقش وما لف لفها ، ذلك
لان الاسلام نظر الى التصوير وتمثيل الاشكال نظرة غير مشجعة . وان كان ثمة

(١) هذه ، في نظري ، ايجابية متطرفة !

(٢) غيز ، جز ١ ، ص ٦٦

٧٥٥٧١، T. 2, p. 406

(٤)

(٣) روبنسون ، جز ١ ، ص ١٠٦

فن في ذلك العصر، فن كسي انحصر في رسم الايقونات، ولكن هذا الفن لم يكن اصيلا في البلاد اذ ان المسيحيين كانوا يولون انظارهم شطر القسطنطينية للحصول على ايقوناتهم. (١)

ولكن لبنان لم يقنع بما كان له. انه لم يقنع بمدارس منثورة هنا وهناك، وكل هم معلمها، وهم من رجال الدين غالبا، ان يقرأ التلاميذ القرآن او المزامير. لقد كتب له ان يجعل فيما بعد من مدارسه الاولى معاهد عليا ستسير في طليعة المدارس في البلاد العربية مهيئة للنهضة رهيلا من الادباء والمثقفين ما يزال في تعاطف نام. ولقد كتب موريس بارس سنة ١٩١٤ مصورا رغبة الشعب اللبناني في العلم فقال: "مدارس! مدارس! اعطنا مدارس! ٠٠ ان ما يشير اللبناني فاما هو الشعور الروحي الذي اثار صاحب المزامير فصاح: اعطني المعرفة فاحيا! وانسي لاراء شعارا مؤثرا يرفرف على لبنان باسره" (٢)

(١) Volney, T. 2, P. 395

(٢) فؤاد افرايم البستاني - ص ١٢١

الحد الادنى

ان الكوارث التي تصيب العقل والعاطفة وما ينتج عنهما من جمالات ادبية او فنية ، لاعمق اثرا وابلغ تعبيراً من الكوارث المادية التي تنقضها على الاناس الحرائق والطوفانات والزلازل وما شابهها . ولست هنا في موقف يدعو الى البحث الطويل في علاقات المادة بالروح ، وفي تفاعلها والمقابلة بينهما . ذلك بحث انا في حل منه . انما اردت ان اقول ان ما يخلد على اليا ، ان ما يبرنو اليه البشر ، هو تلك الدماء التي عليها تقوم المدنية ، وهو تلك الآثار التي تعبر عن كوامن النفس العبقريه بوسائل تختلف بين الوتر والقلم والريشة والازميل . . . وسبق لنا ان كشفنا ، بلمحة عامة ، النقاب عن فاجعة الفكر في عصر الانحطاط ، فلا ازميل ، ولا ريشة ، ولا وتر . . . بل قلم عائر يتخبط في الزمان هزيعاً ، كئيباً ، داسياً . . . لقد حولت الكارثة الشاعر الى " طبال او زامر او قراد يغني ويلعب امام من يعطيه درهماً قليلة " (١) ، واصبح عمال القلم كمرجى القصور ، مع فرق ، وهو ان الموج قد ينطلق احياناً من نكتة ماجنة تافهة الى لدعة فنية او خاطرة فلسفية ، بينما اولئك كانوا كثيراً ما يحاولون الفلسفة والاشراق العقلي فلا يأتون الا بالمضحك المبكي من الترهات . . .

النشر لنقف اولا عند النشر . . .

لدينا بعض الآثار النثرية العائدة الى عصر الانحطاط . وهذه الآثار كافية للدلالة على ما كانت عليه حياة النشر في تلك اليا . وهي ، وان كانت تختلف من حيث الصيغة والمعني ، فانها تشير الى ان النشر كان في طور احتضار ، او ، على الاقل ، في طور مرض وتضعف لا يعرف الحياة السليمة المستقرة . " وما انقضى صدر الدولة العثمانية ، وسادت التركية في الدواوين ، وطغت العامة على الفصحى ، حتى لفظت البلاغة نفسها . وصار الكتاب لا يطبقون الافصح مما في ضمائرهم ، واعتاصت عليهم الصناعة ، وفسدت اللغة في عباراتهم ، واكثروا من الحشو والكلام الفارغ ، وتكلفوا السجع على ضعفهم ، فجاء " سخيلاً نابياً ، متقللاً في

(١) التعبير لمحمد كرد علي (خطط الشام)

ان اول ما يستوقفنا في اخبار المعنيين في العصر الحديث خطبة الامير فخر الدين الاول في حضرة السلطان سليم العثماني . ولم تكن هذه الخطبة لتستوقفنا لولم تكن تقبل اتجاهها كاد يكون عاما في الادب آنذاك . ولا اجد بدا من اثبات الخطبة قبل ان اخرج منها بالنتائج : " اللهم ادم دوام من اخسترت لملكك وجعلته خليفة عهدك وسلطته على عبادك وارضك ، وقلدته زمام سنتك وفرضك . ناصر الشريعة النيرة الفراء وقائد الامة الطاهرة الظاهرة سيدنا وولي نعمتنا امير المؤمنين الامام العادل والذي الفاضل ، الذي بيده ازمة الامر بادشاء ادام الله بقاءه ، وفي العزائم ابقاءه ، وخلد في الدنيا مجده ونعماءه ، ورفع الى القيامة طالع سعده ، وبلغه مأمله وغاية قصده ، من ملك الملك بالعقل والتدقيق ، ومده بالاقبال والتوفيق . اعاننا الله بالدعاء لدوام دولته بالسعد والتخليد ، بانعم العز والتجيد آمين . " (٢)

فمن حيث معنى الخطبة نجد حشوا وتلفيقا ، ومضنا لفكرة واحدة تسيطر على الخطبة التي كان بالامكان ان ترد في سطر بدلا من ثمانية . اما من حيث القالب فان ما يطالعنا في الاسلوب هو نفسه ما يطالعنا في اسلوب القطع النثرية المختلفة : سجع مل ، وجمع يقذفنا بها صاحبها تعاويد سحرية ، او ادعية مرصعة كالتي يحوكها النور ! ولكن للقطعة " ميزة " يجب ان لا يغرب عن بالتنا مفرزاها ، وهي انها خالية من الاخطاء النحوية والاملائية ! ولعل ما ساعد الامير في عدم ارتكاب الاخطاء انه ، وهو الامير ، قد يكون وجد الامكانية الكافية ليتدرب على ايدي العلماء . (٣)

وانتقل الان الى الامير بشير الثاني الشهابي . لم يكن هذا الامير ادبيا ، كما ان فخر الدين الاول لم يكن ادبيا ، انما اردت ان اثبت بعض ما خلفاء لان في ذلك ما يلقي ضوا ولوضيلا على نثر العصر . واكتفي من آثار الامير بشير باثنين : الاول رسالة بعث بها الى احد معارفه ، والثاني وصيته . اما الرسالة

(١) بطرس البستاني - ص ١٢٣ - ١٢٤

(٢) ادمون بلييل - ص ٢٨٥

(٣) او لعل احد اخصائه الادباء قد كتب له الخطبة ؟

فقد ورد فيها : " بلغنا انه حاصل لخوتكم (١) طرف ترشيل (رشع) فهل قدر انشغل فكرنا بذلك انشا الله يكون عرض وزال وحصلتم على الشفاء التام المراد تعرفونا عن رياضتكم لانكم تعلموا ان ذلك ما يشرح خاطرنا ولا تقطعوا اخباركم عنا

محـب مخلص بشير (٢)

واما الوصية فاقتطف منها ما يلي : " اسأله (الله) العفو عما مضى من الذنوب والسيئات ، وان يعاملني باحسانه ولطفه من بعد الممات معترفا بانني سبيدا ضعيف ذميم ، واني قادما على ملك قادر رحيم . فلذلك قبل انتقالي بصحة جسمي وعقلي واختياري من هذه الديار الفانية الى الديار الباقية اقر معترفا بان امانتي على امانة الكنيسة الرومانية المقدسة ، واؤمن بكلها تأمين به .

" . . . وكيلانا . في الجبل هم اعزازنا خليل وملحم طرابلسي فاريد ان زوجتي المذكورة تجرى معهم الحساب بالحق واذا كان ياقيا لهم بذمتي شي ' توفيهـم اياه بما انهم متوكلين ايضا على ارزاقها . . . (٣) ولا بأس في ايراد بعض ما ورد في الوثيقة التي كتبها رستم باز عن موت الامير . قال : " والامير موضوع باوضته التي مات بها في دار الرجال . فدخلت وقعدت مع الموجودين فيه فسألتهـم كيف كان الامير ؟ قالوا : لم يكن جد عليه شي ' بعد ما فارقتـه ، فطر حسب عادته وشرب قهوى وغليون توتون ونام . . . وفاق وفسل وطلب قهوى . . . فاسرع الخوري اسطفان واوضته بجانب اوضه الامير فلم يجد فيه روح . . . وفي الساعة الواحدة ونصف حضروا اثنين تليان ومن بعد ما تعشوا طلبوا ان يروا الجثة . ادخلوهم الى الاوضه الموجودة فيها واضاءوا اربع شمعات كبار فلما نظروها قال واحد من المصورين الذي اظنه خاف ، واما الثاني اشجع قال . . . لناخذ الرسم بقدر الامكان . . . الخ " (٤)

لست بحاجة الى الوقوف امام هذه النماذج اكثر مما فعلت ، لان ركاكة الاسلوب فيها بادية ، ولان الاخطاء الاملائية والنحوية واللغوية لا تخفى على المطلع وقد اشرت اليها بخط .

(١) لاوخ لاختوتكم

(٢) الخوري بطرس صفيـر - الامير بشير الشهابي - ص ١٥١ - ١٥٢ . منقولة عن اصل محفوظ في مكتبة الخوري اسطفان بشعلاني .

(٣) الخوري صفيـر - ص ١٢٢ - ١٢٦ الخوري صفيـر - ص ١٢٠ - ١٢١

الا ان التقصير لم يقف عند الرسائل ولغة الدواوين . فقد ورد في كتاب "المزامير" الذي طبع سنة ١٦١٠ كلمة للناشر يشير فيها كاتبها الى متعهد طبع الكتاب فيقول : " اما المعني بهذا الكتاب وغيره هو الاب الموقر خالي المطران سرجيوس البرزي مطران الشام المحروسة الذي اجتهد وحمل هذه الحملة الثقيلة ووضع ذاته تحت دين له صورة حتى استطاع يكمل رستاق هذا الشغل لكيما انسه يفعل امر يكون في اصطلاح وخدمة البيعة المقدسة " (١) هذه المقدمة كتبها احد المشرفين على طبع الكتاب ، وهؤلاء من ذوى العلم والادب ، وبعضهم من خريجي مدرسة روما المارونية . ومع ذلك نجد ان العربية تكاد تكون عامية تماما ، اضاف الى ذلك الاخطاء الفاحشة المتأتية في معظمها عن كون اللغة المكتوبة في ذلك الحين قريبة جدا من اللغة المحكية التي لا تقيم لقواعد الاملاء واللغة وزنا .

ويا ليت الركافة وقفت عند هذا الحد . لقد شاعت حتى في المؤلفات العلمية والادبية . وللننتقل الان الى الشيخ احمد ابن محمد الخالدي الذي وضع تاريخا لاهمال فخرالدين الثاني ولابنه علي خلال حقبة تمتد ما بين سنة ١٦١٢ وسنة ١٦٢٤ . ومع ان الكتاب تاريخي ، وبالتالي علمي يتطلب اسلوبا عاديا في السرد ، فاننا نلاحظ ان الكاتب قد سعى الى الزخرفة اللفظية ، وليته ما فعل ! ان السجع يخيم على فائحة الكتاب ، وهو يخف في الكتاب نفسه عند سرد الحوادث . ولكننا نقع هنا ايضا على السجع فلي اماكن اشهرها تلك التي يتاح للكاتب فيها رصع جمل المدح والتبجيل . فيقول مثلا : " ومن عادة الامير فخرالدين وولده ~~علي~~ علي - ~~الحكم~~ امير لواء صفد ، دام في حفظ الصمد " (٢) او : " وارسل الامير فخر الدين ولده العزيز علي الحكم ، لاستقبال حضرة الوزير الاعظم " (٣) او : " فلما استقر حافظ باشا بمدينة الشام شرع في تحريك الفتن " وظهر ما كان في باطنه قد بطن " (٤)

والى جانب السجع صناعة ملة تبدو واضحة كذلك في الفاتحة . انظر

(١) P. ٥٤. Ms. ١١١١ - P. ٥٤. Ms. ١١١١

(٢) الخالدي - الامير فخرالدين المعني - ص ٥

(٣) - - - - - ص ٥

(٤) - - - - - ص ٨

الى هذين المثلين اللذين يعكسان لنا الجنس المصطنع : " الى ان من الله عليهم بدولة مؤيدة ، ونعمة مخلدة ، الا وهي الدولة المعنية ، التي هي بامثال الشـرع معنية " (١) والمثل الثاني : " ان حضرة الامير فخرالدين حفظه الله صاحب هذه السيرة سليم الصدر ، صافي السيرة ، قد ركب متن الوفا سريه ، ولا شك ان له عند الله سريه " (٢)

وهناك اخطاء ، لو ارتكبها احد التلاميذ في صف ابتدائي اليوم لعد من المقصرين المتقاصين ! فما رأيك بشيخ يرتكب خطأ نحويا كالوارد في هذه الجملة : " لم يثبت مع البلوكباشي فير احد وخمسون نفرا " (٣) ما رأيك بشيخ يكتب : " واعطا حضرة الامير يونس ٠٠٠ ٠٠٠ (٤)

هذه لمحة خاطفة من النشر في عصر الانحطاط ، انه ثوب لـ " ادب سطحي اجوف ، لا عمق فيه ولا جدة ، حشوه الفاظ رنانة وعبارات مزوقة واعادة بعيدة الافادة . وتكاد لا تقرأ كتابا او تسمع خطابا الا كانت لحمته وسداه دعاء مستطيلا للبادشاه او بخورا على مذبح الرياء والتقليد " (٥) الا ان الضعف الذي ينتاب نشر العصر يختلف احيانا بين الخطبة والكتاب العلمي والرسالة والتقرير ، فبينما نجده خفيفا في الكتاب او الخطبة ، نجده في اوجه في لغة بعض الرسائل وفي لغة الدواوين ، ذلك ان الرسالة ادب شخصي يقصد بها التعبير عن عاطفة او رغبة او طلب يعنى بها واحد ، كما ان التقرير لا يقصد به النشر بين الناس كي يعتمد فيه كاتبه البلاغة ، هذا اذا كان باستطاعة كتاب الدواوين ان يلمو بالبلاغة !

وتبدو المصيبة اثقل وقعا متى نظرنا الى ادب العصر بعين اجنبي خبر البلاد واحوالها مدة طويلة . يقول هنرى فيز : " ان الانشاء ، اسلوب الكتابة ، هو رمزي دائما ، حتى ان اللغة العامية حافلة بالتشابه والاستعارات والمجاز . وفي المراسلات بوجه خاص يدفع هذا الفن الى اعلى قممه ، اذ يصعب هنا ان يرسل

(١) الخالدي - ص ٢

(٢) الخالدي - ص ٣

(٣) الخالدي - ص ٢٢

(٤) الخالدي - ص ٢١

(٥) نقولا فياض - ذكريات ادبية - محاضرات الندوة - ص ٤٠ - ٤١

الكلام عفو الطبع . فلاشخاص تشبه بكائنات خيالية او وهمية ، وقد تمسخ لان الصور التي تشبه بها لا تنطبق عليها ، وكثيرا ما يأخذون تشابيههم من اشياء لا تألفها عامة البشر فيعبرون عن افكارهم بالعطور والازهار والصبا والدرر والاشياء الاخرى من نسيج وغيره . (١٠)

الا ان النشر لم يعدم اعلاما من المصنفين حافظوا على صفا العربية الى حد بعيد ، وان لم يخلقوا في جوا ابداع ، كالغزى والمحيبي وغيرهما . وفي وصف اسلوب هذه الفئة يقول بطرس البستاني : " واما انشاء المصنفين فلم نعه الصناعة كما عمت فن الترسل ، فقد لبث طائفة منهم يقصدون الى الاسلوب المرسل فاحسنوا في ذلك . ولكن لم تتفر لهم يلاغة اسلافهم ، فجاء انشاؤهم في الجملة على شيء من اللين ، ولم يخلص من التعقيد والتطويل " (٢)

واذا وقفنا على وصف الكتب التي عرفت في تلك الايام ادركنا ان الجديد كان في حكم العدم ، وان الابداع امر لم تألفه النفوس والاقلام . ان الكتب فسي جملتها كانت شروحا لكتب سابقة ، وتعليقات على كتب سابقة ، وحواشي تزد على كتب سابقة . اما الكتب الموضوعة فكانت نادرة ، وكان الانتاج الفكري مقتصر على قضايا الدين واللغة التي يظهر اثرها حتى في الشعر الصناعي . وجلسة قصيرة مع الغزى تطلعنا على اسماء الكتب واصنافها ، وفي ذلك من الوضوح ما يكفي للتعبير عما في بطون الكتب (٣٠)

(١) هنري فيز - جز ١ - ص ١٢٣

(٢) بطرس البستاني - ادباء العرب - ص ١٢٥

(٣) الغزى - الكواكب السائرة - جز ٢ - ص ١١٤ ، والجز الثاني ، ص : ٤٧ ، ١٢٦ ،

محمد البازلي : حاشية على شرح جمع الجوامع للمحلي .

احمد القسطلاني : شرح على البخارى -

خالد ابن عبد الله الازهرى : شرح على اوضح المسالك الى الفية ابن مالك لابن هشام

----- : شرح على قواعد الاعراب لابن هشام

احمد ابن علي القارى : حاشية على شروح هداية الحكمة لمولانا زاده - حواشي على

شرح التجريد ، وتفسير سورة الفجر . . .

الشعر كثيرا ما يرى الشعراء انهم من جيلة غير جيلة البشر، وكثيرا ما يشعرون بان ارواحهم، تلك القوى الفياضة الكامنة في اجسادهم، تحاول الانفلات من اسارها الجسدي الذي يشد بها الى اسفل، بينما هي ترنو الى عالم اعلى ترتع بين حوره حرة سيدة (١). ولئن كانت ارواح الشعراء الشعراء قد لقيت في الشعر ملعبا نورانيا ترتع فيه، فان ما لا شك فيه ان الشعر - معاذ الشعراء - قد حط بارواح شعراء الانحطاط في المعابر المظلمة. واني لاتخيل الناظم في ذلك الزمان يجلس الى الورقة يكرس عليها كميات من الالفاظ هي القوافي، وكميات من التعابير المعلمة الخاصة هي لحمة الابيات، ثم يشرع في نحت معان يلبسها الثوب المفصل. وما يهمه ان المعنى في الثوب العجيب "كالحلح في ثوب"؟ ويختال المخلوق العجيب مجبا بين يدي خالقه، ولكنه ما يلبث ان يعثر ويعثر، وان عاود سيره فانما دبيا. ولكن الخالق ينظر الى خلقه ويصيح مع ذلك الصوفي في حالة من الفناء: "سبحاني ما اعظم شاني"!

المبنى؟ كلمات مرصعة بحجارة طالما اتت مزينة، وابيات تشعر وانت تقرأها بان ناظمها على آخر رمق، وهو يحاول جاهدا الوصول الى خاتمة المطاف، الى القافية. اما الابيات فلطالما اضطربت جرسا وتركيبا، فحطمت مقاييس الاذن واللسان، وهامت على وجهها لا تلوى على شي...!

يقول الاسكندر من قصيدة (٢):

لم انس مذ قالوا فلان لقد
اضحى كبير النفس ما اجهله
فهل اسج من هذه "اللقد"؟
ويقول ابن صدقة مادحا:

(١) راجع الصفحة ١٣٨ من هذا البحث.

(٢) الغزى - جز' ١ - ص ١٦.

فهو الرئيس ابن الرئيس ابن الرئيس واراس الرؤسا
كررت مدحي اذ حلا في الاكل ابن الاكل ابن الاملا
الزاهد الورع النقي الظاهر الحسب التقى السبر بالفقرا (١)
ثم يطالعنا بها* الدين ابن احمد (٢) بمسلة من الصفات بلغت -
وايم الحق - خفسا ومشرين حسرهما في اربعة ابيات :
وله العلم حلة وشعار ولهذا في المجد اضحى سنيا
عالمنا عاملا جليلا جميلا خاشعا ناسكا عزيزا ابيا
عابدا زاهدا اماط كبيرا محسنا مخلصا كريما سريرا
وحسبنا !!!

ولنسمع سيد علوان الحموي (٣) يرثي محمد ابن الكرسوسي :
يا معشر الاسلام توبوا وارجعوا وكاننا بالموت جا بالكاس
و هو الكرسوسي شيخ بلادكم كم قام فوق منابر وكراسي (١)
ذهب الاولى كما نعيش بظلمهم وبليت في ناس كما النسناس (!)
واذا باحمد الباهوني (٤) قد اعياء الوزن ، فيصيح وقد اطاق قاعدة
التأنيث : واد به الغيد الحسان قد استروا ٠٠٠ فلا تأنس لـ الى "الغيد الحسلن"
حتى تطالعك وار الجماعة بقناطير الخشونة !

لا جمال ، ولا بلافة ٠٠٠ بل تبج يسرى في الابيات كالسم الناقع ،
وركاكة كانها الشلل تجتاح كل عضو من اعضائها ٠٠٠

ولم يكن المعنى اصلح حالا من المبني . واتى له ذلك ، وهو مخلوق
مناسبات لا توحى في جملتها الا بالركيك الركيك ؟ ضاعت المعاني بين مدح ورثاء
واحاج ، فلم يأتوا بجديد ، بل على العكس عاجوا على آثار الماضين يقلدون معانيها
ومبانيها . ومع ان الابواب المطروقة قد شهدت في سالف العصور قصائد مجتسية

(١) الغزى - جز ١ - ص ٤٣ - ٤٦

(٢) الغزى - جز ١ - ص ٢٠٦

(٣) الغزى - جز ١ - ص ٥٥ (٤) الغزى - جز ١ - ص ١٤٠

وشعرا مجلّين ، فان شعرا الانحطاط حولوا المدح الى سخرية ، والرتاء الى مصحكة ، واتخذوا من الاحاجي حبالا يمشون فوقها على رؤوسهم ! لقد ساد التصنع في الشعر ، فالشاعر الشاعر هو من يأتي بأنواع البديع ، ومن يقف في كل مناسبة مادحا او رائيا ، بلغة لا نشعر معها بغبطة مع المدح ولا بحزن على الميت .

اذا عرف الانحطاط بالتقليد في المعنى وفي المبنى . فمن حيث الطريقة المتبعة في النظم نفع على قصائد كثيرة تبدأ بالغزل التقليدي ، ثم يتحول بعدها الناظم الى الموضوع المقصود ، كما نحا ابن مليك (١) في قصيدته النبوية . فبعد ان يحدثنا عن قلبه الطّير المولّه ، وسهام اللحظ ، والقدر المياس ، والعذول ، ينتقل بنا الى

خاتم الانبياء والرسل حقا من اتى بالهدى وآدى الرسالة
او كما نحا العلاّ الموصلي (٢) في مدح فبدأ به
الورد من وجنات خدك يقطف والشهد من جنبات ثغرك يرشف
وانتهى به
اهدت لى اخلاقه طيب الشنا فشناؤه كالمسك بل هو اعرف

هذا من حيث الطريقة الشائعة . كانت طريقة تقليدية تنصب الغزل في اول القصيدة ثم تنصرف بعد ذلك الى الموضوع المقصود . ولكم ات المقدمة اطول من الموضوع ، ولكم ات خير ما في القصيدة على قلة الخير يومذاك .

اما التقليد في المعاني ، او على الاقل الابقاء على المتداول منها دون ابداع ، فانه واضح في الكثير من القصائد او الابيات . ولكنني لن اثبت الا ثلاثة ابيات منها . يقول ابن صدقه (٣) :
فتراء مثل البدر بين نجومه يسمو على العتيق والعمّاء
ويقول شهاب الدين العليّ (٤) :

(١) الغزى - جزء ١ - ص ٢٦١ - ٢٦٢

(٢) الغزى - جزء ١ - ص ٣١٥ - ٣١٦

(٣) الغزى - جزء ١ - ص ٤٤ (٤) الغزى - جزء ١ - ص ١٢٣

فدتك ملوك الارض طرا لانها سواد وانت البدر في غرة الشهر
فانظر الى الشبه بين هذين البيتين وبيت النابغة في مدح النعمان
ابن المنذر :

فانك شمس والملوك كواكب اذا طلعت لم يبد منها كوكب
صحيح ان هنالك اختلافا طفيفا في الصورة ، ولكن المدح والآخرين
هم هم : اجرام سماوية ، شمس كانوا ام اقمارا ام نجوما !
وانظر الى هذا المدح في معرض الذم لابن صدقه (١) :
لا عيب فيه غير ان يمينه مبسوطة في الناس بالنعماء
فهل من فرق شاسع في طريقة التعبير بين هذا البيت وبيت النابغة :
ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم بهن فلول من قراع الكتاب ؟

واذا اضفنا الى التقليد في طريقة النظم والتقليد في المعاني التقليد
في استعمال الالفاظ القديمة الصحراوية كالرشا والغزال ، وما شاكل ذلك ، ايقننا
ان الشعر قد غاب في سبات عميق ، وانه فقد في سباته ما كان له في الماضي
فاذا حاول ان يجدد اعترض التجديد خمول العقول وخمول الثقافة .
ولو ان الناظمين اكتفوا بالتقليد ، لو انهم اكتفوا بان يعترفوا بعجزهم
ويقفوا حيث هم ، لكان الامر علينا وعلى الادب . . . ولكنهم قاموا الى الصناعة
يستوحونها ويستمتطونها الشفقة عليهم يسترون بالشفقة خزيهم ، فانصب الخزي عليهم
دافقا جارفا وهم لا يعلمون .
ولنبدا بالصناعة المقبولة ، الصناعة التي لم ينح منها حتى المبدعون احيانا .
يقول ابن عوجان مجننا (٢) :

احيي بقاء القدس ما هبت الصبا فتلك رياح الانس في زمن الصبا
ويقول ابن صدقه مكررا (٣) :
او ترحموا حبا كثيبا ترحموا بمراحم من ارحم الرحماء

(١) الغزى - جزء ١ - ص ٤٥

(٢) الغزى - جزء ١ - ص ١٢

(٣) الغزى - جزء ١ - ص ٤٣

ثم نرتقي في سلم الصناعة فإذا بالناظم عالم نحوى يعرض علينا
معارفه اللغوية بطريقة بادية التكلف . مثال ذلك قول ابن عبية (١) :

فغواذى المعتل منه ناقص بمثال ذاك الاجوف المقرون

وقول "احدهم" في وفاة "احدهم" مؤرخا (٢) :

توفي عبد الحق يوم غرويه بمكة بعد الصبح بدء صيامه

وزد واحدا فوق الثلاثين مردفا بتسع مئ* واجعله يوم حمامه

ولاحمد الباعوني مطلق التزم به واوين اول البيت وآخره (٣) :

رواد به الفخيد الحسان قد استووا وورد طباء الحي في ظله ثروا

روافوا به من مهجتي في الهوى صورا وولوا وعن عهد المحبين ما نورا

هذا ما كان من امر الشعر والصناعة . وقبل ان اسدل الستار على
هذه الفاجعة ، لا بأس في ان احيط بنوع المواضع التي كان يطرقها الناظمون .
مر معنا خلال ما مضى ذكر لبعض المواضع المطروقة كالغزل والمدح والرثاء ، بيد
ان هنالك مواضع اخرى كالحكم والحنين والهجاء ، حتى ان التاريخ كان يعتمد
احيانا على الشعر لتسجيل حوادثه ، فترى الشيخ نجم الدين مثلا يجمع اسما
الذين افتوا في عهد النبي في ابيات (٤) :

لقد كان يفتي في زمان نبينا مع الخلفاء الراشدين ائمة

معاد وعمار وزيد بن ثابت ابي ابن مسعود وعوف حذيفة

ومنهم ابو موسى وسلمان جبرهم كذاك ابو الدرداء وهو تتممة

وافتي بمرآه ابو بكر الرضى وصدقها فيها ، وتلك مزنة

وهنالك احيانا بعض الالتفات التي تمر هابرة بين الحين والحين في
قصيدة او بيت او جزء من بيت . وهكذا نخرج احيانا الى الروض بجواز نهـ
من الانهار فنستمع الى شي* من الانشاد ، ونخرج الى فياض تشعر فيها مع الناظم
بان روحه ما تزال تصبو الى ما يجعلها منعقة من نير التقليد والفراغ . ولا يخلو

(١) الغزى - جزء ١ - ص ١٢٥

(٢) الغزى - جزء ١ - ص ٢٢٢

(٣) الغزى - جزء ١ - ص ١٣٩ - ١٤٠ (٤) الغزى - جزء ١ - ص ١١٧

الشعر كذلك من بعض الهزليات كقول حسن الحصكفي (١) :

إذا ما صاح قاسم في المنار بصوت منكسر شبه الحمار

فكم سبابسة في كل اذن وك سبابة في كل دار

ولكن ما يسترعي الانتباه هو انتشار الالغاز والاحاجي في الشعر .

وهناك ايضا شهرة كانت منتشرة هي التخمين والتشطير . . . الى ما هنالك من مواضع فرعية ، لا تفي كلها بغرض الشعر .

هذه لمحة من حياة الادب والشعر في عصر الانحطاط . انها لمحة

ترينا ما في تلك العصر من جهل واطلام ، وما لحق الادب والشعر منهما من غبن .

وقد بقي من الجهل والاطلام اثر حتى في القرن التاسع عشر ، القرن الذي يعتبر

مبدئيا كنقطة انطلاق الانبعاث . وفي هذا يقول نجيب الحداد (٢) : " لم يأت

على الشرق عصر خمل فيه الادب وماتت هم الادياء وفترت نفوس الكتاب مثل هذا

العصر الذي صرنا اليه ونحن نتعلل فيه بالتقدم والارتقاء علالة الظمان بالسراب . .

لا غرو ان الادب قد تهدم بنيانه . ولغة البلاد قد ضاع مقدارها . ترى الادييب منا

يبذل جهده ويحيي ليله وينفق من قلبه ويجني على نفسه ليؤلف كتابا مفيدا او يضع

رواية نافعة . . . ويطبع ذلك الكتاب بمرق العيش ومشقة الجهد . . . فلا مال وصل

اليه ولا كتاب طلب منه ولا شهرة ذاعت عنه " .

(١) الغزى - جزء ١ - ص ١٨٠

(٢) نجيب الحداد - منتخبات - ص ٥١ - ٥٤

القسم الاول

دعائم النهضة

— — — — —

بذور النهضة

يبحث الادباء غالبا عن النهضة في اواسط القرن التاسع عشر، وغذروهم في هذا ان النهضة لم تتخذ شكلا محسوسا قبل تلك الحقبة . هذا ، لعمري، صواب . ان النهضة لم تتبلور معالمها الا في اواسط القرن التاسع عشر . ولكن هل خلقت النهضة دفعة واحدة بين ليلة وضحاها، ام انها مرت في اطوار تعمود اصولها الى ما قبل القرن التاسع عشر؟ هل وجدت النهضة دون ان يكون لوجودها علّة ، ام انها خضعت لتأثيرات شتى دفعتها خبيبا في معارج النمو؟ قد يبدو عجيبا ان اقول ان علينا، اذا ما اردنا بحث اصول النهضة، ان نعود الى عصر الانحطاط نفسه ، العصر الذي فيه بذرت بذور النهضة الاولى !

صحيح ان عصر الانحطاط لم يشهد حركات ثقافية واسعة المدى تجعل منه عصرا يذكر بين عصور النور . الا ان ثمة حقيقة لا تشوبها شائبة ، وهي ان دعائم النهضة قد رُكّرت في لبنان منذ تلك الايام : فالارماليات الدينية بدأت تترى على لبنان بطريقة منظمة في عهد الامير فخر الدين الثاني ، واول مطبعة ادخلت الى لبنان في سنة ١٦١٠ ، كما ان المدارس كانت ناشطة نوعا في ايام المماليك على ضيق آفاق برامجها، ومع انها اقلت بعض الشيء في العهد العثماني ، الا ان البعثات مكّنت اللبنانيين من الاحتكاك بمدارس الغرب ، ونوع خاص مدرسة روما المارونية (١) ، فعاد الطلاب المبعوثون اثر هذا الاحتكاك الى لبنان ينشئون المدارس في كل مكان . ولكن الارماليات والمطابع والمدارس لك تكن آنذاك سوى برق خلب يومض في الليل المدلهم قابضا لم يولّي ، ولكن هذا البرق ما لبث ان استكمل شروطه فراح فيما بعد يلمع ويتبعه الغيث المحيي .

(١) يعود الفضل في انشاء هذه المدرسة الى البابا غريغوريوس الثالث عشر . فقد شعر الموارنة في لبنان بانهم بحاجة الى اتصال دائم بروما ، وهذا الاتصال لا يمكن ان يتم لجهل الكليروس الماروني في تلك الايام اللغة اللاتينية ، لغّة التفاهم . وبعد مفاوضات بين روما ولبنان قر الرأي على ارسال تلاميذ لبنانيين الى

وقد منّت الظروف على لبنان بعدة امراء اشرفوا على ولادة النهضة ثم تعهدوها بحنان . وعلى رأس هؤلاء الامير فخر الدين الثاني .
عندما ذكرت خطبة الامير فخر الدين الاول قلت انها ، من حيث المعنى ، ضعيفة هزيلة ، ولكنها من حيث المبنى تمتاز على غيرها من القطع النثرية بسلامتها من العلل اللغوية . ولكن البحث الذي تلاها جعلنا على يقين من ان سلامة الخطبة لا يصح ان تتخذ مثالا لنثر العصر . وعندما تسلم الامير فخر الدين الثاني زمام الحكم ، شاهد خلل الديجور جهلا وغباوة وفراغا ، وشاهد كذلك بصيصا ينبعث من الغرب ، فيتم الامير بنظره شطر اوربا يطلب المعرفة . لقد ادرك ان رقي لبنان لا يقوم الا على سواعد المتعلمين ، فشجع المراجع الدينية المارونية على ارسال البعثات الى روما كما جرى في عهد جده ووالده (١) واستقبل على الرحب والسعة بعثات اجنبية ومهد لها سبل الاستقرار والازدهار (٢) وكأني بهذا الامير الذي قيل عنه " انه يحمل في نفسه طاقة العظما التي تحوّل الاحلام الى قيم حية " (٣) ، كأني به اراد ان ينصب نفسه للمتعلمين وغير المتعلمين مثالا ، فاستقدم مصورا فرنسيا رسم له الوف الاشكال لالوف الحشائش والنباتات (٤) ، وراح يدرس الكيمياء وعلم الفلك ، " فأكب على الكرات ، ووقف ، وهو يطاول " (٥) ، والليل ساج يجلبب القصر بسكسونه ، يسرح الطرف في السما طويلا ، وهو يحاول ان يخترقها الى ما وراء النجوم " (٥) ويقال ان الامير قد علق على بعض الكتب الفلسفية بملاحظات قيمة . (٦)

روما كي يتلقوا فيها العلوم ، وينوع خاص اللغة اللاتينية . وبالفعل ارسل البابوات مثليه يختارون من اللبنانيين اولادا او كهنة ويعودون بهم الى روما . وما لبثت البابا ان اسكن اللبنانيين في مكان خاص وقف له الاوقاف الكافية . وبقيت الحال كذلك حتى ايام فرينغوريوس الذي حوّل البيت اللبناني في روما ، بعد ما اضاف اليه العقارات ، الى مدرسة سماها " المدرسة المارونية " ، وذلك سنة ١٥٨٤ .

(١) ادمون بلبيل - ص ٣١٤

(٢) حنا فاخوري - تاريخ الادب العربي - ص ٨٨٨ - ٨٨٩

(٣) Jeanne Arcade - L'enseignement - P. 162

(٤) ادمون بلبيل - ص ٣١٤

(٥) Jeanne Arcade - P. 171 (٦) الاستاذ يوسف ابوجوده - من محاضرة

لقاها في النادي الثقافي الايطالي مستندا الى مصادر ايطالية .

وهناك امراء وطنيون عاصروا فخر الدين وعرفوا بحديثهم على الادب . واشهر اولئك الامير يوسف سيفاً (١) الذي كان يغدق على الشعراء العطايا من اموال طالما سرقها من اتباعه او من التجار الاجانب الذين جازفوا بنزولهم في مرفأ طرابلس!

هذه لمحة عن اهتمام المعنيين بالعلوم . وبعد زوال العهد المعني يظل العهد الشهابي . يصف لنا جون كارن الانسان في ذلك العصر يقول : " والشرقي على وجه الجملة رفيق خلوة شديد الاضجار . فاية مواضع يمكن ان تكون مشتركة بينه وبين مضيفه ؟ هو لا يستطيع ان يتحدث عن الكتب والفنون والعلوم ، وهو يأبى الحديث عن ايمانه او حبه . على انه يتحدث عن السياسة ، لكن يجهل اوروبا جهلاً عظيماً ، يجهل مواقع بلدانها ومناخها وطبائع اهلها " (٢) هذه النظرة الشاملة تنطبق على المجموع في العصر الشهابي ، والعصور السابقة . بيد ان الامراء الشهابيين ماشوا الحركة الثقافية التي شجعها فخر الدين ، وراح الكثيرون منهم يدلون بدلائهم فيها . فسمح الامير حيدر بانشاء مطبعة في الشوير ، وهي المطبعة الثانية التي انشئت في لبنان بعد مطبعة دير قزحيا ، ودرس الامير ملحم الفقه وآلف الكتب في الشريعة الاسلامي ، ووضع الامير حيدر احمد تاريخه " الغرر الحسان " (٣) ، الا ان الامير بشيرا الثاني كان على رأس الامراء الشهابيين اندفاعاً (على ما عرف به من بطشش وعلى ما اعترى حكمه من الهزات السياسية والعسكرية) . يقول الخوري صغير : " ولم يفت الامير ان العلم عامل فعال لترقية الامة وتحسين خالها ورفاهيتها واسعادها ، اللهم العلم الصحيح الذي يرافقه تهذيب الاخلاق . ففقر اليه رجال العلم والادب والشعر ، واکرمهم على منزلتهم ، وهمد الى بعضهم اقدارة الديوان والقيام بما هنالك من انشاء رسائل وكتابة وتأليف وتدوين حسابات ، والى البعض الاخر تثقيف اولاده .. " . وكم مرة شوهد الامير وحوله العلماء والشعراء وتلامذتهم يشجعهم ويكافئهم ، ومنهم الشيخ ناصيف اليازجي ، والكونت رشيد الدحداح " (٤) . ومن شعراء الامير كذلك نقولا الترك وبطرس كرامه . " وكان الشعراء ، وهم عنوان ثقافة دولته ، ينظمون له

(١) Jeanne Arcache - P. 56

(٢) جون كارن - رحلة في لبنان - ص ١١٩

(٣) ادمون بلييل - ص ٣٢٦ - ٣٢٨

(٤) الخوري بطرس صغير - ص ٩٦ - ٩٧

القوائد متغنين بانتصاراته ويعيشون من هباته وعطاياه... (١) وقد فتح الامير المدارس، واوفد البعثات الى الخارج ، كالبعثة التي اوفدها الى القصر العيني في مصر لدراسة الطب .

هذا ، وقد عرف القرن التاسع عشر شخصية كان لها في النهضة اثرها : المطران جرومانوس فرحات . عرف فرحات من العربية ما شاءت نفسه التواقة الى العلم ، ثم اخذ ينحو في قواعد اللغة نحو خاصا سهل المستعصي منها وسار بالباقي في طريق لم يآلفه العلماء سابقا .

ويروى عن فرحات انه شغل في حلب شبه مجمع ضم خيرة علماء المسيحيين ، وراح يشجع هؤلاء على الكتابة ، موجه افعالهم ، مصححا اخطائهم ، مقوما اساليبهم (٢)

ننظر الى النهر الجياش فنعجب بقوة سياحه وازياده ، ونؤخذ بالتفكير به عن امور تافهة في الظاهر هامة في الواقع : تلك السواني والمجارى الدقيقة الضعيفة التي لولاها لما تجمعت في النهر المياه ... وساعد في الفصول التالية الى اظهار خطورة السواني التي اصبحت على الايام انهارا ، اضي المدارس والمطابع والصحف والمطبخ والمكتبات والجمعيات ، تضاف اليها اعمال المرسلين الاجانب والمستشرقين ، واظهر تطور هذه الدعائم التي عليها قامت النهضة .

(١) هنري غيز - جز ٢ - ص ٢٢٩

(٢) P. Pierre Raphael - Rôle du Collège Maronite Romain - P. 164

المــــــــــــــــدارس

المدارس الاولى ان الاحتكاك الذي يتم بين العقول يؤلد الشراة التي منها تنطلق الاشعاعات العظيمة التي تسجل الايام اخبارها بــــــــــــين الحين والحين . ولعل الميدان الذي يفسح للتفاعل المجال الاوسع هو مــــــــــــيدان المدرسة ، ان فيها يحتك عقل التلميذ بعقل استاذة وعقول زملائه ، فيطرح الردي من الافكار ويعتصم بالقيم البناء .

لدى تفهقر المدارس التي عرفها لبنان في عهد الممالك والعهدود السابقة ، التجأ العلم الى بعض الاديرة والمساجد ، او الى بعض القصور التي شغف اربابها بالعلم . " فكانوا غالبا ما يستقدمون المعلمين الى دورهم الخاصة ، يدرسون ابناءهم . . . وقد يوسع رب الدار حلقة التدريس ، فيسمح لابناء خاصته بحضور الدروس مع ابناءه ، فيصبح له مدرسة صغيرة . . . " (١) ويصف الدكتور شاكر الخوري هذا النوع من الحياة الدراسية فيقول : " فلاجل هذه المدرسة (٢) احضرني والدي من بكاسين وكنت اعرف القراءة والكتابة العربية والسريانية ، وكان من هذه المدرسة اولاد سعيد بك (٣) وهما نجيب بك الذي كان من عمري واخوه نسيب بك الذي كان اصغر مني سنا . وكان معلمنا حضرة العالم العلامة والشاعر العظيم الشيخ ابراهيم الاحدب الطرابلسي الذي صار فيما بعد كاتب المحكمة الشرعية في بيروت وتوفي في هذه الوظيفة .

" وكانت هذه المدرسة في حارة المشايخ بيت نجم جنبلاط . وكان الشيخ المذكور يعلمنا ، وكنا سبعة ما عدا البيكين ، وهم الشيخ صالح والشيخ حسن اولاد الشيخ قاسم حصن الدين مستشار البك ، والشيخ قاسم ابن الشيخ حسين شمس من غريفه صراف البك ، ثم حسن ابن العاس من عبيد البك ، واسعد ابوصوان الذي كان والده ووالدته من خدمة البك ، وهى حسن طليح ابن شيخ العقل من الجديدة . وكنا نجلس تحن الآخرون في الغرفة ، فكل منا يسمع درسه بعد انتهاء درس البكوات ، وكان يدرسنا في ديوان ابن الفارض غيبا بحيث كنت اقول القصيدة اليائية غيبا

الى آخرها بدون توقيف، وكذلك الغية ابن مالك، وقصيدة لامية العرب التي لم ازل حافظها للان بعد طول هذه المدة " (١)

المدارس الاجنبية وقد قيض الله للبنان مدرسة لعبت دورا هاما في حياته الثقافية،
_____ الا وهي مدرسة روما المارونية (٢٠) فمنذ القرن السادس عشر
وقد على المدرسة جماعات من اللبنانيين الذين كانت ترسلهم اليها المرجع الدينية
المارونية . وقد نبغ من هؤلاء التلاميذ عدد لا يستهان به ، وهمل بعضهم فسي
مدارس اوروا حيث شغلوا مناصب سامية . الا ان فضل اولئك لم يكن في نيلهم
الشهادات العالية ، وفي احتلالهم المناصب السامية ، بل في انشائهم المدارس
في لبنان . وقد خضع تلاميذ مدرسة روما في علمهم لتأثيرين : تأثير داخلي حثهم
على تثقيف ابناؤهم قومهم ، وتأثير ديني كان يحتم على الكاهن ان يكون معلما في الوقت
نفسه . اصف الى ذلك ، الآخر الذي اصدده المجمع المقدس المنعقد في سنة
١٧٣٦ ، الى المطارنة والكهنة ورؤساء الاديرة وطلاب مدرسة روما ، والذي كان لمة
اثر فعال في صفوف الموارنة اذ انهم سارعوا الى انشاء المدارس . يقول امـر
المجمع المقدس : (٣) " اننا نأمر بان تفتح في المدن والقرى والاديرة مدارس يتلقى
فيها الصبيان العلوم . . . اننا نحث المطارنة والكهنة ورؤساء الاديرة على التعاون
في سبيل تعيين المعلمين حيث تكون ثمة حاجة اليهم ، وعلى تسجيل اسماء الصبيان
القادرين على تحصيل العلم ، وحمل اهلهم على ان يتوجهوا بهم الى المدارس . . .
اننا نأمر المعلمين بان يتبعوا الخطة التالية : ان يعلموا اولا القراءة والكتابة فسي
العربية والسريانية ، ثم المزامير ، وخدمة القديس ، والعهد الجديد . . . على المعلمين
الذين يختارون من مدرسة روما ان يعلموا الاولاد في المدارس ، ويثقفوا الاهل
في القرى المجاورة بكلام الرب . . . "

وهكذا خضع رجال الدين لقرار مجملهم ، كما خضعوا كذلك قبلا لدوافع
دينية وشخصية مختلفة ، " فاسسوا مدرسة القرية المجانية قرب كل دير او في ظل

(١) الدكتور شاكرا الخوري - مجمع المرات - ص ٢٠ - ٢١

(٢) راجع ص ٢٨ من هذه الرسالة (الهامش) و : Raphael - P.P. 53 - 65

(٣) Raphael - P. 174

كل كنيسة . هذه هي مدرسة "تحت السندديانة" كما يدعوها البعض . لقد بذلوا طاقتهم في نشر اللغة العربية بين المسيحيين ، وفي المحافظة على اللغة السريانية بين تلاميذهم . (١) وفي حركة الكهنة يقول زيدان : " اما المدارس النصرانية فاقدمها في لبنان للطائفة المارونية غير ما كان منها في حلب للرهبنات المختلفة . وللموارنة فضل السبق بانشاء المدارس في لبنان منذ عهد يعيد في اهدن وصوفر وبقرقاشة في شمالي لبنان . وكان اساتذة هذه المدارس بوجه الاجمال من الكهنة الا نادرة ، ناهيك بالمدارس الصغرى التي كانوا ينشئونها في الدير ويسمونها "انطوش" ، مثل انطوش جبيل انشئ سنة ١٧٦٤ ، وانطوش زحلة عام ١٧٦٩ ، وانطوش دير القمر ١٧٨٢ وغيرها . (٢)

وكما كان للمسيحيين مدارسهم ، كان هنالك مدارس للمسلمين نهضت مع النهضة العامة في البلاد . وكان المصريون اسرعهم الى اطراح الغفلة لوفرة دواعي النهضة عندهم ، وخصوصا في زمن اسماعيل . ونشط بعدهم مسلمو بيروت ودمشق وحلب فانشأوا المدارس ، وصدفوا عن المدارس الاميرية وقد رأوا انها لا تنشى الا رجالا مستتركين في بيانهم ، رجال سيف وادارة لا رجال علم وثقافة . (٣)

والى جانب هؤلاء نجد رجال الارساليات الدينية الكاثوليكية والبروتستانتية والارثوذكسية الذين سارعوا الى الشرق طمعا في كسب اكبر عدد ممكن من الاشخاص لاهداف لم تكن دائما دينية محضة . وكانوا مختلفي اللغات والثقافات ، فانشأوا المدارس ومكثوا ابناؤا لبنان من الاطلاع على ثقافات الغرب المختلفة ، فقابلوا بين ما هم عليه وما للغرب من رقي ، وعرفوا الداء والدواء ، وتجنّدوا لخدمة البلاد ، وعملوا بكل نشاط على ترقية حالها . (٤) ومن اشهر المدارس التي انشأها المرسلون الكاثوليك مدرسة عينطورا التي بناها اليسوعيون بمعاونة الموارنة سنة ١٧٢٤ (٥) ، وهي تعتبر

(١) Raphael - P. ١٦٦

(٢) جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية - جزء ٤ - ص ٣٨

(٣) بطرس البستاني - ادباء العرب - جزء ٣ - ص ١٥١

(٤) حنا الفاخوري - ص ٨٩٠

(٥) Raphael - P. ١٦٥ et Hitti - P. ٦٧٤

بحق اول مدرسة عصرية . بيد ان الحملة التي استهدف لها اليسوعيون (١) والتي ادت الى حل جمعيتهم حولت ادارة المدرسة الى اللعازارين . والى جانب مدرسة عينطورا انشأ اليسوعيون جامعة القديس يوسف في بيروت سنة ١٨٧٤ ، وكانوا قد انشأوا قبلا مدرسة في غزيركسروان ولكنهم الغوها ليينوا جامعتهم (٢) واهتم المرسلون الكاثوليك بالاثاث فانشأوا لهم مدرسة راهبات مار يوسف (١٨٤٥) ، ومدرسة راهبات المحبة (١٨٧٤) وغيرها . . .

اما البروتستانت فقد انشأوا عددا من المدارس في بيروت وغيرها . ومن اول هذه المدارس مدرسة عبيه التي اسستها الارشالية الاميركية سنة ١٨٤٧ (٣) -

(١) قويت جمعية اليسوعيين في اوربوا كثيرا ، حتى هبت الاوساط المتحررة ، كالجامعة الفرنسية مثلا ، تناصبها العداة لاعتبارها عنصرا يسم الافكار . وقد طرد اليسوعيون من البرتغال سنة ١٧٥٩ ، ومن فرنسا سنة ١٧٦٢ ، وسنة ١٨٨٠ وسنة ١٩٠١ . وما كان من البابا كليمان الرابع عشر الا ان حل الجمعية سنة ١٧٧٣ ، وهذا ما اشترت اليه اعلاه . ولكن الجمعية اعيدت الى الحياة في ايام البابا بيوس السابع سنة ١٨١٤ .

(٢) انيس نصولي - اسباب النهضة العربية - ص ٤٣

(٣) يصف روينصون هذه المدرسة قائلا : " جرى الازمتحان في اليوم التالي ، وقد ضمت المدرسة في ذلك الوقت تسعة عشر صبيا بين الثالثة عشرة والعشرين من سنهم . كانوا ينامون ويأكلون في ذلك الوقت بنايات الارشالية . كانوا من طوائف مختلفة : روم ارثوذكس ، روم كاثوليك ، بروتستانت ، دروز ، ولم يكن بينهم موارد في ذلك الحين . وفي المدرسة ، عدا الرئيس المستر كلهون ، معلمان وطنيان ، مخايل واسعد ، وبعض الاحيان يكلف اثنان من التلاميذ القدما لتعليم الصفوف المبتدئة . كانت امائر النباهة والاجتهاد تظهر على بعض التلامذة . اما الامتحان فكان في غاية الدقة ، واشتمل على الدروس الابتدائية والتكميلية في اللغة العربية مع تمارين كتابية ، والحساب والجبر والجغرافيا ، ومبادئ علم الفلك ، وخصوصا دروس في تاريخ الكتاب المقدس ومبادئه . وقد دلت الاجوبة على سرعة خاطر ونباهة كما يجرى في المدارس العليا في بلادى واروبيا . اما اللغة الانكليزية فلا تدرس الا لبعض التلامذة المتقدمين في العلوم ، وهذا امتياز خاص منح لهم . فقد روى ان من الاوفق تلقينهم المبادئ الدينية وغيرها من العلوم في لغتهم الوطنية "

وهناك مدارس اخرى كالمدرسة الانكليزية التي اسستها مسز طومسون سنة ١٨٦٠ ،
والمدرسة الانجيلية للبنات سنة ١٨٦١ (١٠)

وعلى رأس المدارس البروتستانتية الجامعة الاميركية في بيروت . وقد
دعيت في اول عهدا المدرسة السورية الانجيلية . انشئت الجامعة سنة ١٨٦٦ ،
وكان اول من فكر بانشائها وسعى لذلك الدكتور دانيال بلس الذي زار لبنان وشعر
بحاجته الى العلم فما لبث ان عاد الى الولايات المتحدة يخطب ويعقد الاجتماعات
حتى تسنى له ان ينشئ المدرسة التي كان عدد تلاميذها نحو ٤٦ عند افتتاحها ،
وهم اليوم زهاء ثلاثة آلاف (٢٠)

والى جانب هذه الثقافات اللاتينية والانكليزية والاميركية ، يشهد
القرن التاسع عشر بزوغ الثقافة الروسية في لبنان . وذلك في اولى المدارس المسكوبية
المنشأة سنة ١٨٨٢ في بيروت تدرس العربية والروسية ، والفرنسية ، ثم بامتدادها
الى الشويفات سنة ١٨٩٤ ، ودوما سنة ١٨٩٥ ، واميون سنة ١٨٩٧ ، وكوسبا وزحله
ومنياره وبسكتا وحاصبيا وراشيا سنة ١٩٠٠ (٣)
هذه المدارس الاجنبية حدت اللبنانيين الى انشاء المدارس الخاصة
او المدارس الطائفية الوطنية .

المدارس الوطنية انشأ الارشمندريت اثناسيوس قصير الارثوذكسي مدرسة دينية في
البلند سنة ١٨٨٣ (٤) ، وانشأت الطائفة الارثوذكسية مدرسة
الثلاثة اقمار في بيروت سنة ١٨٦٥ ، ومدرسة زهرة الاحسان للبنات سنة ١٨٨٠ (٥)
وانشأ الارمن الكاثوليك مدرسة بزمار سنة ١٧٩٧ ، وكانوا يدرسون فيها الارمني
والفرنساوية والايطالية واللاتينية (٦) وانشأ الروم الكاثوليك مدرسة عين تراز سنة ١٨١١ ،

(١) انيس نصولي - ص ٥

(٢) راجع زيدان - ص ٤١

(٣) فؤاد افرايم البستاني - ص ١٢٩

(٤) Rephael . P. ١٦٥

(٥) انيس نصولي - ص ٥٣ - ٥٤ . اسست المدرسة املي سرسق ، ومن برامجها : اللغات
العربية والفرنساوية والانكليزية والروسية واليونانية ، والبيانو ، واشغال اليد والتعليم المسيحي .

(٦) فؤاد البستاني - ص ١٧٢

انشأها البطريرك اغابوريوس مطر ، وكانوا يدرسون فيها العربية والفرنسية واليونانية واللاتينية ، وفي سنة ١٨٣٠ انشأوا مدرسة المخلص تدرس العربية والفرنسية واليونانية (١) وانشأوا كذلك المدرسة البطريركية سنة ١٨٦٥ . وانشأ المسلمون المقاصد سنة ١٨٨٠ ، والموارنة الحكمة سنة ١٨٧٦ ، واليهود المدرسة الوطنية الاسرائيلية سنة ١٨٧٤

ومن اشهر المدارس الوطنية آنذاك مدرسة عين ورقه " ام المدارس الوطنية في هذه البلدة " . يقول زيدان انها " كانت ديرا على اسم مار انطونيوس ، فجعلها البطريرك يوسف اسطفان عام ١٧٨٩ مدرسة على مثال مدرسة روميه " (٢) اما ببرامج هذه المدرسة فكانت : العربية ، السريانية ، اللاتينية ، الايطالية ، وسائر العلوم المطلوبة في المدارس الاوروبية الكبرى (٣) .

ومن المدارس الخاصة اشتهرت مدرسة المعلم بطرس البستاني التي انشئت سنة ١٨٦٣ . وهي مدرسة لا طائفية " تقبل فيها جميع ابناء الوطن دون تمييز ويسن لها ، ويسن لها منهجا في التدريس خليقا بالكليات الكبرى ، فيدرس العربية والفرنسية والانكليزية والترجمة والتاريخ والجغرافيا (٤) . وهناك مدرسة عبية التي انشأها الامير ملحم ارسلان بمساعدة سعيد تلحوق لطائفة الدروز ، ويرجع تأسيسها الى سنة ١٨٦٢ ، وكانت تقبل الطلبة مجانا لاعتمادها على الاوقاف التي الحقها بها الامير المذكور (٥) .

يطول بنا التعداد اذا اردنا ان نذكر المدارس جميعها التي انشئت

(١) فؤاد افرايم البستاني - ص ١٧٢

(٢) جرجي زيدان - ص ٣٨٠ يقول الخوري بطرس صفيير ، ص ٩٩ ، ان الفضل في تأسيس المدرسة يعود الى الشيخ غندور السعد مدير الامير يوسف شهاب وقنصل فلنسا . ويذكر كذلك ان اياما عصيبة مرت على المدرسة ، " ولولا الامير بشير وعضده لكانت توقفت عن اداء رسالتها الثقافية " .

(٣) فؤاد افرايم البستاني - ص ١٧٠ - ١٧١

(٤) فؤاد افرايم البستاني - ص ١٧٦ . يضيف نصولي في الى برامجها اليونانية والبيانو وفن التصوير (نصولي - ص ٥٠ - ٥١)

(٥) شكيب ارسلان - النهضة العربية في العصر الحاضر - ص ١٤

في لبنان بين القرن السابع عشر والقرن التاسع عشر . لذلك اكتفي بما ذكرت منها ،
فيه الكفاية ، وفي المراجع التي اشترت اليها في سياق البحث مصدر لراغبي
الاستزادة . . . وانتقل الان الى استعراض طريقة المدارس والمناهج المتبعة فيها .

المناهج المدرسية ان ما مر معنا يجب ألا يحملنا على الاعتقاد ان العلم قد ثبتت
دعائمه آنذاك ، وان المدارس كانت صورة حية تعكسها لنا مدارس
اليوم . (١) فهناك مدارس جلت في مضمار الثقافة واخرجت الى حلبة الادب ابطالا ،
والى جانبها مدارس تبعت حتى عهد متأخر اسلوب "تحت السنديانة" . يقول فيز (٢)
" ان المدارس العامة قليلة جدا ، ولا يعلم فيها الا القراءة والكتابة بدون اتباع
قاعدة . والاولاد الذين يراد ان يتلقوا دروسهم يتعلمون قراءة القرآن . ولما كان هذا
التعليم يعتب الاطفال الذين قلما يقدرون جمال الاسلوب ، فانهم يعدونهم باجمل
الاماني التي تحقق ، بدون مطل او خلف ، يوم يصرح المعلم بان تلميذه ختم الكتاب
الكريم . وعن مدارس المسيحيين يقول : " يقوم بنفقاتها دخل عقار ما اشتراه الاهلون ،
او وقفه احد الاتقياء لينعم به المعلم الذي يكون دائما كاهن القرية : انهم يعلمون
فيها اللغتين : العربية والسريانية ، ولا يكاد يحسن الصبيان القراءة حتى يحولهم
ذوهم الى العمل ، فلا يلبثون ان ينسوا كل شي . وهذه المدارس تكون خلال سبعة
او ثمانية اشهر من السنة في الهواء الطلق ، اما بقية ايام السنة ففي غرفة صغيرة
تابعة للكنيسة . (٣)

(١) كان التعليم احيانا ملهاة او "علا" يقصد به الكسب . يقول الدكتور شاكرا الخوري
في "مجمع المسرات" ، ص ١٥٧ : " فخطر ببالي ان اعمل مدرسة واجمع فيها اولاد القرية
لكي اعلمهم اللغة الافرنسية . وكان اخي المرحوم خليل يومئذ موجودا في البيت وكان
ماهر في اللغة العربية ، فجعلته ان يعلم معي الصفوف العربية ، فابتدأت اولا بجمع
اولاد العائلة ثم بعض اولاد من اهالي القرية ، وجعلنا الراتب من كل واحد ٣٠ ثلاثين
غرشا شهريا . . . وقد جعلت الاوضة (كذا) الشمالية من بيتنا مدرسة حيث لا لزوم
لنا فيها ، وهذا المحل كان كافيا لصف ابتدائي . . . "

(٢) هنري فيز - جز ١ - ص ٣٧

(٣) هنري فيز - جز ١ - ص ٦٥ - ٦٦

كانت المواد المدرّسة اذاً^(١) منحصرة في العربية والسريانية والقراءة والكتابة وبعض القواعد وعلوم الدين . الا ما كان منها في المدارس الكبيرة . اما اللغة العربية فلم يعن بها كل العناية ، خصوصا في مدارس المرسلين . وفي هذا الموضوع يقول زيدان : " مر على المدارس الكبرى في سوريا ولبنان ومصر عشرات من السنين والتعليم فيها باللغة العربية . فزهت هذه اللغة وازدهرت ، وهو عصرها الذهبي في هذه النهضة . ولذلك نشكو من الكلية الاميركية والكلية اليسوعية في بيروت ، ومن المدارس الاميرية المصرية لانها جعلت التعليم فيها باللغات الاجنبية رحمة اصحابها هـذا التغيير قلة الكتب التعليمية في اللغة العربية وكثرتها واتقانها في اللغات الاجنبية . وهو اعتراض وجيه بالنظر الى التعليم بحد ذاته . لكن التعليم يراد به ايضا شي آخر لا يقل اهمية عن ذلك - نعني ترقية شُؤون الامة وجمع كلمتها واحيا آمالها . وهذا لا يكون الا بترقية لسانها واحيا آدابها بتأليف الكتب العلمية والادبية وانشاء الصحف والمجلات فيه ، ولا يتيسر ذلك الا اذا كان هو قاعدة التدريس في المدارس العالية " (١) وقد قامت مشادة حول الموضوع بين الاساتذة والادارة في الجامعة الاميركية ، " فأثر فاندريك ترك الكلية على قبول التعليم فيها بالانكليزية ، فكان رافع لواء الثورة التي قدضت بانفصاله عنها مع بعض الاساتذة وبعض الطلاب " (٢) وما تزال قضية العربية في المدارس قضية رئيسية حساسة ، ولكن البعض من اصحاب المدارس ، ممن ينعم بخيرات لبنان ولا يعيش الا من اموال ابنا لبنان ، يأبى ، والحقد يحقن منخره ، الا ان يحتقر لغتنا في ديارنا ، والمسؤولون عن المحقر المغتصب لاهون ، حتى بتنا ننظر بعجب الى من يتقن العربية ، لان اللغات الاجنبية قد حلت ، عن سابق قصد وتصميم ، محل لغتنا الحبيبة ، في المدارس ، والاندية ، والمجتمعات ، وحيثما اجتمع اثنان من مواطنينا المتخنثين (٣٠٠٠)

وفي اواخر القرن التاسع عشر شعر بعض الادباء ، خصوصا الذين احتكوا بالغرب على نطاق واسع ، وخبروا حياته ، بالنقص اللاحق بالحياة التعليمية عندنا ، فكتب اديب اسحاق يقول : " لا تكون السجون فارغة الا اذا امتلأت المدارس ، ولا تمتلئ

(١) جرجي زيدان - ص ٤٣

(٢) نقولا فياض - ذكريات ادبية - ص ٦٢

(٣) راجع في هذه الرملة الفصل المطول المتعلق بالقضية : بين الشرق والغرب

المدارس الا اذا حصل التعليم الزاميا" (١) ثم يتابع موضحا : " ولكن ليس في الوجود الطبيعي والمدني من واجب الا بحق يماثله . وليس فيه من حق الا بواجب يقابله ، فاننا وجب على الوالد للهيئة المدنية تعليم ولده ، فقد حق له امكان ذلك التعليم على قدر الكفا . واننا حق للهيئة الحاكمة اجباره عليه ، فقد لزمها توفير اسبابه وتمهيد سبيله على قدر الامكان . (٢٠)

ولكن هذه الدعوة ذهبت "صرخة في واد" فلا الحكومة العثمانية كانت على استعداد للقيام باى عمل من شأنه التنوير والمساعدة ، ولا الحكومة المنتدبة حاولت ان تفهم مطالب الشعب الكادح المسكين المشدود ابدا الى اسفل بسلاسل الاثارة والاقطاعية والفوارق الطبقة . اما العهد الاستقلالي فانه يشهد جماعات من المسؤولين "استقلوا" عن الشعب استقلالا تاما ، مكتفين بالتنويه بان لبنان بلد الاشعاع ، دون ان يلتفتوا الى ان ينال النصيب اللازم من ميزانية الدولة ، فكأنه بذكر الاشعاع فحسب يحيا وبه يشع !

المدارس وتدرّس العربية في المهجر ولم يقتصر نشاط المدارس في القرن التاسع عشر على لبنان المقيم . ففي المهجر قامت العربية تطالب بنيتها بحق الرعاية فلبوا الدعوة ، وملّ النفوس منهم رغبة ملحة في رفع لوائها . يقول توفيق ضعون في هذا الاتجاه : " لقد بذل مواطنونا في جميع انحاء هذه البلاد المترامية الاطراف (البرازيل) ، وفي كل مكان آخر نزولهم ، كل ما في وسعهم لكي يحملوا بعض المتعلمين الذين ساقتهم اليهم الاقدار على اعطاء بنيتهم دروسا خاصة ، او انشاء مدارس نهائية او ليلية ، وبغيتهم في الدرجة الاولى تلقين اولادهم لغة آبائهم واجدادهم تقوية للصلات الروحية والعاطفية التي تربطهم بالذات اكبادهم ما داموا مقيمين في مهاجرهم ، وانما هم عادوا بهم يوما الى الوطن الاصلي لم يشعر هؤلاء بانهم غرباء فيه ، وهكذا يكسبونهم لا كأبناء فقط بل كمواطنين ايضا " (٣)

وسعى المهاجرون في البرازيل الى الذود عن اللغة بطريقتين : الاولى

(١) اديب اسحاق - الدرر - ص ٢٤٤

(٢) اديب اسحاق - الدرر - ص ٢٥٢

(٣) توفيق ضعون - ذكرى الهجرة - ص ١٧٢

ترمي الى ايجاد مدارس عربية ، والثانية تهدف الى حمل البرازيليين والاجانب على ادخال برامج العربية الى مدارسهم . ولقد وثقوا في هاتين الطريقتين ، ان تمكنوا من ادخال صف عربي في المدرسة الانكليزية البرازيلية تولى التعليم فيه توفسيق ضعون ، (١) وتكثفوا من تخصيص كرسي للعربية في سان باولو (٢) . اما المدارس الوطنية فاولاها المدرسة التي انشأها المعلم طنوس حنا الياس سنة ١٩٠٠ وسماها المدرسة اللبنانية (٣) وقد تلا هذه المدرسة عدد من المدارس نذكر منها مدرسة ساره شاهين سنة ١٩١٤ ، (٤) والكلية الشرقية سنة ١٩٣٤ (٥) ، والمدرسة الاطلسية سنة ١٩١٩ (٤) ، والمدرسة الوطنية للعلوم والاداب سنة ١٩١٩ (٤) ، ومدرسة القديس ميخائيل سنة ١٩٢٢ (٤) ، ورواق ابي العلاء المعري الذي

(١) توفيق ضعون - ص ١٢٩ - ١٨٠

(٢) توفيق ضعون - ص ١٩٩ - ٢٠٣ : " كانت نواة هذه المنبرية الفكرة التي بثها المؤرخ فيليب حتي في اذهان متخرجي الجامعة الاميركية في اثناء اقامته بيننا عام ١٩٢٥ . ولكنها لم تجد تربة صالحة الا في ذهن واحد منهم هو الاخ جميل صفدي . فقد اخترنها وراح يتعهداها باسباب التنمية بجهاد صامت وعزيمة صاققة ، وتوسل الى تحقيقها بدخوله في جامعة سان باولو حيث طفق يبشر بها ويدعو رفاقه الى اعتناقها وتأبيدها مصورا لهم جمال اللغة العربية وكاشفا لهم عن بعض ما تتضمنه من كنوز الى جنب انها الينبوع الفياض الذي استقت منه لغتهم دررا غوالي من آلاف الالفاظ . . . بعد السعي القنع عميد الجامعة بضرورة انشاء كرسي عربي في الجامعة ، ولكنه اشترط ان يتعهد ابناء العرب هذا الكرسي باموالهم ريثما تقتنع الحكومة بضرورته وتوفر له الاعتماد اللازم . فما كان من العرب الا ان انقسموا قسمين : قسم يؤيد على اعتبار ان الفرصة ثمينة يجب ألا تفوتهم وعلى رأس هذا الفريق رشيد سليم الخوري ، وقسم يعارض على اعتبار ان امتهانا بلحق اللغة اذا ما اعرضت الحكومة عن تخصيص المال لكرسيها . ولكن الفريق الاول تغلب ، وتبرع بالمال يوسف نقولا اليازجي وغيره وعين استاذنا توفيق قريان . . . "

(٣) توفيق ضعون - ص ١٧٧

(٤) توفيق ضعون - ص ١٢٩ - ١٨٣

اسس سنة ١٩٠٠ (١)، وغيرها...

الا ان حركة المدارس العربية هذه كانت ضعيفة في اميركا الشمالية وبنوع خاص في الولايات المتحدة ، حيث يذوب المهاجرون في البوتقة الاميركية اسما ولغة وحياة ، الا من كان منهم لبناني المنشأ فانه يحافظ على ذكريات وطنية تجعله دائما يحن الى الوطن الاول . ولهذا الاختلاف بين مهاجري الجنوب ومهاجري الشمال اسباب ، اهمها ان العربي الذي هاجر الى الجنوب وجد نفسه يفوق سكان البلاد ثقافة وتقدما ، فاحتفظ بشخصيته وراح يسعى لتعزيزها ورد غوائل المكان والزمان عنها . بينما اتجه البعض الى الشغل فاذا بهم يغي بلاد قطعت في مضمار التقدم الاقتصادي والاجتماعي اشواطا ، واذا بهم يشعرون بالنقص ، فاخذوا يستقرون بعد ما ابتلوا بالمعاصي ، فاصبح مخايل مايك ، واصبح يواكيم جو ، واصبحت سليمة ، بعد الاعلال والادغام والاعيب النحو ، سآلي او سوزان!!!!

لقد كان للمدارس اخطر الاثر في توجيه العرب الى مناهل النهضة ، فعرضت عليهم علومها ولغات كانوا يجهلونهم ، كما انها اطلعتهم بواسطة الادب العربي والاداب الاجنبية على آفاق في الحياة كم سدّها على آبائهم جهلهم المطبق . فكان ممن نتيجة ذلك ان نهضت البلاد نهضة علمية ماشتها نهضة اجتماعية ، فاذا بالقول تتجه نحو الابداع بعد ما انكشفت على نفسها في شرقتها قرونا . وساعد المدارس على اداء رسالتها ان المطابع قامت تسدي اليها المعونة ، فانتشرت الكتب على نطاق واسع ،

(١) " كانت هذه المؤسسة خير ما انشئ في هذه البلاد من معاهد التعليم والتثقيف والتهذيب ، اذا نظرنا الى العهد الذي انشئت فيه وبالة الغاية التي اوجتها . وكان تأسيسها سنة ١٩٠٠ . كان نعم لبكي يشهادة جميع عارفيه ، ادبيا ذكيا متبصرا حكيما صافي النية حسن القصد ، وكاتبا لبقا ذا حجة قارعة ، وشاعرا خطيبا واسع الافاق ، وبفضل هذه المزايا الغريزية والمكسبة استطاع ان يجمع حوله عددا من الشبان المثقفين وعددا آخر من الشبان الاميين ، فتوفق بذلك الى نواة هذه المؤسسة الثقافية التي كانت تضم تحت سقفها اعضاءها المتفاوتي المدارك لكي يسمع غير العارفين منهم محاضرات العارفين وما يدور بين هؤلاء من الابحاث والمحاورات في مواضيع ثقافية واجتماعية وسياسية . وعلى هذا الشكل كانت معهدا لانارة اذهان المبتدئين الذين لم يكونوا سوى الباعة المتجولين " - ضعون - ص ١٨٦ - ١٨٧

المصادر

يوم كان العلم رهنا باسياد القصور وابناء الصوامع والمساجد والاديرة، كان الكتاب، على بطن سيره في الناس، يقوم بمهمته على اكل وجهه . بيد ان الشعب شق طريقه الى حقوقه، وراح يساهم الى حد بعيد في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، فانتظم في المدارس مئات الالوف من التلاميذ، ووقف الملايين يتسقطون الاخبار المحلية والعالمية التي تطلع بها عليهم الجرائد والمجلات . فاصبح النسخ ضبرها من المحال في عهد سادت فيه الكثرة والسرعة، لذلك التجأت الكتب والصحف الى المطابع تسخرها لتحقيق رسالتها التثقيفية .

تذهب الروايات الى ان عرب الاندلس قد عرفوا الطباعة على الحجبــر والخشب (١) . ومهما يكن من امر فان الطباعة العربية لم تعرف في البلاد العربية في بادئ عهداها، بل في اوروبا، في ايطاليا . ففي الثاني عشر من ايلول سنة ١٥١٤، اصدر الطباع الفينيسي فريغوريوس غريغوريوس في بلدة "فانو" في ايطاليا اول كتاب عربي، وهو كتاب صلاة السوامي (٢) وطبع بعد هذا الكتاب سفر الزبور سنة ١٥١٦، ثم طبع القرآن في البندقية، بيد ان طبعته اعدمت خوفا من تأثيره على معتقدات النصارى (٣) .

ولكن الشرق ما لبث ان عرف الطباعة . واول مدينة عثمانية ادركها هذا الفن كانت الاستانة، التي شهدت اول مطبعة في اوائل القرن السادس عشر . اما الطباعة بالاحرف العربية فلم تدخل الاستانة الا في الثلث الاول من القرن الثامن عشر (٤) .

(١) جرجي زيدان - ص ٤٤

(٢) P. xv - Nasrallah. l'imprimerie aux Arabes.

(٣) جرجي زيدان - ص ٤٤

(٤) جرجي زيدان - ص ٤٤ - ٤٥

وقد سبقت حلب سائر المدن العربية والعثمانية في الطباعة العربية . (١)
ذلك ان البطريك اثناسيوس الرابع الدباس استجلب ادواتها، وصنع امهات الحروف
العربية لتلك المطبعة الشماس عبد الله الزاخر، واول كتاب اخرجته مطبعة حلب هو
كتاب الزمير لداود النبي (٢٠) وكان ذلك سنة ١٢٠٦ .

ومن حيث الطباعة كفن مستقل عن اللغة، فان لبنان اول من عرفه بسين
البلدان العربية . فقد ظهرت الطباعة فيه اول ما ظهرت في دير مار قزحيا
سنة ١٦١٠، الا ان احرف المطبعة كانت سرمانية، وقد طبعت كتاب الزمير بحرف
كرشوني (٣) الا ان تاريخ هذه المطبعة غامض، فلا يعرف من اين اتى بها، ولا من
اسسها، ولا مل حل بها بعد سنة ١٦١٠ . كل ما نفي الامر ان الاسماء المذكورة
في نهاية طبعة الزمير تشير الى طلاب من مدرسة روما، لذلك يرجح ان يكون
هؤلاء قد حملوا معهم الى لبنان مطبعة يوم غادروا روما (٤٠) ولكن اللبنانيين لم
يكونوا على علم بفن الطباعة، لهذا اضطر مؤسسو مطبعة دير قزحيا ان يستعينوا
بخبيرة الاجانب، فلجأوا في هذه المهمة الى طباع ايطالي يدعى باسكالي ايلي (٥)
وما لبثت المطابع بعد ذلك ان تعددت في لبنان، بعد ما انحصرت
المطابع الاولى في الاديرة . ومن اهم المطابع مطبعة مار يوحنا الصابغ في الشوير،
وقد اسسها الشماس عبد الله الزاخر حوالي سنة ١٧٣٢ . يقول فولني في وصف دير
مار يوحنا : (٦) " ان اهميته الاولى هي في مطبعة عربية، وهي الوحيدة التي
لاقت نجاحا في الاميراطورية العثمانية . وقد اسست منذ نحو خمسين سنة "

" (٧) ان الاسكندري وعناني لا ينتبهان لهذه الحقيقة الدامغة التي افرها غير واحد
من المؤرخين، فيقولان في " الوسيط " : " واول مطبعة عربية وصلت الى الشرق كانت
مع اللجنة العلمية التي صحبت حملة بونا برت، وطبع بها في مصر كتاب التهجد العربية
والتركية والفارسية سنة ١٧٩٨، ثم كتاب القراءة العربية، الخ " الوسيط - ص ٣٢٣

(٢) حنا فاخوري - ص ٩٠٩ - ٩١٠

(٣) Nasrallah . P. 169 - Hitti . P. 676

(٤) Nasrallah . P. 6

(٥) " P. 7

(٦) Volney - Voyage . T. 2
P. 174-175

وقد صنع الزاخر نفسه امهات حروف هذه المطبعة . (١)

وأشهر المطابع التي عرفت فيما بعد : مطبعة ديرقزحيا الثانية التي نقلت الى ديرقزحيا سنة ١٨٠٨ بعدما انشئت في الدّوّار (٢)، ومطبعة القديس جاورجيوس التي يقول فيها نصرالله (٣) : " والعمل الذي حققه عند الروم الكاثوليك عبد الله الزاخر حققه عند الارثوذكس الشيخ يوسف نقولا الجبيلي المعروف بابي عساكر (توفي سنة ١٨٨٧) فقد اسس هذا الاخير في بيروت مطبعة القديس جاورجيوس واتخذ احرف الشوير مثالا . واول كتاب اخرجه في هذه المطبعة هو كتاب الزمير سنة ١٨٥١ ، وقد اتبعه بطبعة ثانية بعد عامين " . وهناك ايضا المطبعة الاميركية سنة ١٨٣٤ ، والمطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٤٨ ، وغيرها —

يعبر فولني عن تأثير المطابع بقوله : " ان اثر المطابع عظيم جدا ، حتى ان مؤسسة ماريونا وحدها ، على النقص اللاحق بها ، قد احدثت في حياة الصليبيين تغييرا ملحوظا . فان القراءة والكتابة ، وبعض الثقافة ، هي اليوم اكثر شيوعا بينهم منها منذ ثلاثين سنة . " ٤٣

اجل ، ساهمت المطبعة في تنوير الازهان ، لانها وضعت في متناول

(١) عن الزاخر راجع : كارن ، ص ١٢٠ - ١٢٥ و ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨ - ١٥٩ - ١٦٠ أما عن المطبعة فان جون كارن يحدد موقعها بين الدامور ودير القمر فيقول : " لدن يصعد المسافرين من يمين الدامور الى رأس الطريق ليمضي من ثم الى بيروت ، سرفان ما تقع عيناه على غابة جميلة من شجر الصنوبر . وان المشاهد كلها لمأخرة على هذه الطريق من بيروت الى دير القمر وقصر اميرها في بيت الدين . وبين جملة الاديرة في جوار هذا الموقع ، وعلى مسافة ساعتين منه ، دير مار يوحنا المشهور بمطبعته ذات التاريخ القريد الطريف . يبلغ عمرها نحواً من مئة سنة ، واليها يشير فولني فيقول انها المطبعة الوحيدة التي صاغت نجاحاً في الامبراطورية العثمانية " (كارن - ص ١١٩ - ١٢٠)

ولا يخفى ما في هذا من خطأ ، لان فولني يشير الى مطبعة الشوير .

Nasrallah - PP. 65-66 (2)

11 - P. 46 (r)

Vohney-T.2 - P.P. 415-16(E)

الناس على اختلاف طبقاتهم العنصر الاساسي للمعرفة : الكتاب . لقد كان الناس قديما ينتقلون من مكان الى آخر متجشمين المشاق سعيا وراء كتاب مخطوط يقرأونه ثم يعودون . وصاحب الجلد والوقت منهم كان ينسخ كتابا . وهنالك فئة كانت تستسخ الكتب لقاء مبالغ من المال . اما الفقير المعدم الذي لا يعرف من يعيره كتابا ، ولا يمكن ان يقضي وقته في النسخ خوفا على اللقمة من الافلات ، ولا يملك ما يستسخ به الناس فقد حرم من فائدة العلوم . ولكن المطبعة سدت الفراغ ومدت زادها للجميع ، لا تفرق بين غني وفقير . وهذا ما ساعد العلم ان يعم الشعب ، وهذا ما ساعد انتشار الصحف التي تعتبر اليوم من دعائم الثقافة في كل بلد .

المقدمة

ليس ادل على اهمية الصحافة من التدابير الانتقامية التي تقوم بهها السلطات الظالمة ضدها ؛ فهذا بونابرت يقضي على عشرات الجرائد ولا يحتفظ منها الا بالمنصاع النفعي ، اى القليل القليل + وهذا نابليون الثالث يصدر القانون تلوي القانون للحد من حريات الصحف ، وتشديد الرقابة الحكومية عليها . وها الاتسراك يحولون الصحف بنظامهم البوليسي الى وريقات تافهة غالبا ؛ لا سياسة الا ما كان منها موافقا لسياسة السلطان ، ولا اخبار الا ما كان منها تمجيذا لاعمال السلطان و " زبائنه " ، ولا ادب الا ما عج بالتدجيل والخبث والكلام المزركش . ان هذا الخوف الذى يقض على الظالمين مضاجعهم لاسطع دليل على ما للصحافة من اثر في توجيه الراى العام . وقد شهد التاريخ آثارا خطيرة جرّت اليها الصحف . وهل من اثر اعظم من الذى تركته الجرائد في مجرى الثورة الفلنسية ؟ كانت الجرائد توجه الاحزاب - او بالاحرى الكتل والجماعات - كاليعاقة والكوردليه وغيرهم ، فتسير بهم الى الموت وهم صاغرون ، وقد اثارهم مقل زعيم ، او خبر مثير .

كأنت اوربا قد بلغت شأوا يذكر في فن الصحافة عندما سلك هذا الفن طريقه الى بلاد العرب . واذا كان لبنان قد سبق غيره بانشاء اول مطبعة فان مصر سبقته الى اصدار اول جريدة عرفها الشرق العربي . هذه الجريدة هي " الوقائع " التي انشأها محمد علي سنة ١٨٢٨ . وكانت هذه الجريدة تصدر بالتركية ، ثم صدرت بالتركية والعربية ، واخيرا صارت تصدر بالعربية وحدها . (١) اما اول جريدة سياسية عربية غير رسمية فقد صدرت في الاستانة سنة ١٨٥٥ ، اصدرها رزق الله حسون الحلبي وسماها " مرآة الاحوال " ، ولم يزد عمرها على

(١) جرجي زيدان - ص ٥٢ . ولكن هنالك نشرة اصدرها نابليون في الاسكندرية سنة ١٨٠٠ وسماها التنبيه . وهي اقرب الى النشرات غير المنتظمة منها الى الصحف . لذلك تعتبر الوقائع على تأخرها من التنبيه اول جريدة عامة منظمة .

سنة الا قليلا . (١) وهكذا تكون حلب قد سبقت المدن العربية الى انشاء الصحافة غير الرسمية ، كما سبقتها الى انشاء الطباعة العربية .

ولكن هذا السبق الذي احرزه المصريون والسوريون لم يكن ليخبط اللبنانيين حقهم في الثناء ، ذلك ان هؤلاء يعتبرون بحق اركان الصحافة العربية . وحتى في مصر ، لم تقم الصحافة الحديثة الا على سواعد اللبنانيين ، فكان لهم فضل السبق في اتخاذ صناعة تحرير الصحف حرفة بسوريا اولا ثم بمصر ثانيا ، وهم اول من قام بانشائها بمصر بعد الوقائع ووادى النيل (٢) والذي حدا اللبنانيين ان يجوبوا هذا الميدان ، وساعدهم على ان يجلبوا فيه ، هو ان السياسة الحميدية الغاشمة ابت الا اضطهاد الحرية ، فما كان من بعض هؤلاء الا ان ابى الرضوخ الى الظلم . ولما كانوا ضعفاء لا يستطيعون عملا حاسما ، آثروا ان يهجروا بلادهم الى مصر ، وما لبثوا ان خاضوا هناك ميدان الصحافة تساعدهم معرفتهم باللغات الاجنبية ، وينير سبلهم احتكاكهم بالعقل الغربي والحياة الغربية .

ولئن كان لبنان قد تأخر عن مصر في انشاء الصحف ، فان هذا لا يعني انه تأخر كثيرا . فما ان ازفت سنة ١٨٥٨ حتى انشأ خليل الخوري جريدة سياسية غير رسمية سماها "حديقة الاخبار" (٣) ، وهي اول جريدة سياسية غير رسمية صدرت في الامبراطورية العثمانية خارج تركيا - البلاد العربية .

ولكن هنالك نشرات صدرت في لبنان قبل "حديقة الاخبار" ، فمنها نشرة دينية مسماة "مجموع الفوائد" سنة ١٨٥١ ، يحررها جماعة على رأسهم القس عالي سميت . الا ان هذه النشرة ، كما يقول زيدان ، "اشبه بالتقاويم او المنشائر منها بالصحف" (٤) . وما لبثت الجرائد والمجلات ان تتابعت في لبنان ، كثرات الفنون سنة ١٨٨٥ ، و"الجنان" سنة ١٨٧٠ ، و"البشير" سنة ١٨٧٠ ، و"المقتطف" سنة ١٨٧٦ ، و"لسان الحال" سنة ١٨٧٧ ، و"الطبيب" سنة ١٨٧٧ ، وغيرها .

(١) جرجي زيدان - ص ٥٣ . يخطئ الاسكندري وعناني هنا ايضا ان يجمعوا لان "الجوائب" لاحد فارس الشدياق الصادرة سنة ١٨٦٠ اول جريدة عربية في الاستانة .

✓ (٢) الاسكندري وعناني - الوسيط - ص ٣٢٤

(٣) جرجي زيدان - ص ٥٣

(٤) جرجي زيدان - ص ٥٣

عندما انتشرت الصحف في لبنان واصبحت عنصرا هاما من عناصر الحياة الاجتماعية ، رأى العاملون فيها انهم بحاجة التي ما يجمع كلمتهم ويحافظ على حقوقهم ، ففكروا بتشكيل "لجنة الصحافة" او ما قد تسميه اليوم نقابة (١٠) الا ان الفكرة ماتت حالما ابصرت النور ، ولم يصبح للصحافة هيئة منظمة الا في سنة ١٨١٨ ، يوم تأسست "جمعية الصحافة" . ولكن حياة هذه الجمعية لم تطل (٢) .

انثر الصحافون وكلائهم العظم الذي تركته المدارس والمطابع في الحياة الثقافية _____ كان الاثر الذي تركته الصحافة . ومع ان الصحف في معظمها كانت تعيش حانية الرأس للاسياد ، فان البلاد لم تعد صحفا عرف اصحابها باخلاصهم للوطن وابنائهم ، وباندفاعهم نحو الحق والصالح ، وصحفا ادبية كانت تشحذ الذوق الادبي مزيلة عنه الادران ، موجهة مداركهم نحو الجميل من آثر القلم . ولا بد لنا في هذا المجال من ذكر اديب اسحاق ، احد الصحافيين الادباء الذين كتبوا ، وهم من الكتابة خدمة اخوانهم في الانسانية والوطنية ، وتسيير اذهان الهائمين في ظلمات الجهل والتقليد البالي . وازا موقفا اديب الجسري حاولت السلطات العثمانية كم فمه غير مرة ، كما ان السلطة المصرية اقلت جرائده فاضطرت الى ان يقصد فرنسا التي طالما اشتهر ثورتها مصدرا تستقي منه الشعوب المستعبدة وحي الثورة والانتفاض . . .

(١) لبنان في العهد الاستقلالي - ص ٩٤ = ٩٥ : " ان الفضل في انبثاق تلك الفكرة يوفي وضع الحجر الاساسي لبناء اول هيئة لمنظمة صحفية في لبنان دعيت لجنة الصحافة يعود الى الصحفي اللبناني الكبير المتمصر ، العلامة الدكتور فارس نمر باشا . ويتضح لنا ذلك من نص محضر قديم خط بالقلم الرصاص عثرنا عليه بعد تنقيب طويل في خزائن لسان الحال . وفيما يلي نص المحضر المذكور : نهار الاثنين بتاريخ ١٣ رجب سنة ١٣٢٩ ، و ١٠ تموز سنة ١٩١١ الساعة الرابعة بعد الظهر دعا حضرة العلامة الدكتور فارس نمر صاحب المقتطف والعظم جميع الصحافيين في بيروت الى فندق بسول للمذاكرة في شأن الصحافة . وبعد ان تكامل عددهم دار البحث فيما بينهم فمما يتعلق بالصحافة من الامور التي تؤدي الى تعزيزها ، وتجعلها قوة عظيمة ، عاملة على خدمة الدولة والوطن ، فقرأهم بالاجماع على انتخاب خليل سركيس مؤسس لسان الحال ، والشيخ احمد طيارة ، والشيخ عبد الرحمن سلام وبولس الخولي "لجنة صحافية" تسعى للوصول الى الغاية المذكورة " (٢) المصحح نفسه - ص ٩٥

وقد اشداد بعض الباحثين باثر الصحافة في نواحي الحياة المختلفة ، فقال شكيب ارسلان : " لا نزاع في ان الصحافة العربية قد كانت من اقوى العوامل في هذه النهضة بما اثارته من الحركة الفكرية ونقلت من اخبار الغرب الناهض الى اهل الشرق النائم " (١) . وقال نقولا فياض في محاضراته في الندوة : " واما الجرائد فلأن السياسة كانت مقصورة فيها على الاخبار ولا سبيل الى التعمق فيها بحكم المراقبة فقد فتحت حقولها للكتاب واكثرهم يتعمد زخرف الكلام والتأني في الانشاء واختيار الالفاظ على نمط الهمداني . وقد احتدم الجدل مرة بين " ثمرات الغنون " و " التقدم " فكثرت ترى الشبان متألبين مساءً عند ابواب المكاتب بانتظار الجريدتين للوقوف على انتقاد هذه وطعن تلك " (٢) . وهذه اخيرا كلمة في الصحافة للاب حنا فاخوري :

" اما اثر الصحافة فكان واسعا ، فقد ايقظت روح الوطنية والقومية ومحاربة الاستبداد وطلب الحرية ، ونقلت الى الشرق حضارة الغرب ونظمه الاجتماعية والسياسية واختراعاته العلمية . وكانت لغتها السهلة صلة بين العامة والفصحى ، فليئت هذه ورققت تلك ، ووسعت الاساليب الكتابية ونطاق الالفاظ العربية ، فكانت مدرسة متجولة في البلدان تهذب وترتب افكار الخاصة وتنهض الهمم " (٣)

الصحافة في المهجر هاجر اللبنانيون الى بلاد لا يحترم الانسان فيها لمهابة
فـــــــــــــــــــــ في الشارين ، او ضخامة في الاسم واللقب ، بل لما يحلي
في ساعده من عزم بناءً ولما يشع في فكره من ذرات العبقريّة . وقد ترك الاغتراب
في قلوبهم غصة ، وعلى شفاههم رعدة تحبس شهقة . وما لبثت لواعج الحنين ان

(۱) شکیب ارسالان - ص ۱۰

(٢) نقولاً فياض - ذكريات أدبية - ص ٤٨ - ٤٩ . مما لا شك فيه أن صدوف الجرائد مرفعة عن السياسة قد تركت أثر في خلق حركة أدبية لا تخلو من الجودة أحياناً . ولما لیتنا نجد اليوم سبائنا ينتظرون على أبواب المكتبات للوقوف على مناظرات أو مشاحنات كالتي كانت تدور بين الجرائد اللبنانية ، أو بين الجرائد اللبنانية والجرائد المصرية . فان في ذلك ، على عقم بعض المواضيع المطروقة أحياناً ، ما يدل على اندفاع أدبي نحن اليوم بأشد الافتقار إليه .

(۳) حنا فاخوری - ص ۹۱۵

حرّكت الاقلام ، فراحت تذوب على القرطاس آيات من الشعر الوجداني ، ومن النثر الحنون الشجي (١٠٠) ومن هؤلاء من لم يكونوا ذوي شهادات عالية ، بيد ان رغبتهم الفطرية في الكتابة ، وتراكم دواهي الشوق والالام ، فتحا امامهم آفاقا رحبة ولجوها ولهم من عافيتهم المتقدمة ايمان ماض بالنجاح . وهكذا لا نعجب اذا رأينا الادباء ومنشئي الصحف في المهجر لا يتمتعون دائما بالثقافة العالية . انهم ابناؤا الشعب الكادح ، سعوا في المهاجر وراء ما يسد الرق ، ولكنهم تعلموا هناك انه " ليس بالخبز وحده يحيا الانسان " ، فاطلقوا لمواهبهم العنان متحدّين الصعاب وعوادي الايام .

ويختلف الصحفيون . في المهجر من حيث اهدافهم ومقاصدهم . فمنهم من سعى جادا مخلصا في سبيل جمع كلمة ابناؤا الجالية العربية اللبنانية ، وذلك بنشر اخبارهم ومقالاتهم ونفثاتهم ، محتفظا طبعاً ببعض الحقوق المشروعة كحق الاستفادة المادية . ومنهم من راح يستخر جريدته للبذى من الاهداف ، فاتخذها مطية للوصول الى الغاية المنشودة : جمع المال حلالة حراما . وفي هذا يقول توفيق ضعون : " لقد اصبحت الصحيفة في هذا المهجر مسرحا يمثل عليه صاحبها ادوارا مخجلة كالمعلاة والمجاملة والتطيل والتزوير . والناس يتنادون في غيهم ان ليس من ينتقدهم ويسدد خطواتهم ويردعهم عن ارتكاب الموبقات . اما حرية الفكر فقد ماتت ، وغدا ابداء الرأي التنزيه حبا بالخير جريمة لا تغتفر ، نيا لسوء المصير ! " (٢)

ولكن الصحافة شهدت في المهجر عصاميين قاموا بالمستحيل في سبيل انجاح مشاريعهم . بين يدي اعداد من مجلة " الرسالة " التي كان يصدرها في ولاية نيويورك مرشد جرجس مسعود . من هذه الاعداد اربعة كتبت باليد ، وثلاثة طبعت على الالة الكاتبة . اما الاعداد المكتوبة بخط اليد فمنها اثنان كتبوا بالحبر رأسا دون ان ينسخا على الالة الناسخة ، واثنان - احدهما ممتاز في ٦٤ صفحة - كتبوا باليد ثم نسخا . وانني لا تصور منشئ " الرسالة " ذا الخط الجميل (٣) مكبا على مكتبه ، يكتب ، ويكتب ، ويكتب ، في هدأة الليل بعد اتعاب النهار ، وهمه ان تكون مجلته صحيفة الاهل والانساب ، والمعارف والاصدقاء ، وهو لا يملك من حطام الدنيا اقلاما ومداداً هماً وسيلتساء

(١) راجع في هذه الرسالة الفصل التالي : القومية والوطنية .

(٢) توفيق ضعون - ص ١٩٣

(٣) راجع نماذج منها على الصفحة التالية .

عدد الرسالة الممتاز

The MESSAGE

صحيفة الدهل والاساءة والمعارف والاصدقاء

الرسالة



غلاف "الرسالة"

حالاتنا

«حالاتنا بعض ثباتنا في الرجى»

صبرية
للمدائير

باللأسف في ارض غربتنا مهور وافر من خبثنا
نأمركوا ما عاد الهم عين يتكلموا كلمة بلعنا

نأمركوا ما عاد الهم عين يطفوا بالباد او بالعين
نسبوا حقيقة اظلم من ابر واستحقوا بلعنا وقالوا -
- نحن احاف - يا حادتنا -
واستحقوا بلعنا وقالوا لعب طرقي مالنا ومالي
عادتنا من فكرهم في الو وشكوا بعدان غير شعوب -

بشرنا فسم بصر سمعنا -
وشكوا بعدان غير شعوب عادتنا أكثر ذوقها مقلوب
لولا يكونوا تجنوا المصوب او في طرقي مقومه سادوا -
- كنا استعصنا عن حادتنا -

او في طرقي مقومه سادوا ما كان أكثرهم كذا حاروا
بالعنس ما بقيوا ولد طاروا قتلوا وراحوا من ابادينا -
ونحن مصدر كل خبثنا -

ملنوا وراحوا من ابادينا ومكرونا من عندنا وفيها
اظم السب كله تراخينا واهالنا دفع الخطر بكبر -

- قد اوتلونا السوء حالنا -
اهالنا دفع الخطر بكبر ما قد جعلنا اليوم هيك نصير
منشور من شائنا حاهير ليعجاب السنين بسود -

رسم لاحدى قصائد "الرسالة" الزجلية

الوحيدتان في اصدار المجلة . اما مواد الصحيفة فانها بالفعل مدعاة للاعجاب ؛ ليس فيها الفلسفي العميق ، ولا الادبي المحلق دائما . انها مقالات ديجتها اقلام ادباء في المهجر ، وقصائد حاكته مخيالات بعض الشعراء ، وبعض الذين لم يعرف لهم في عالم الشعر اسم ، الا ان مواطنهم الفياضة تحكم لهم بالشاعرية . ان ما يختلج في صدر الصحيفة صور للمهاجر الحائر التعس الطموح . .

تتابعت الصحف في المهجر ، واشتهر بعضها وما يزال مشتهرا ، كمجلة العصبة الاندلسية ومجلة الشرق في البرازيل . بيد ان صحف الشمال آخذة بالانقراض ، بانقراض "السنديانات العتيقة" التي كانت في المهجر سدا في وجه الزعازع التي تحاول اقتلاع الجذور اللبنانية العربية . وان ما بقي منها اليوم يكاد لا يذكر (١) . اما في الجنوب فقد استمرت حركة الصحافة مع ما اهترأها من افول نسبي ، وهي اليوم مزدهرة بالنسبة الى صحافة الشمال . واول جريدة صدرت في الجنوب كانت جريدة انشأها سليم بالش ، وذلك في عام ١٨٩٥ ، ودعيت الفياح . . وتوالت الجرائد على البلاد ، كالقريب سنة ١٨٩٧ ، والاصمعي سنة ١٨٩٧ ، والمناظر سنة ١٨٩٩ ، والصواب سنة ١٩٠٠ ، وغيرها . . . اما اول جريدة صدرت في الشمال فكانت "كوكب اميركا" لنجيب عريبي ، صدرت سنة ١٨٩١ (٢) .

ولكن . . . هل كتب للصحف العربية ان تعيش طويلا في المهجر ؟ ان البوادر لتدل على ان حياة الجرائد الباقية سنون قليلة . . . فالعصبة لا تصدر الا كرمز لحركة ادبية مباركة ، و "الشرق" تعيش على موائد الاعراس والحفلات . ويسوم ينمو هذا الجيل الجديد الذي لا يعرف من العربية الا القليل ، ويتلوه جيل لا يعرف من العربية شيئا ، ترى ، هل يبقى للصحف في المهجر من اثر ، او تنطفئ الشعلة ، شعلة الصحافة والادب ، التي طالما انارت حتى للادب المقيم خطاه . . ؟ ومهما يكن الجواب ، فان عملا حاسما كليل بان يتلافى الكارثة قبل حلولها . وهذا العمل لا يمكن ان يصدر عن غير الحكومة التي امامها ترسم خطتان : الاولى تقضي بان ترسل الى المهاجر معلمين يقومون بتدريس ابنا المهاجرين لغة بلادهم الاولى ، مجاناً ، والثانية هي ان تخصص عددا من المنح سنويا لابناء المهاجرين الراغبين

(١) راجع اطروحة وديع ديب للاطلاع على اسما الجرائد المهاجرة

(٢) جرجي زيدان - ص ٦٢

في تلقي العلوم في لبنان . اما سياسة البيانات والدعايات المعسولة ، سياسية
الزيارات التي تقتصر على مائدة او كاس ، فانها اساليب باطلة سئمتها المهاجرون لانها
لم تفتح لهم ابواب لبنان مضافة يوما .

المنتديات

عرفت البلاد العربية في العصر العباسية حركة مباركة أدت الى ازدياد عدد الكتب والمكتبات ، وانتشار العلوم في انحاء البلاد . وشبيهة بهذه الحركة الحركسية الحركة التي قادت نسي الاندلس ، والتي تعهد بها خلفاء امثال الحكم الثاني ، فاجتمعت في الغرب العربي خزائن من الكتب رفعها اصحابها حتى بلغ بعضها مئات الالوف من المجلدات .

ولكن الغرب العربي والشرق العربي منيا بموجات من البرابرة الذين قاموا ضد الكتب باعمال " فاندالية " ، فتفرقت الكتب في الارض تندب حظها العاثر ، يتيمية ولا من يتعهد بها . وفي تلك الاثناء كانت البلاد العربية ترتاح الى الكسل الفكري الذي دبت بها فيه السياسة العثمانية . فخلت الديار من الكتب ، وتكر للحرف حتى الذين منحوا الامكانيات الكافية لمؤاساته . يقول جون كارت : " ان القصور الشرقية الخالية من الكتب شأنها شأن بيوت زعماء الجبل القدامى . لا يقام وزن للرغبة في المطالعة ، وفوق ذلك لا وجود هنا لمثل هذه الرغبة " (١) . وقد بلغت " مجاعة الكتب " حدا خطرا من الضحك ، حتى ان فولني يذكر انه لم يلق اثنا رحلته في هذه البلاد سوى مكتبتين : احدهما مكتبة مار يوحنا التي سبقت الاشارة اليها (٢) ، وهي على ما كانت عليه من فقر ، ومكتبة الجزائر التي لم يكن فيها سوى ثلاثمائة مجلد (٣) . ولئن كان تأخر الطباعة في البلاد سببا من الاسباب التي اخرت حشر الكتاب ، فان لوضع العقلي السائدة في البلاد العثمانية والمتكر للمطالعة ، والسياسة الاجرامية التي انتهجها العثمانيون ، اشد الاثر في تنفير الكتب ردحا

ولكن الزمان ما لبث ان دفع الى الكتب العربية خدرا تغرز اليه ، فتربعت آمنة على رفوف المكتبات التي قامت بتنظيمها الدول الغربية في بلادها ، ولولا ذلك لطمرتها الايام مع ما طمرته . فليس غريبا بعد هذا ان نرى المستشرقين في

(١) جون كارت - ص ١٢٨

(٢) راجع ص ١٢ من هذا البحث .

(٣) ٤١١-٤١٥ - P.P. ٦٠٢ - ٧٥٨

العصور الحديثة يسرون امامنا في عقر دارنا في ميدان الادب العربي يهدوننا السبيل !
اما العالم العربي فلم يبق من غلته ويتنبه للاحتفاظ بأداب اللغة العربية الا في
اواسط القرن التاسع عشر على اثر نهوض اللغة العربية في عهد الاسرة المحمدية
العلوية وما انشئ من معاهد التعليم في سوريا ولبنان وغيرها . فاخذت الحكومات
او الجمعيات (١) في جمع الكتب وتقييدها وحفظها واستنساخ ما تعلم بوجوده منها
في البلاد الاخرى . واقتدى الافراد بها فاخذوا باقتناء الكتب على اختلاف مواضعها
بين قديم وحديث في اللغة العربية واللغات الفرنجية (٢٠ ٢)

وليس غريبا ان نشهد رجال الدين في هذا الحقل يعملون جاديين
كما عهدناهم في حقل المدارس والمطابع . لقد اسس فرحات مكتبة "فاقت مكتبات
حلب وسائر المدن ، جمع فيها ما يقارب الفا ومئتي مخطوطة عربية ما تزال باقية حتى
يومنا في مطرانية حلب المارونية " (٣٠)

وعلى فرار فرحات نهج رجال الدين في لبنان ، ان انهم الفوا وترجموا
الكتب ، واسموا المكتبات في الاديرة ، واختاروا من صفوفهم جماعات لنقل الكتب على
اختلافها ، وخصوصا ما كان منها دينيا (٤٠) فحفلت الاديرة بالكتب ، وحفلت بها كذلك
المدارس والمساجد باشراف رجال الدين ، فكانت المكتبات في دير البلمند ، ودير
المخلص ، وغين ورقه ومارعبدا وقزحيا وقرنة شهوان وغيرها (٥٠٠٠)

(١) يحدثنا روينصون - جز ١ - ص ١١٦ - ١١٧ ، عن المكتبة التي انشأتها جمعية
العلوم والفنون (راجع الفصل التالي) يقول : "وقد جمعت الجمعية في سنتها الاولى مكتبة
حوت اكثر من سبعمائة وخمسين مجلدا بينها خمسمائة وسبع وعشرون مخطوطة عربية وتركية ومثان
وتسعة وعشرون كتابا مطبوعا في لغات مختلفة . ومن بين المخطوطات خمسمائة واربع عشرة
مخطوطة اشترت مجموعة واحدة بلغ ثمنها سبعة آلاف قرش او نحو مئتين وثمانين دولارا ،
اكثرها قديم جدا . يرقى بعضها الى سبعة قرون او ثمانية . وهذه المجموعة كانت تخص
عائلة من الاشراف حظ عليها الدهر ، فاجبرت على بيع مكتبتها . والمجموعة غنية بالفقه
الاسلامي ، والقانون ، وكتب اللغة ، والمعاني ، والبيان ، والمنطق ، والرياضيات ، والطب ،
والتاريخ ، والفلسفة " .

(٢) جرجي زيدان - ص ٩٢

Raphael - P. 166 (٤)

Raphael - P. 164 (٣)

(٥) جرجي زيدان - ص ١١٨

والى جانب هذه المكتبات عرف لبنان مكتبات كبيرة . وقد الحق هـذه المكتبات بالمعاهد العالية . ومن اشهرها المكتبة الشرقية التي انشأها اليسوعيون في بيروت سنة ١٨٨٠ ، وفيها مخطوطات في العربية والسريانية والكلدانية والتركية والفارسية وغيرها . (١) وهناك مكتبة الجامعة الاميركية التي نشطت بنوع خاص فسي السنتين الاخيرتين نظرا لزيادة المخصصات لشراء الكتب .

ولا استطيع ، وانا في هذا المجال ، الا ان اذكر ، والام يحزن فسي قلبي ، ان المكتبات الرسمية العامة تكاد تكون مفقودة في لبنان ، لولا "دار الكتب اللبنانية" التي قامت على تضحية فرد هو فيليب طرازي (٢) ، والتي لا يشعر بوجودها الا موظفوها وبعض القلائل الذين يؤمنونها في ساعات الفراغ . وضالة اهمية هذه المكتبة عائدة الى ان الدار مفتقرة الى كتب تفي بمطالب الباحثين ، والى كتب حديثة تتيج للفقير المثقف ان يرافق الحركة الادبية ، ولغير المثقف ان يتزود بالمعارف . اضع الى ذلك عدم التنظيم الذي لا يفسح المجال امام العدد الاكبر للاستفادة منها (٣) .

كلما ازداد العلم جدا نحو الديمقراطية والشعبية ، ازدادت الحاجة الى وسائل عامة تضع مآهل العلم في متناول الجميع . وان الحاجة عندنا لثدعو الى انشاء المكتبات الوطنية العامة في كل مدينة وبلدة اسوة بالبلاد الراقية ، فكي شباننا تسكعوا في الملاهي وزحفا في المستنقعات . ان مكتبة عامة قد تنتشل من الفساد اناسا سعوا الى العلم فحالت المادة دون ادراك الاماني ، وتنشئ انفسا وعقولا تواقا الى المعرفة ، تواقا الى الافضل والاسمى .

ولم يعيش المهجر دون ان تكون له كلمته في الموضوع . لقد انشأ اللبنانيون عددا من المكتبات ، كالتى انشأها في البرازيل اسعد فارس ابو صعب ، في مطلع القرن العشرين في سان باولو ، والمكتبة التي انشأها جورج قسريان الشويرى سنة ١٩٠٨ . ولكن المكتبات آخذة بالانقراض نظرا لقلة عدد قراء العربية ،

(١) انيس نصلي - ص ١١٩

(٢) اسس فيليب طرازي دار الكتب اللبنانية سنة ١٩٢١ وفيها اليوم نحو ٢٠ الف كتاب

(٣) ان المكتبة تتبع الدوام الحكومي ، اى انها تقفل ابوابها من الساعة الثانية بعد الظهر ورواد المكتبات الوطنية عادة من الطلاب والاساتذة والعمال وغيرهم ، وهؤلاء يعملون نهارا

وان ما بقي منها يعول نفسي حياته على موارد اخرى كبيع الاسطوانات وغيرها (١) .

ان المستوى العلمي الذى بلغه لبنان مدين للكتب . والكتاب بدوره مدين للمطابع التي يسرت للمؤلفين سبل التأليف ، فكثر المؤلفات بعد ما كانت محدودة ، واقبل الأدباء على ادب الغرب يترجم رواثه ، فكان من نتيجة ذلك ان اطلعت البلاد على الادب الموضوع والادب المترجم بطريقة اعم واسهل ، وهذا ما ساعد المتأدبين والطلاب والمثقفين على النهل من العلوم .

(۱) جرجي زيدان - ص ۶۴

(٢) جرجي زيدان - ص ٦٥ - ٦٦ . ويقول روينصون في هذه الجمعية (يسمىها جمعية العلوم والفنون) : " فقد كان من تأثير المرسلين ان تألفت في بيروت جمعية العلوم والفنون الوطنية . تألفت في مطلع العام ١٨٤٧ بمعاوضة بعض المرسلين بمنا على الحاح بعض الوطنيين الازكياء ، ولا سيما الشبيبة الراغبة في تحصيل العلوم والتقدم العقلي . والقليل منهم تعلموا في مدرسة الارسالية . يجتمعون مرتين في الشهر فيتناولون الاخبار العلمية ، ويقرأون الصحف ويتباحثون في المسائل المطروحة ، وغالبا ما يلقون الخطب . " (جزء ١ ، ص ١١٦ - ١١٧)

وعلى اثر انحلال هذه الجمعية قامت على انقاضها جمعية قلّدتها في قوانينها وشروطها هي "الجمعية العلمية السورية" (١) ومن اشهر الجمعيات التي عرفت آنذاك جمعية "زهرة الاداب" التي اسست سنة ١٨٧٣ (٢٠) وتمتاز هذه الجمعية بانها جمعت عددا من الادباء كأديب اسحاق (٣) واسكندر عازار، وسليم النجار، ونخلة التويني وغيرهم (٤) ولكن اعضاء الجمعية يؤلفون الروايات او يترجمونها ويطلقونها راصدين ريعها للمشاريع الخيرية (٥) ومن الجمعيات جمعية "شمس البر" (١٨٦٩) والنادى الادبي في طرابلس (١٨٩٠)، والجمعية العلمية في الجامعة الاميركية، وقد نشأت في اوائل عهد الكلية (٦٠٠٠) الخ ...

اما المجمع فلم يعرف من قبل في لبنان الا "المجمع العلمي الشرقي" الذي انشئ للبحث في العلم والصناعة، سنة ١٨٨٢ . ولكنه لم يعمر طويلا ، لان دسائس السياسة الاستبدادية قد اصابته منه مقتلا (٧)

وفي المهجر انشأ اللبنانيون جمعيات ادبية واجتماعية وخيرية ، فكان منها في البرازيل خصوصا عدد لا يستهان به . ولقد مر معنا في باب المدارس ذكر "رواق المعرى" (٨) ، وهناك كثير غير هذه الجمعية مما لا مجال لذكره هنا (٩)

(١) جرجي زيدان - ص ٦٢

(٢) وهناك جمعية اخرى بهذا الاسم اسست في الجامعة الاميركية سنة ١٩١٣ .
(راجع لمحة عنها في الباب الخاص باثر الجمعيات ، بعد صفحات)

(٣) ان الكثير من خطب اديب اسحاق الواردة في "الدرر" قد القى من على منبر الجمعية .

(٤) نقولا فياض - ذكريات ادبية - ص ٤٢

(٥) جرجي زيدان - ص ٦٨ - ٦٩

(٦) راجع الكلام عن اثر الجمعيات ص ٦١٠

(٧) جرجي زيدان - ص ٧١

(٨) راجع ص ٤٢ من هذا البحث .

(٩) راجع ضعون ، ص ١١٣ - ١١٦

سبب انشاء الجمعيات ، وانما ان الدوافع التي حدث الكثيرين الى انشاء الجمعيات عائدة الى ما لمس اولئك من فعالية الجمعيات فسي الميادين الادبية والاجتماعية . وقد ورد ذكر لهذه الدوافع في الكتب او النشرات التي اخرجتها جمعيات مختلفة ، فنقرأ في مجموعة "جمعية اتحاد الشبيبة الاسلامية" ما يلي (١ :) "وبعد ، فان الفرد عنصر من عناصر الجماعة ، فقوته ونشاطه ورقته يدلون على درجة رقي الجماعة ، فهو والحالة هذه معيار امته ، فيقدر ارتقائه وحسب سلوكه وجده ونشاطه تكون امته كذلك لانه هو منها وهي منه . وهذا ما دعى (٢) الام الى تكثير المدارس والمقنديات العلمية والجمعيات الادبية لكي يتهدب الفرد ويقوى على مكافحة ما لا يلتئم مع مزاج امته . . . ولما كان هذا العمل العظيم لا يقوم الا بالجماعات ارتأى نفر من الشبيبة ان تؤسس جمعية باسم "جمعية الشبيبة الاسلامية تكون انموذجا لشبان هذا العصر ."

والى جانب الدافع الاجتماعي الذي يدمر الى الوحدة والتكاتف وغيرها من مقتضيات المجتمع ، دافع ادبي يسير غالبا الى جنب الدافع الاجتماعي . واكثر الجمعيات اهتماما بالناحية الادبية تلك التي نشأت في المدارس ، وبالاخص في الجامعة الاميركية في بيروت . لقد عرفت الجامعة - من يوم كانت كلية - عددا من الجمعيات الادبية التي قيض لها ان تكون ذات اثر فعال في احياء دافئ العربية ، وفي توجيه الطلاب نحو الجميل في لغتهم وآدابها ، وفي تسديد اقلامهم وخطبهم وازالة العثرات التي تتخللها .

ومن اولى الجمعيات التي تأسست في الجامعة "الجمعية العلمية العربية" . لا يعرف بالضبط متى نشأت هذه الجمعية ، انما المعروف انها نشأت في اوائل عهد الجامعة . وهناك جمعية ثانية هي جمعية "زهرة الاداب" التي اسست سنة ١٩١٣ ، وساهمت في النشاط الادبي ووضعت هدفا لها "رفع المستوى الادبي وتوثيق عرى الصداقة والاتحاد بين تلامذة الجامعة واحياء اللغة العربية وآدابها بواسطة الخطابة والكتابة واقامة الحفلات العمومية وتمثيل الروايات . . . (٣) وما يقال عن هدف هذه الجمعية يقال كذلك عن هدف "العروة الوثقى" . لقد كان دأب

(١) جمعية اتحاد الشبيبة الاسلامية - المقدمة ص ١

(٢) هكذا وردت (٣) جمعية زهرة الاداب - منتخبات - ص ١

هذه الجمعية جمع التلامذة وجمع اقلامهم على صعيد الاخوة والوطنية والعلم ، وما لبثت ان رأت نفسها مضطرة الى نشر ما يوجد به اعضاؤها من ادب او علم ، فاصدرت "العروة" التي كانت لسان حالها وما تزال . ونقرأ في المجلد الاول لمجلة العروة ، وقد صدر سنة ١٩٣٦ (١) : "رسالة العروة الوثقى هي الجمع بين الطلبة العرب في الجامعة ، والتأليف بين قلوبهم ، وتوحيد اهدافهم ومراميمهم . يجتمع في منتداهما وتحت رعايتهما الطلاب من جميع البلدان العربية ، فيتداولون الاراء ويشتركون في الابحاث ، ويتعاونون تعاوناً صاعداً في حقل العلم والادب (٢٠٠)

ولكن ... هل وقفت الجمعيات الى تحقيق المبادئ التي من اجلها انشئت؟ لا شك في انه كان للجمعيات اثر بئاً في الناحيتين الادبية والاجتماعية، وان كان هذا الاثر يفعل فعله في النفوس احياناً بتواضع فلا يشعر الناس به . انما الآثار المدونة التي بين يدي ، على ضآلتها ، كافية للدلالة على ان حركة الجمعيات قد اتت بخير .

في الناحية الاجتماعية مثلاً نرى الجعديات تقيم الحفلات لتجمع اعضاها ومن يلون بهم . وهذا ما قامت به جمعيات كثيرة ، منها جمعية اتحاد الشبيبة الاسلامية المار ذكرها التي اصدرت كتيبا اوردت فيه ما قيل في حفلتها الاولى من خطب وقصائد .

وبالاضافة الى الجمعيات الخيرية التي كانت وما تزال تقوم باعمال البر ، رافعة من صدور المعدمين كابوس الظلم والحرمان ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، جمعيات نشطت الى تقويم الاخلاق وتوجيه الناس ، والنائشة بنوع خاص ، الى ما فيه خيرهم وهدى بلادهم . فقد نشر كتاب عن المخدرات باشراف احدى هذه الجمعيات في مصر ، وهي "جمعية السيدات المسيحية لمنع المسكرات في المخدرات بالقطر المصري" . وفي هذا الكتاب الذي اعد لطلاب المدارس الابتدائية والثانوية ابحاث في تاريخ المخدرات وفي انواعها واثار كل منها ، وفي مضارها وتأثيرها في قوى الوطن الاجتماعية والاخلاقية (٣٠) والاثار الادبي - وهو ما يهمنا في الدرجة الاولى - يبدو جلياً جلياً اثر الاجتماعي . فالجمعيات التي قامت على اساس التشجيع الادبي اتت على اعضائها

ومناصبها

(١) الواقع ان العروة صدرت سنة ١٩٣٥ ولكن بشكل بسيط (٢) العروة المجلد ١ ، المقدمة . على مذكرة
ولمحرر لاس
١٩٤٩

(٣) راجع : التعليم القويم ضد شر المخدرات الذميمة .

ومناضريها والمساهمين في حياتها بالخير العميم ، ذلك انها كثيرا ما شهدت على منابرها فتينا يتلون خطبهم ، فيعشرون تارة ، وتستقيم لهم الامور طورا ، حتى اطل يوم فاذا ببعض هؤلاء ادباء وشعراء مجلّون . وليس غريبا ان تكون الجمعيات خالفة ادباء ، فرب اديب كان في اول حياته منزويا خاملا ، فقيض الله له جمعية اخذت بيده ودرّبه منبرها ودرّسته مجلتها ومنشوراتها . ففي لبنان - وخارج لبنان ، ففي البلدان العربية - منشورات اصدرتها جمعيات حاملة الى القرا ثمار اقلام اعضائها وغيرهم من الادباء . من هذه المنشورات الكثيرة مجموعة "الفلسطينيات" التي اصدرتها "جمعية الرابطة العلمية الادبية في النجف" سنة ١٩٣٩ . والمجموعة عبارة عن قصائد لشعراء الجمعية ، منهم محمد مهدي الجواهري ومحمد علي اليعقوبي ومحمود الحسبوني وصالح الجعفري وغيرهم . والقصائد كلها تدور حول فلسطين والخطب الممدق بها ، والحالة التي اوصلتها اليها الاوضاع الداخلية فيها ، وفيها دعوة الى الاتحاد والتآخي والنجدة ، ولمثل هذا العمل الادبي - المجموعة - اثر بيتن ، ذلك انه يجمع في كتاب واحد قصائد قد تتشتت وتضيع في الجرائد او الخزائن لولا يد الجامع التي تحفظها من عبث الزمان بها .

واذا ما تطلعنا الى الجمعيات في لبنان وجدناها ناشطة الى العمل ، وبنوع خاص تلك الجنوعيات التي نشأت في كنف المدارس ، والتي ذكرنا منها ثلاثا ترعرت في الجامعة . فقد اصدرت "الجمعية العلمية العربية" سنة ١٩٠٨ كتيباً دمي "عواطف الاخلاص" تضمن بعض ما قيل في الاستاذ روبرت وست المتوفى سنة ١٩٠٦ . والكتاب قسمان : عربي وانكليزي ، وفيه مجموعة المراثي ، شعرا ونثرا ، لطلاب الكلية واساتذتها .

اما جمعية "زهرة الاداب" فقد اصدرت سنة ١٩٢٥ مقتطفات ادبية ، ذلك انها "رأت ان لا تحرم التلامذة الجدد من فوائد الخطب التي القيت في اجتماعاتها في السنة الماضية" (١) وقد صدر الكتاب باسماء اعضاء الجمعية ، ثم بنشيد الجمعية . وفي المجموعة مقالات علمية وادبية واجتماعية ، وقصائد انتقادية وغزلية وغيرها .

اما جمعية "العروة الوثقى" فقد كان اثرها في انهاض الهمم الادبية

(١) مقتطفات جمعية زهرة الاداب سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥ - بيروت - مطبعة المصباح

بين الطلاب كبيرا ، وذلك بفضل الاجتماعات المتتالية التي كان يخطب فيها الاعضاء والاساتذة والادباء ، وبواسطة "العروة" التي حفلت صفحاتها بالمواضيع المختلفة ، واخصها المواضيع العلمية . (١)

واذا اضفنا الى هذه النواحي في الاثر الادبي نلحظ في جمع الكتب (٢) التي عنيت بها الجمعيات ، ادركنا ان اثر الجمعيات كان عظيما في النهضة ، وانـه مشى جنبا الى جنب مع آثار المدارس والمطابع والمكتبات وغيرها من دعائم النهضة .

-
- (١) كانت "العروة" تصطبغ بالصبغة العلمية الادبية في اول عهدها . ففي المجلد الاول الصادر سنة ١٩٢٦ نقرأ العناوين التالية : سوريا في ادوار التاريخ - بيت المال في العصر العباسي - صناعة الصابون ومزلتها في اقتطنيات سوريا - الحركة الهيدروجين الثقيل - فلسفة التطور - الحركة التمثيلية في العراق - مناحي التجدد في دراسة التاريخ - مآثر العرب في العلوم الطبيعية - مآثر العرب في الرياضيات والفلك . اصف الى ذلك مقالات ونفثات لاعضاء العروة الوثقى (راجع ص ٧ ، العدد الثاني ، المجلد الاول) . اما اليوم فقد مالت الجمعية ومجلتها الى بحث المواضيع القومية السياسية العامة ، وذلك ايام حرب فلسطين الاخيرة وبعدها .
- (٢) راجع هامش الصفحة ٥٦ من هذه الرسالة .

بين الشرق والغرب

ان ما يفرق بين الشرق والغرب في نظر البعض هو نفسه ما يفرق بين الروحانية والمادية . ذلك انهم الصقوا المادية بالغرب ، وظلموا الروحانية بـان دفعوا بها في احضان الشرق فحسب . ولا تخفى المغالطة في مثل هذا التفریق ، فهذه تحديدات لا يقربها التاريخ والواقع ، اذ ان المشهور عن الشرق انه لم يكن روحانيا صرفا في كل ما صدر عنه ، كما ان الغرب لم يتنكر للروحانية في اعماله كلها ، بل كانت الروحانية والمادية تتداخلان في حياة الشرق والغرب على السواء .

الواقع انه لا شرق ولا غرب ، بل عالمان مختلفان كل الاختلاف ، لا تعرف حدودهما شرقا ولا غربا ؛ انها تشطر الشرق قسمين ، وتشطر الغرب قسمين ، فيجتمع احد قسمي الشرق الى احد قسمي الغرب ليشكلا عالما واحدا له آماله الخاصة وحياته الخاصة ، له آلامه في بؤسه ورجاؤه لمستقبل افضل . ويجمع الشطران الباقيان ليكونا عالم الفراغ للروحاني والوجداني ، عالم عبید المادة يستخرون الناس لهم عبیدا .

سقت هذه الكلمة لاقول ان الشرق والغرب لم يكونا ولا يكونان عالمين منقسمين متنافرين ، بل كثيرا ما يلتقيان على الصعيد الثقافي والصعيد السياسي . يثبت ذلك تلك التيارات الفكرية والادبية والاجتماعية التي كانت تجتاز الشرق الى الغرب او تجتاز الغرب الى الشرق . ولعل ابرز هذه التيارات اثرا ذلك الذي حمل الـشـتراك العربي الى اوروبا عبر الاندلس وصقلية في ايام العرب الزاهية . ثم غاب الشرق في جهله بمولده في الغرب نور المعرفة والتقدم . وقامت سنة الحياة تدبر اتصالا جديدا بين الشرق والغرب ، تم عن طريق الارساليات الاجنبية الى البلاد العربية ، والمستشرقين ، والبحثات العلمية العربية الى الغرب . لقد رد الغرب الينا بضاعتنا نقية فائضة منطوية ونحن باشد الحاجة اليها ، فاسرعنا اليها بلهفة واحطناها ، وما نزال نحيطها ، بضروب من عنايتنا وعطفنا .

المرسلون
اهتم الغربيون بالعربية في بلادهم وفي بلادنا اثر تنبهم الى
فنى العرب الادبي ، فانشأوا المدارس للتلاميذ العرب وغير العرب . اما
البابوات فكانوا يرمون من تشجيعهم طلابنا ولغتنا ان يقووا اواصر الصداقة بينهم وبين

مسيحي الشرق ، والموارنة بنوع خاص ، فانشأوا مدرسة روما المارونية ، وصدروا القرارات الى رهبانهم بضرورة فتح المدارس في لبنان (١٠) وسلك ملوك اوربوا طريقا مماثلا ، فشجعوا العربية في بعض مدارسهم العليا ، كما فعل فرنسيس الاول الذي حمى اللغات القديمة ، الغربية والشرقية ، في "هيكل المعارف البشرية" ، تلك المؤسسة الثقافية التي قام بخلقها بعد عقده الصلح مع شارلكتن (١٢) ، وكما فعل لويس الرابع عشر الذي اخذ على عاتقه تعليم عدد من ابنا لبنان فجاءنا (٣) .

ثم رأيت البلدان الغربية ان ترسل الينا مرسلها يبشرون . ولكن المرسلين لم يكونوا دائما صريحين في اعلان اهدافهم او في وسائلهم ، بل كثيرا ما سعوا الى التبشير من طرق ملتوية ، ففتحوا المدارس والمستوصفات ، وهدفهم كسب الناس عقليا وماديا ثم السيطرة عليهم دينيا (٤) .

بيد ان المرسلين لم يهتموا دائما في اعمالهم بالامور الدينية ، بل وجهوا سعيهم احيانا الى النفع الشخصي والى العمل السياسي . ولم اكن لاشير الى هذه الانحرافات لولا ان لها نتائج وخيمة احيانا على الحركة الثقافية عندنا ، ذلك ان تعصب بعض المرسلين لبلدانهم جعلهم يلهون عن الرسالة الثقافية الحق ، فلا يلقتون طلابهم ، في ميدان العلوم واللغة ، الا ما هو كفيلا بان يضمن لهم نفوذا وسيطرة .

(١) حنا فاخوري - ص ٨٨٩

(٢) الياس ابوشبكة - روابط الفكر والروح بين الشرق والغرب - ص ٣٢

(٣) حنا فاخوري - ص ٨٩٠

(٤) ان اهتمام المرسلين بالدين لا يعني ان هؤلاء كانوا يسعون الى بذر تعاليمهم بين المسلمين فحسب ، بل كانوا كذلك يبشرون المسيحيين الذين هم على غير ملتهم بـ "مسيح" معين وبطائفة معينة . تقول جان ارقش في اهداف المرسلين الدينية : "لقد تقرر ان سفر رسول (الى الشرق) امسى ضروريا . ويامر من الملك توجه السيد دو هايس دو كورمانان الى المشرق حاملا مهمة مزدوجة : كان عليه اولا ان يعيد رهبان "الكوردوليه" الى بيت لحم بعد ان طردهم منها الارمن ، وان ينتزع من هؤلاء حماية الاماكن المقدسة ، كما كان عليه ان يسعى الى انشاء قنصلية في القدس منعا للتحرشات والمضايقات التي كان يتعرض لها الحجاج الفرنسيون "

(ارقش -

وقد لاحظ هذا الانحراف كتاب وطنيون واجانب واثاروا اليه في كتاباتهم التي ساورد منها قسما في اواخر هذا الفصل (١) .

(١) يقول هنرى غيز واصفا احوال المرسلين في اول عهدهم ، وتحول اهداف بعضهم في القرن التاسع عشر : " قام المرسلون بخدمات جلّى في البلدان التي سكنوها . علموا فيها اصول الفنون الهامة ، وكانوا رسل صلح وسلام . فكفوا اكثر مشكلات المنازعات الداخلية . اما اليوم فقد تغيّرت الحالة كل التغيّر . ان الامور التبشيرية تتعرض لكثير من التقلبات . فالمهمة الاولى القويمة اخذت تخف وتضاءل . والمرسلون الذين كانوا يقومون قديما بكثير من الحسنات اصبحوا اليوم تقريبا غير مبالين بكل ما له علاقة بالقضايا الدينية . لم يعد يهم احدا منهم الا منفعتهم الشخصية ، ومصلحتهم وراحتهم . (هنرى غيز - جز ٢ - ص ١٤٢)

اما الاهداف السياسية فانها تظهر ، وان خفيفة ، بظهور الحركة التبشيرية في بلادنا تقريبا . تقول جان ارقش : " ان ارسال المبشرين الى الارض المقدسة كان يشكل انجح وسيلة للدعاية واسلمها . فعلى هؤلاء المبشرين اعتمدت الدبلوماسية منذ ذلك الحين لجعل النفوذ الفرنسي مهيمن في الشرق الادنى . (Arceuth - P.P. 135-74) وتقول في مكان آخر عن سفر احد المبشرين الى الشرق : " على اثر هذا السفر الذى امر به لويس الثالث عشر ، رأى الاب جوزيف دو ترومبلاى مناسبا ان يرسل مبشرين الى لبنان . وهكذا نجد ان فكرة ارسال المبشرين قد حلت محل فكرة صليبية جديدة ، هذه الفكرة التي ابعدت نهائيا عن الازهان لانها غير قابلة للتحقيق . لذلك ترتب على الكبوشيين اتباع الاب جوزيف ان يغزوا روحيا وعقليا شعبا كان حتى ذلك الحين لا يعرف الا المبشرين البرتغاليين والاسبانيين والايطاليين . وبما ان الاب جوزيف كان وطنيا ، فقد حاول ان ييسط السطوة الفرنسية ، فشكّل بعثات مؤلفة من فرنسيين فحسب ، تتلقّى توجيهات من فرنسا . وفي سنة ١٦٢٥ سمح البابا للكبوشيين بالاستقرار في لبنان حيث استقبلوا بحفاوة (Arceuth - P.P. 134-135)

وقد تأثر بعض كتابنا بروح المبشرين ، فكتب الياس ابو شبكة يقول : " فاول ما فكرت فيه الرسائل الفرنسية عندما آمت هذه البلاد هو بثها الفضائل التي تحلى بها ملوكها (١) وادباؤها ورجالها العسكريون (٢) والبحريون (٣) وقد كان لهذه الدعوة اثرها العميق في المسيحيين على الخصوص فراحت الناشئة تغرف من معين تلك الفضائل غذا لتفكيرها " . (الياس ابو شبكة - روابط الفكر والروح - ص ٦٨)

وانتقل الان الى استعراض حياة الارساليات في لبنان ، لانتقل بعد قليل الى تقرير النتائج التي نجمت عن اعمالها .

بدأت الارساليات تؤم لبنان بصورة منظمة منذ القرن السابع عشر . وقد ساعد الامراء اللبنانيون اعضاءها سعيها وراء امرين : الاول هو تأمين الطمانينة فسي نفوس المسيحيين ، والثاني هو الظهور امام الغرب بمظهر المتحررين الراغبين فسي التعاون . وعلى رأس اولئك الامراء فخر الدين الثاني . لقد سمح لارسالية بان تتخذ الناصرة مقرا لها ، ولم يكتف بذلك بل نفخ المرسلين بكمية من المال ، واوصى بهم سكان المنطقة خيرا بلهجة لا تخلو من التهديد (١) . وسمح كذلك للمندوب دوهاميس بانشاء ارسالية في لبنان (٢٠) اما الكبوشيون فكانوا، حسب رأى غيز، اول من دخل الى لبنان من المرسلين (٣) . وعلى اثر موت فخر الدين طرد الكبوشيون من لبنان اذ انهم اتهموا بانهم كانوا يدعون العناصر غير المسيحية الى الدين المسيحي (٤) ، فحل اليسوعيون محلهم يتابعون اعمالهم . والى جانب الارساليات التي ذكرت ارساليات بروتستانتية لم تكن دائما اقل شأنا من الارساليات الكاثوليكية .

اما الاثر الذي تركه المرسلون في لبنان ، فقد ذهب الناس في تعليقه مذاهب شتى : منهم من اعتبر اعمال المرسلين مناجم خير ، ومنهم من اعتبرها معاول ردم ، ومنهم من ذهب الى ان لها جانب خير وجانب سوء .

لا شك في ان حركة المدارس في لبنان قد تأثرت تأثرا ظاهرا بما حمله اليها المرسلون من انظمة مدارسهم . صحيح ان الهدف من انشاء المدارس لم يكن دائما احلال المعرفة مكان الجهل بقدر ما كان احلال دين محل آخر (٥) او نفوذ دولة مكان نفوذ دولة اخرى . الا ان الغاية هوّلت الواسطة الى اداة فعالة في بناء

(١) Areache - P.P. ١٦٨-١٦٩

(٢) Areache - P.P. ١٨٢-١٨٣

(٣) راجع : غيز - جزء ٢ - ص ١٤٦

(٤) Areache - P. ٢٥٦

(٥) يقول زيدان : " اما الباعث على انشاء المدارس في سوريا على الاكثر منافسة الارساليات الدينية او المبعثات التبشيرية " (زيدان - ص ٣٢٠)

العقول اللبنانية . ولمحة سريعة نلقيها على أسماء المدارس التي نشأت بعناية المرسلين كقيلة بان تقر بحقيقة ما قلت .

ولم يقتصر نشاط المرسلين على المدارس بل طرق ميادين اخرى كالطباعة . كان المرسلون - وهم بطبيعة الحال مبشرون - بحاجة الى اذاعة تبشيرهم في الناس ، فادركوا بالتالي ان اشرع الوسائل وانفعها هي الطباعة . لذلك قاموا بمشاريع كثيرة في هذا الشأن ، بعضها تحقق وبعضها اخفق . فقد عبر الاب جوزف الكبوشي عن امله بان يكون لجمعية مطبعة ، وصرح بانهم يملكون الاحرف العربية والسريانية والتركية والفارسية ، وبان عددا من الابرار يتدرب على اصول هذا الفن . بيد ان الفكرة لم تتحقق ، الا ان اليسوعيين قد رعوها (١) ويذكر بعض الاجانب ان دخول المرسلين الى البلاد كان فائدة خير للنهضة . يقول روينسون : " كانت يقظة العرب الفكرية في طلب المعرفة نتيجة غير مباشرة ولكن طبيعية لاعمال المرسلين في هذا القطر " . (٢)

ومن الناحية اللغوية الادبية نرى ان المبشرين قد احدثوا بعض النهضة في اوائل عهدهم اذ انهم اتخذوا العربية لغة التدريس الرسمية (٣) . بيد انهم ما لبثوا ان مالوا عن العربية الى لغاتهم . والجلي ان بعض المبشرين ، بطريق مباشرة او بطريق ملتوية ، لغاية او لغيرغاية ، ينزهون من تلاميذهم وطلابهم معالم العروبة احيانا ، لغة كانت ام شعورا . . . ان برامج المدارس التبشيرية ينوع خاص وبعض المدارس الاجنبية بنوع عام حافلة بالاططار التي تهدد كيان اللبنانيين العرب الاجتماعي والادبي . فما تزال حتى اليوم نلاحظ ان اكثر المدارس المعنية لا يخصص للعربية سوى ساعة في النهار ، بينما يخصص للغات الاجنبية خمس ساعات (٤) . فلا عجب بعد هذا ان يلجأ طلابنا الى اللغات الاجنبية يعبرون بها عن افكارهم ، وان يميلوا بالتالي الى الاداب الاجنبية نعرضين عن الادب العربي . وان الميل الى الاداب الاجنبية ليميل بضعاف النفوس احيانا الى الاجانب نظرا لما يقرأون في كتبهم من عناصر التشويق اليهم . ولم يدر

(١) Azcarache . P.P. ١٨٤ - ١٨٥

(٢) روينسون - جز ١ - ص ١١٦

(٣) راجع ص ٣٩ من هذا البحث . و: زيدان - ص ٤٣

(٤) ان هذا شأن بعض المدارس الوطنية كذلك . بيد ان الروح التي تسود تدريس العلوم العربية تختلف بين هذه المدارس وتلك .

من المسؤولين ما يدل على انهم متنبهون للداء الذي يبيث قروحه في كل مكان . والوسيلة الوحيدة الكفيلة بان تنصفنا هي ان يخيّر المخلصون من مسؤولينا المبشرين في احد امرين : اما ان يتبعوا برامج وطنية موحدة تشرف عليها وزارة التربية ، وتظهر اللبنانيين والعرب على حقيقتهم ان في عالم التاريخ (١) اوفي عالم اللغة والادب ، واما ان يتولى وطنيون ادارة مدارسهم والسهر على برامجها وفقا للمقتضيات الوطنية .

وقد شعر الادباء العرب بالخطر المحيق بلغتهم من جراء هذا الاهمال ، وذلك منذ القرن التاسع عشر ، فراحوا يرمون المدارس الاجنبية بالتهم ويحملونها مسؤولية التقصير . فنسمع ابراهيم اليازجي يقول : « بل عندنا اليوم ما هو ابلغ من ذلك ، وهو ما نراه من كثير من فتياننا الذين يتلقون العلم في المدارس الاجنبية . فانك تجد كل فريق منهم قد اشرب الميل الى الامة التي يدرس في لسانها . فمن تعلم في المدارس الانكليزية مثلا خرج ميله انكليزيا ، وكذا من درس في المدارس الفرنسية او الطليانية او غيرها حتى تراه يباهي برجال تلك الامة ويتبجح باخبار ملوكها وكبرائها وفضائل اهل العلم والشعر فيها ، ويقتبس كثيرا من اخلاقها وعاداتها . » (٢) ونسمع امين ناصر الدين يقول : « لم ينزل باللغة العربية من ذلك اليفاع الى هذا الحضيض الا المدارس الاجنبية فقد كانت وما تزال تعلم الطلبة العرب احتقار لغتهم وتوهمهم انها لغة لا تستحق ان يخلى لها الزرع . » وانها صعبة المنال . تتبوعنها الافهام وتحار فيها المدارك . فينشأ اولئك الطلبة وقد اشربت قلوبهم مقت العربية . » (٣) واختتم هذا الفصل اخيرا بكلمة مفصلة صريحة لمحمد كرد علي : « يقول : ان المدارس الطائفية وموارس المرسلين — من الاميركيين واليسوهيين والالمان والانكليز والاطليان واليونان والروس وغيرهم من الامم ذات المقاطع في الارض المقدسة ، جعلت التربية متلونة في هذه الديار ، فاصبح كل متعلم يخدم الغرض الذي ائتمنت له مدرسته ، وانقسمت الامة بهذا الضرب من التعلم اقساماً شتى ، وتباعدت مسافة الخلف بين ابناء البلد الواحد ، لاختلاف المذاهب بل للاختلاف في المذهب الواحد ما لم يكن له اثر يذكر في غابر العصور ، ولان معظم

(١) ان درس تاريخ العرب ضعيف نظرا لاهمال ارباب المدارس الاجنبية . ولا يخصص له من الوقت ربع ما يخصص لتاريخ بعض البلدان الغربية ، وهنالك صفوف لا يسمع فيها التلميذ ذكرا للعرب .

(٢) ابراهيم اليازجي في : اعلام اللبنانيين في نهضة الاداب العربية — ص ١٣٣

(٣) امين ناصر الدين — مقدمة الالهام — ص ٥ ط

(٤) محمد كرد علي — ص ٨٠ — ٨١

المدارس التي انشأها غير الوطنيين من الشاميين كان العامل في تأسيسها مذهب خاص في الدين والسياسة . ولواردنا ان نعدّد اسما' الجمعيات الدينية التي تعلّم المسيحيين في بر الشام لما رأيناها تقل عن ثمانين ارسالية ، ومنها ما ينزع من المتعلم حب قوميته وبلاده ، وم رأينا رجالا ونساء درسوا في تلك المدارس فجاءوا لا عرب ولا افرنج ، يتكلمون في بيوتهم بغير لغتهم ، ولا يشعرون شعور الشامي ، بل ييغضون تقاليدهم وتاريخهم ، وتسموّد بلادهم في عيونهم ، ولذلك صح ان يقال ان تلك المدارس لم تنفع البلاد النفع المطلوب ، بل نفعت الشركة التي قامت بتأسيسها بان هيأت لها في هذه الديار انصارا . . . فان كانت هذه المدارس قد نفعت الشام بما ادخلته اليها من النور القليل ، فقد آخرتها بالحلل عقدة الوطنية . . . والعاقل من حرص على نفع أمته قبل نفع غيرها وانتفع بما عنده قبل ان يتطال الى ما عند غيره ، ومن زهد في لغة آبائه واجداده كان حريّا بالزهد في وطنه ووطنيته . . . واللغة والوطن يصح ان يكونا اسما لمسمى واحد . . .

المستشرقون

على اساس الاتصال السلمي الذي تخلل الحروب الصليبية والاحتلال العربي للاندلس وصقلية ، اتيح للثقافة العربية ان تتغلغل في صفوف الغربيين . فمنذ مئات السنين والعلوم الاسلامية العربية تغزو الغرب من صقلية واسبانيا ، مجتافة الالب والبرانس الى اواسط اوربا والى فرنسا وغيرها ، فاعجب بها الغربيون وقاموا يدرسونها ، ونشأت منهم فئة كان لها في دراسة العربية وآدابها شأن يذكر ساعد العرب على تفهم الكثير من مطويات كوزهم ، في نهضتهم الاخيرة .

وقد ظهرت بوادر الاستشراق منذ القرن العاشر . فقد ادرك المثقفون الغربيون ان العلوم العربية معين لا ينضب في الطب والفلسفة وغيرها ، فاختدوا يهتمون بها على صعيد فردي في بادئ الامر . ومن اول من عرف في عالم الاستشراق الراهب جرير الفرنسي الذي اخذ عن علماء الاندلس في مدارس اشبيلية وقرطبة . ونظرا لما كان يتمتع به هذا الراهب من مؤهلات انتخب حبرا في روما سنة ١٩٩١ . وقد امر آنذاك بانشاء مدرستين عربيتين : احدهما في ايطاليا ، والثانية في ريمس في فرنسا (١) .

وتلا "جرير" عدد من العلماء امثال الاب "بطرس المحترم" (من سنة ١٠٩٢ الى سنة ١١٥٦) الذي قصد الى الاندلس طلبا لعلومها ، و "جيراردو كريسون" او جيرار الكريموني الذي اعجب بالعلوم الفلسفية والرياضية والفلكية عند العرب فنقل بعضها الى اللاتينية (١) ، والراهب "لؤلؤ" ، و "الير الكبير" الذي درس العربية في باريس (٢) ، وغيرهم . . .

كانت اعمال المستشرقين الاوائل تقوم على جهد شخصي . ونستدل من الكتب التي ترجموها ونشروها ، ومن الابحاث التي حققوها ، انهم وجهوا عنايتهم الى العلوم الرياضية والفلسفية والطبية دون ان يعنوا العناية الكافية باللغة والاداب . وما لبث الملوك الغربيون ان فطنوا الى ما في الثقافة العربية من آفاق رحبة ، فراحوا يشجعونها ويشجعون علماءها . ففي صقلية التي غلب فيها الاعاجم على العرب ، حافظ المنتصر على الكثير من آثار العرب الفكرية . يقال ان الملك روجر أثر العرب على غيرهم لانه تتقن بثقافتهم ، وانه قد اضاف شارة محمد الى شارة المسيح الى نقوده ، فكان يضع على احد وجهيها : "لا اله الا الله ، ومحمد رسول الله" (٣)

اما غليوم الثاني خليفة روجر فقد اتخذ العربية لغة لبلاطه وقرب اليه العلماء العرب ، وكان يقرأ العربية ويكتبها (٤) . وقام بعدهما فريدرىك الثاني "فاحسن الى العربية ، وقرب علماءها ، فانتع افقهم بعد ضيق ، وارسل العلماء المسلمين ، وجادلهم بعد ان قرأ ترجمة ابن رشد وغيره من الفلاسفة . وتناول فريدرىك الثاني جامعة بولونية بحمايته ، فوهبها نسخا من الطب العربي ، فاذا فلسفة ابن رشد تتسرب الى منابرها ، ثم جمع اليه المترجمين من العرب ، والواقفين على الثقافة العربية ، وانشأ مكتبا للترجمة بلغ ما نقلوه ثلاثمئة مجلد الى اللاتينية لغة العلم يومذاك . . . حتى ان الباباوات اتهموا فريدرىك بالتواطؤ مع المسلمين على المسيحيين (٥) . وقد قام الملوك الاوروبيون بحماية العربية بعد الذين ذكرت (٦)

(١) نجيب عقيقي - ص ١٩ . كان بطرس المحترم يؤلف الكتب في الرد على الاسلام . بيد ان هذه النزعة ، نزعة الطعن والتجريح التي عرف بها الكثيرون من المستشرقين ، كانت خيرا على العربية ما ان المستشرقين اضطروا الى التضلع من اصولها وآدابها والى نشر بعضها . . .

(٢) نجيب عقيقي - ص ٢ (٣) نجيب عقيقي - ص ١٦ (٤) عقيقي - ص ١٦

(٥) نجيب عقيقي - ص ١٦٠ - ١٧ (٦) نجيب عقيقي - ص ٢٨٠ - ٢٩

وما لبث المستشرقون في العصور الحديثة ان انشأوا الجمعيات التي راحت تعنى بامور الشرق وثقافته . ومن هذه الجمعيات "الجمعية الاسيوية البنغالية" التي اسسها السيروليم جويس في كلكتا سنة ١٧٨٤ ، و "الجمعية الاسيوية الادبية" في بومباي سنة ١٨٠٤ ، و "جمعية العلماء الفرنسيين" التي اسست سنة ١٧٨٧ والتي اصدرت مجلة "جورنال آزياتيكا" . وقد حذا بعض الدول الاوروبية الاخرى حذو انكلترا وفرنسا (١) .

وينتظر حركة الاستشراق تطور الاتجاه نحو اللغة . فقديمًا كان الغرب بحاجة الى علوم الشرق ، لذلك عني المستشرقون بنقلها الى لغاتهم . ولكن بعد ما ازدهرت في الغرب العلوم وقطعت عن البلدان الشرقية في مضارها اشواطًا ، برزت امام الغرب ضرورة جديدة ، وهي ضرورة دينية تجارية (٢) ، فراح المستشرقون يهتمون باللغات الشرقية كلغة وادب ، ونشروا في هذا الميدان ابحاثًا قيّمة . وقامت الحكومات الغربية تساعد الحركة بانشاءها المناابر العربية في الجامعات ، كمبري اوكسفورد وكمبرج في انكلترا في القرن السابع عشر (٣) ، ومنابر جامعات قازان (١٨٠٧) وموسكو (١٨١١) وبطرسبرغ (١٨١٨) في روسيا (٤) ، ومنابر جامعات ليدن واورخت وامستردام وجروننجن في هولندا (٥) ، ومنابر جامعات برنستون ومشيغن وشيكاغو وغيرها في الولايات المتحدة الاميركية (٦) .

واذا حاولت ان اسرد اسماء الكتب العربية التي نشرها المستشرقون وحققوا متونها وعلقوا عليها وترجموها الى لغاتهم لاستنفد ذلك الصفحات الطوال (٧)

(١) نجيب عقيقي - ص ٢٣ - ٢٥

(٢) الضرورة الدينية ذات وجهين : التبشير ، والتعمق في دراسة التوراة استنادا الى اللغات الشرقية القديمة . (زيدان - ص ١٣٥)

(٣) نجيب عقيقي - ص ٧٩

(٤) نجيب عقيقي - ص ١٢٦ - ١٢٧

(٥) نجيب عقيقي - ص ١٣٠

(٦) نجيب عقيقي - ص ١٧١

(٧) نجيب عقيقي - و جرجي زيدان . راجع الاول ، والفصل الخاص بالاستشراق في الثاني

ونظرة عجلى نلقيها على المكتبة العربية كقيلة بان تجعلنا نكبر اعمال
المستشرقين وخدماتهم الجلى التي ادوها الى العربية في نهضتها . ولئن كنت اعترف
مع البعض بان بعض المستشرقين اتخذوا الاستشراق احيانا وسيلة للحط من قيمة التراث
العربي (١) تاريخا وفلسفة وعلماء ، فلا يسعني الا ان اردد مع نجيب عقيقي ، بعد ما اطلعت
على نشاط المستشرقين الجبار في ميداني النشر والتأليف (٢) : " واول فضل للمستشرقين
علينا نشرهم كتبنا وتنظيمهم لمخطوطاتنا . ايام كنا في انحطاط ما بعده انحطاط . ولو
لم يقدر لثروتنا الثقافية تلك الايدى البيض فتشرها ، والكثير منها في ارض غريبة ، وقد
فقد اصول معظمها ولم تصل الينا الا اسماؤها وترجماتها ، لما توصلنا الى معرفتها او
اجادتها على اقل تعديل فوقفنا على درجة حضارتنا واثرها في الامم الاخرى ولم
يقتصر فضلهم على جمع ما وجدوه ، بل سعوا في درسه وتنظيمه ونقده وتمحيصه ، والوصول
به الى نتيجة بالغة حجتها ، ثم نشروا في الناس لايقاف العالم على حضارة العرب (٣)

البعثات العلمية في العلاقات اللبنانية الخارجية ، وهو تلك
البعثات الرسمية ، الدينية والثقافية ، التي كانت ترسلها الحكومة
اللبنانية الى الغرب والى مصر للتخصص في مآهدهما . وقد بدأت هذه البعثات في
الحقل الديني ، وذلك على اثر اهتمام البابوات بموارنة لبنان وانشائهم المدارس من اجلهم .
" فعمد البابوات الى نقل فتيان الموارنة الى روم ليلقوا في مدارسها ويعودوا بعد
ذلك الى بلادهم حاملين نورا جديدا ، وثقافة جديدة ، واساليب جديدة . فكانت البعثة

(١) خالدى وفروخ - ص ٢١٢ - ٢٢٠ مقاطع اخرى من الكتاب : التبشير والاستعمار

(٢) نجيب عقيقي - ص ٢١١

(٣) للاطلاع على التفاصيل المتعلقة بالمستشرقين ، راجع :

ا - عقيقي - المستشرقون

ب - زيدان - ص ١٣٣ - ١٥٧

ج - نصولي - ص ١٢٢ - ١٣٢

د - Raphael. P.P. ١١-٣٩

الاولى الى رومه سنة ١٥٧٨ * (١)

هذا في عهد الامير قرقماز . وعندما ارتقى فخر الدين الثاني سدة الحكم شجع البطارقة على ارسال البعثات الى اوربا ليفيد فيما بعد من ثقافة اعضائها . ولقد بقي هذا التقليد متبعا في الناحيتين الدينية والثقافية في عهد الشهابيين - و عهد المتصرفين ، فنقرأ عن الامير يشير الثاني هذا النبا (٢) : " ولما رأى الامير البلاد بحاجة الى اطباء بارعين اتفق مع الحكومة المصرية وارسل شبانا لبنانيين اذكيا ليدرسوا الطب في مدرسة قصر العيني في القاهرة ، فعادوا بعد حين الى لبنان . وكانوا اول اطباء قانونيين في البلاد الشامية فادوا للبلاد فوائد تذكر بمعالجة الامراض بالطرق العلمية الفنية وتنويرهم الازهان وتأليفهم ... "

وقد سبقت هذه البعثة بعثة ارسلت الى لندن سنة ١٨٣٤ ، وتألفت من اسماعيل جنبلاط وانطونيوس الاميوني وعبد الله العازار (٣) . وفي عهد المتصرفية " اوفد فرنكو نصرى باشا فريقا من الشبان الى اوربا لاتمام دروسهم العالية في المعاهد الكبرى " (٤) .

ولعبت البعثات دورا هاما في حياة مصر الثقافية ، يوم قام محمد علي

(١) حنا فاخوري - ص ٨٨٩ . ولم تقتصر البعثات على الموارنة ، بل ساهم في حركتها المسلمون والارثوذكس . اما المسلمون فكانوا يرسلون ابناهم - وخصوصا من كان منهم راغبا في الدين - الى الازهر ، واما الارثوذكس فكانوا يرسلون كهنتهم الى معاقل الارثوذكسية في اليونان وروسيا واسطنبول . ان هذه البعثات الارثوذكسية كثيرة ، بيد اني لم اقف في الكتب التي رجعت اليها على ما يفي بالمطلوب . وقد كتبت الى غبطة البطريرك الانطاكي راجيا ان يمد لي المسبيل للاتصال بمكتبة البطريركية في دمشق كـ فاجاب بـ رسالة لطيفة يقول فيها : " مع مدیننا جهودكم هذه وتمنياتنا ان تصلوا الى ما ترغبون فيه من المعلومات نوكد لكم انـ لـدى البطريركية كتب كثيرة ربما كانت مفيدة لكم في موضوعكم لو صارت قراؤها من خير يومه الامر - ولكن عدم وجود الشخص المطلوب في الوقت الحاضر والنقلة التي اضطررنا اليها لسبب البناء القائم الان في الدار البطريركية جعلت التفتيش عن الكتب او المخطوطات التي تفيدكم عسرا جدا . واذا تيسر لنا في هذين اليومين ان نجد شيئا من الكتب فلا نتأخر عن تقديمها " .

(٢) الاب صفيـر - ص ٩٥٠ - ٩٦٠ . ويقول بلبيل ان هذه البعثة اوفدت سنة ١٨٣٨ بوان اعضاها كانوا : يوسف الجليخ ، ابراهيم النجار ، غالب الخوري البعلقيني ، الملوك سليم خورشيد ، يوسف مرهج

(٤) بلبيل - ص ٤٢٩

(٣) بلبيل - ص ٣٩٠

لطيف (ص ٣٩٠) -

يرسل البعثة تلوا البعثة الى اوروا ليعود ابناؤها وقد حمل كل منهم من تراث الغرب ثيئا ؛ هذا تخصص في الطب ، وذاك في اللغات ، وذلك في الهندسة ، وآخر في الترجمة (١) وهناك اتصالات فردية تمت بين العرب والغرب جعلت العرب يعجبون بطرق الحكم الاوروبية ويقارنون بينها وبين الطرق العثمانية المتفجرة . وهكذا جنى العرب ا من البعثات الجماعية والرحلات الفردية اشهى الثمار في الميدانين الوطني والثقافي .

آثار ادبية - آثار اسي بالعرب " وقد اتيح للادب العربي الحديث منذ اوائل القرن الماضي ان يتعرف بالحضارة الاوروبية ،

وان يطل بواسطتها على آفاق جديدة في الحياة . وكان ذلك عن طريقين : الاول طريق الترجمة ، والثاني طريق الاطلاع المباشر (٢) وقد بلغ اثر الغرب شأوا بعيدا في حياة الشرق ، فتغلغل في سبل الحياة الشرقية على اختلافها : الحياة المادية والحياة السياسية ، والحياة الاجتماعية ، والحياة الفكرية (٣) وكنتيجة لحركة الترجمة التي قويت في البلاد العربية نظرا لاحتياج العرب الى الكثير من آثار الغرب الادبية ، نرى ان الادب العربي قد اثرى بضعان لم يعرفها العرب ، وانهم عرفوها لاما . يقول عناني والاسكندري (٤) : " فنشأ عن ذلك (الترجمة) نقل كثير من المعاني والاساليب الافرنجية التي يقبلها الذوق العربي فاثرت بذلك اللغة وحضنت افكارا هلهلها . ويذهب البعض

(١) نشأت في مصر من جراء ذلك نخبة من المثقفين اشرفت على المدارس العالية التي انشأها محمد علي ، وسعت بالبلاد الى التقدم الذي نصّب مصر في طليعة البلدان العربية ثقافة وطنية . ولقد رجع المبعوثون الى مصر ومن قلوبهم غبطة بما شاهدوه في اوروا - وفرنسا بنوع خاص - من مظاهر الرقي السياسي والاجتماعي . وقد اعجبوا خاصة بالقوانين التحريرية التي عرفتها فرنسا في ثورتها الكبرى وثوراتها الثانوية - وكانت حديثة عهد - فنقل بعضهم - واشهرهم رقاعة رافع الطهطاوي - ترجمات لهذه القوانين معلنين اعجابهم بالثورة ونتائجها (راجع في هذا البحث الفصل المتعلق بمبادئ الثورة وحقوق الانسان ، تحت عنوان : المؤثرات)

(٢) انيس المقدسي - جز ٢ - ص ١٤١

(٣) Abdel halim - P. 221

(٤) الاسكندري وعناني - الوسيط - ص ٣٢٢

الى ابعد من ذلك ، فلا يتكلم عن "تأثر الشرق بالغرب ، بل عن "غرف الشرق من ثروة الغرب ، او ، بتعبير ادى ، عن "ولادة الشرق ولادة جديدة على يد الغرب . وفي هذا المعنى يقول ميخائيل نعيمة (١) : "ما تعود البعض ان يدعوه نهضة ادبية عندنا ليس سوى نفحة هبت على بعض شعرائنا وكتابنا من حداث الادب الغربية ، فديت في مخيلاتهم وقرائحهم كما تدب العافية في اعضاء المريض بعد ابلاله من سقم طويل . اما اليوم فقد رجعنا الى الغرب الذى كان بالامن تلميذنا ، لنقتبس منه امثلة جعلناها هي زاوية نهضتنا الادبية . . . وتلك الامثلة هي ان الحياة والادب توأمان لا ينفصلان ."

والى جانب الاوضاع الادبية التي اكتسبها العرب ان اسلوبا او معنى ، اكتسبوا ما هو في مرتبة ذلك غنى وخطورة : مواضيع ادبية لم تخض فيها اقلامهم يوما ، ومواضيع اخرى طرقوها ولكن على غير الفنون والطرق التي عرفت بها في العصر الحديث . وعلى رأس المواضيع المقتبسة : المسرح ، والقصة .

اما القصة فليس هنا مجال لبحث فيها ، لانه سبق للعرب ان عرفوا هذا الفن في مقاماتهم وسيرهم وكتبهم الاسطورية وحتى في بعض اشعارهم ، ولان درس الموضوع يتطلب تفردا كليا له بعد ما تشعبت فنونه وخصائصه بتشعب الاتجاهات . اما المسرح ، فانني لا اجد بدا من الوقوف امامه ولو لوقت قصير ، ذلك انه موضوع دخيل على الادب العربي ، وقد اصطدم بعقبات اوقفته او ، على الاقل ، شلت قوائمه فراح يتلصص خطاه زحفا . والذي يشجعني على ان اخص المسرح ببعض العناية هو ما كان للمسرح من اثر في توجيه النظر الى الحياة الشعبية ، وذلك لان المواضيع التي طرقها كانت في الغالب مواضيع اخلاقية اجتماعية تهذيبية تسعى الى بث الفضائل واستنكار المفاسد . وسعود الى هذا في "الاتجاه الشعبي ."

لقد ادى احتكاك الشرق بالغرب اذا الى تسليح النهضة بدعامة — اقوى دعائما . واني اختتم هذا الفصل — بين الشرق والغرب — بهذه الكلمة الصائبة التي كتبها اديب اسحاق (٢) ، احد ادياء الطليعة عندنا ، واحد الذين عرفوا بنزوعهم

(١) ميخائيل نعيمة — الابداء والبنون — ص ٣

(٢) اديب اسحاق — الدرر — ص ١٢٠ وص ٢٠٠

الى الصواب اتى كان وازورارهم عن اللوم حيثما حلّ :

" انا نعترف لهم (الافرنج) بالمزية والفضل ، ولا نجحد سبقهم في مجال العلوم والفنون ، واجتهادهم الجدير بان يقتدى به ، وان قدومهم بلادنا عاد علينا بالفائدة المعنوية عارضة في خلال افعالهم المبنية على آمالهم . وذلك يقضي بالشكر لهم وان كنا على يقين من انهم لم يجلبوا لنا الفائدة التماسا لمصلحتنا ، بل توسلوا بها الى ادراك الغايات الدينية ، والمقاصد السياسية . وكيف لا نشكر لهم وقد كنا منغمسين في الضلالة ، تائهين في مفاوز الجهللة ، حتى صارت مدارسنا دارة ، لا دارس فيها ولا دارة ، وارض افكارنا لا تنبت شيئا . فلما ان وردوا علينا ، واقاموا بين اظهرنا ، صار فينا جماعة كثيرة يحسنون ما لم يحسنه نزر من السلف ، وتليت فسي مدارسنا الدروس بعد العفا ، والدروس . . . وانتثت عندنا صحف الاخبار فاستنارت بها الافكار . . . "

القسم الثاني

اللغة العربية

في مرحلة الانتقال

ليس من شأني هنا ان ادرس اللغة العربية في تاريخها وتطورها ، وان
ابحث في ما يعثرها من مشاكل ، وفي ما يرافق حياتها من جمود او انطلاق . هذا
موضوع لا يخوضه الا من اوتي من علوم اللغة سعة وتبحرا ، ومن وقف على اللغات السامية
مستجليا خصائصها . اصف الى ذلك ان هذا المجال ليس مجال لغة .

انما اردت ان آتي بلمحة سريعة استعرض بها ما كانت عليه اللغة في
اوائل مرحلة الانتقال وما آلت اليه . لقد اتيت في الفصل الاول من هذه الرسالة
بدراسة اثبتت فيها ان اللغة العربية كانت في عصور الانحطاط في حالة من الفوضى
والضعف شديدة ، وان الادب كان - كاللغة - يحتضر مرسلا في الجو نلثات مزعجة .
لذلك توجب علي ان ابحت - قبل ان انتقل الى المظاهر الادبية في النهضة ، واللغة
عماد الادب - في ما آلت اليه اللغة بعد بوارها ، مستعرضا النعمة على الاوضاع القديمة
الفاسدة التي سادت كتابات ادباء الانتقال ، وما آدت اليه محاولات هؤلاء الرامية الى
الانتقال بالعربية من صعيد الجمود والركود والضعف الى صعيد الحياة والتطور والعافية .

ما ان ازفت ساعة النهضة ، وتكاملت عناصر النمو فيها او كادت ، حتى قام
ادباء الانتقال الى اللغة يعرضون مشاكلها كقواعد ومصطلحات واسلوب . لقد ادركوا
ان اللغة كما وصلت اليهم - وكانت ما تزال ، مع ازدهار الحركة العلمية وتقدم الحركة
الادبية النسبي ، تشكو بعض الضعف - لا يمكن ان تقوم بسد حاجات الفكر فحي العصر
الذي كانوا فيه ، وخصوصا في العصر الذي كانوا مقبلين عليه . ذلك ان اللغة كانت
ما تزال كما تسلموها عن الاسلاف القدامى ؛ لقد اقفلت منذ امد بعيد ابواب الاجتهاد
فيها ، واقفلت كذلك الابواب التي تسربت خلالها الى العربية ، على مسير العصور ، مئات
الالفاظ من الفارسية والحبشية والهندية وغيرها . وقد كانت هذه الالفاظ ، بالاضافة الى
الى ما اشتق من اللغة العربية نفسها ، كقيلة بان تقدم للفكر مواد للتعبير كافية في
العصر العباسية (١) واعصر الانحطاط . ولكن سرعة التقدم العلمي في القرن التاسع

(١) عندما بدأ الاتصال العلمي القوي بين العرب والاعاجم - واليونان بنوع خاص - في
العصر العباسية ، وخصوصا في عهد الترجمة والنقل ايام المأمون ، عرفت العربية سيلا
من الكلمات الجديدة - المعربة والدخيلة - التي دخلت في صلبها لتدل على ما وقف
عليه العرب من جديد . ونظرة الى "المزهر" للسيوطي ترينا كميات كبيرة من الكلمات

عشر، وكثرة الاكتشافات والاختراعات، أدت الى تطوّر لغوى في البلاد العربية فرضته ضرورة تأمين الادوات اللازمة للتعبير عن الجديد . اما العربية فقد وقفت حيال التقدم مكتوفة اليدين معقولة اللسان ، لا هي تجسر على ان تأخذ من اللغات الاجنبية التعابير المستحدثة خوفا من نقمة المتعنتين ، ولا هي تستطيع ان تسقي الاشياء الجديدة على طريقة خاصة خوفا من الذين يحرصون على الاحتفاظ بما "ورد" ، وما "ورد" فحسب .

وهكذا نشط ادباء الانتقلال يطالبون بتحرير العقول وتحرير اللغة، كي

تلتحق - ويلحق الفكر العربي - بركب التقدم . يقول بطرس البستاني (الكبير) (١) : ان حالة العلوم المتعلقة باللغة العربية كالتصرف والنحو مثلا ليست باقل احتياجا من اللغة نفسها الى الاصلاح من هذا القبيل . فانها في حالتها الحاضرة لا توافق الذين يقصدون العلوم طلبا لنوال ما يترتب عليها من امر المعيشة . وذلك لان كل حياتهم بالكاد يكفي لتحصيلها على حقها . وهذا ما يجعل اهلها يهملونها بالكلية ، او يتخذون لغة او لغات اجنبية ضرائر لها . وهل يليق بالانسان الذي انما جعلت له اللغة واسطة وبابا للعلوم ان يجعلها غاية ، ويصرف حياته كلها واقفا امام ذلك الباب يتفرج على نقشه وزخرفته الخارجي ، مع ايقانه بان وراءه تحفا قديمة وحديثة تسلب القلب وتخلب الالباب . وهكذا تولدت ، عند العرب ، لغة دارجة بينهم تختلف كثيرا عن لغة الكتب . وهذه اللغة الدارجة تراها دائما تهدد اللغة الاصلية . وازا طال الحال عليها هكذا تمتع كثيرا من الفاظها فوق ما امامته ، فيلثم العرب في آخر الامر ان يفعلوا باللغة العربية كما فعل اليونان والارمن بلغاتهم الاصلية ، ويعطوا اللغة الدارجة محل اللغة الاصلية ، فتصير اللغة الاصلية لغة العلماء واصحاب التفنيس فقط كاللغة اللاتينية عند الافرنج ، ولا يمكن ان يتصور حصول خسارة للعرب اعظم من هذه . اذا يرى البستاني ضرورة تسهيل اللغة كيف تصبح في متناول الجميع . وينقل ابراهيم اليازجي الى احوال اللغة كاداة للتعبير عن الافكار ولنقل ما يجد من الامور الثقافية والمستحدثات الصناعية وغيرها ، فيراها لا تنفي بالغرض وهي في شرنقتها (٢) : لم يبق في ارباب الاقلام ومنتحلي صناعة الانشاء من هذه الامة من لم يشعر بما صارت اليه اللغة لعهدنا الحاضر من التقصير بخدمة اهلها ، والعقم بحاجات ذويها ، حتى لقد ضاقت معجماتها بمطالب الكتاب والمعرّين ، واصبحت الكتابة في كثير من اغراض ضررها

التي دخلت الى العربية في العصر العباسية وقبلها .

(١) بطرس البستاني في : الاعلام اللبثانيين ص ١١٦ - ١١٨ (٢) المصدر نفسه ص ١٢٧

من شاق التكليف وبابا من ابواب العنت . واللغة لا تزدد الا ضيقا باتساع مذاهب الحضارة وتشعب طرق التفنن في المخترعات والمستحدثات الى ان كادت تنبذ في زوايا الاهمال وتلحق بما سبقها من لغات القرون الخوال . ومست الضرورة الى تدارك ما طرأ عليها من الظلم قبل تمام العفا . وقبل ان ينادى عليها مؤذن العصر : سبحان من تفرد بالبقا ، ويختم على معجماتها بقصائد التأبين والرتا .

بيد ان اليازجي لم يكف بعرض مشكلة اللغة كلغة ، بل تعرّض كذلك للقواعد والمصطلحات التي رأى الخطأ شائعا فيها ، خصوصا في لغة الجرائد . يقول (١) "يقولون رجل تعيس وقوم تعسا" وهو من اهل التعاسة . وكل ذلك خلاف المنقول عن العرب والمسموع عنهم : رجل تاعس وتعس ويقول ايضا (٢) : "ومثله قولهم الرفقات البالية وعند فلان رياش ثمينة وانما للرفقات مفرد ، والصحيح في الرياش انه مفرد ايضا . . (٣)

(١) ابراهيم اليازجي - لغة الجرائد - الطبعة الاولى - مصر - ص ٦٦

(٢) ابراهيم اليازجي - لغة الجرائد - ص ٨٧

(٣) لم تقف هذه الموجة - موجة المطالبة بانعاش العربية وتذليل الصعاب التي تعترضها - عند عهد الانتقال فحسب ، بل تتابعت وتكاملت على ايدي الادباء المتأخرين نسوا عن الذين ذكرت . يقول امين ناصر الدين متعرضا للعرض نفسه ، واصفا الضعف الذي يتخلل اللغة : "يرى فريق من المتأدبين ان اللغة العربية في هذا العصر قد استعادت المنزلة التي كانت لها في صدر الاسلام او كادت ، ويحاول اثبات رأيه ببراهين لا تلبث ان تنتفض عليه وحجج لا تثبت على الجدل . وحسبك اذا اردت تزيف براهينه ودحض حججه ان تورد له ما في معظم الجرائد والمجلات والمؤلفات العصرية ملن كلام سخيف فشت فيه المغالطة وتعاوره الضعف واساليب تنتزه عنها العربية الفصحى . ومن اغرب ما في الامر انك قد تقرأ مقالة لاحد مشهورى المنشئين المتضلعين من اللغة فيأخذك العجب حين ترى اللفظة الفصيحة بازاء اللفظة المبتدلة التي انما تجرى على السنة العامة " (امين ناصر الدين - مقدمة الالهام)

ولما آذنت شمس النهضة القومية العربية في اوائل القرن العشرين - بالاشراق اخذت شعراءها عزة التاريخ والامجاد ، فقاموا يمجّدون العربية ويحملون على الذين اهلوها وكانوا السبب في طعنها ، ويكون على ما حل بها بعد وقفة مجيدة

لذلك نرى ادباء الانتقال يعنون باللغة عناية خاصة ، فيختارون من الكلام ما هو مطابق للمعنى ويرذلون الحوشي والمبتذل والقديم الممت ، ويحاولون ان يكون التركيب بسيطا متينا . واننا لنجد فرقا شاسعا بين اللغة التي اتخذها هؤلاء الادباء واللغة التي كانت سائدة في عصور الظلمة ؛ فقواعد تلك قد ضبطت نتيجة لاعمال المدارس اولا ، وخصوصا نتيجة لاعمال مشايخ اللغة الذين كانوا يعلمون في حلقات صغيرة او في بعض البيوتات في المدن او القصبات ، او حتى في المدارس الوطنية والاجنبية . اضاف الى ضبط القواعد ضبط الاساليب . فبينما كانت اساليب الانحطاط تقلد دون براعة وتزخرف دون ذوق ، اصبحت الاساليب الجديدة تميل الى الصفاء والسهولة مع المتانة ، وان كانت لا تخلو احيانا ، بحكم الاستمرار غير المقصود ، من بعض السجعات والاستعارات وانواع الجناس وما شاكل ، كالتي نراها احيانا في كتابات اديب اسحاق ونجيب الحداد .

كانت لها . وفي هذه المرحلة غلبت المسحة العاطفية في تمجيد اللغة والمطالبة برفع شأنها على الصبغة العلمية . ومن الشعراء المذكورين امين ناصر الدين السدي قال :

يا من يرى اللغة الفصحى وقد نكبت

بكل دهيا ردت نورها ظلما

هوت من الذروة العليا وبث لها

شر الغوائل قوم ضيعوا الهمما

يا معشر اللغة الفصحى اما لكم

عطف عليها يقيها النائبات ، اما ؟

(امين ناصر الدين - الالهام - ص ١١٢)

ويقول خليل مطران :

سمعت باذن قلبي صوت عتب

تقول لاهلها الفصحى : اعدل

انا العربية المشهود فضلي

اذا ما القوم باللغة استخفوا

له رقرق دمع مستهل

برمك اغترابي بين اهلي ؟

أغدر اليوم والمغمور فضلي ؟

فضاعت ، ما مصير القوم ؟ قل لي !

(خليل مطران - جز ٤ - ص ٦٥)

وفي المهاجر تنطلق الاصوات ، بين باك في اللغة مجدا غابرا ، ومومن

وكنتيجة للحملة التي شنّها المخلصون من ابنا الضاد على اوضاع
الفصاة التي تغلغلّت في لغتهم وكادت ان تجعل منها لغة مماتة ، وقف الناس
فريقين : فريقا يتمسك باللغة متعتتا ، ويقف ازا الكلمات الدخيلة المستوحاة من حياة
الغرب واختراعاته موقفا سلبيا ، وفريقا لا يرى في اللغة سوى اداة لنقل الفكرة من
شخص الى آخر ، فلا يهتم بقليل او كثير بهذه الاداة ما دامت الفكرة تنتقل بوضوح ،
وكان هذا الفريق يقول : "كفى بالمعنى دليلا على ادبنا ! وحتى اليوم لا نجسر ان
نعلن احد الفريقين منتصرا ، ذلك لان لكل منهما شأنه وحوله وصولته !

بان ما اصاب اللغة لم يكن سوى نائبة من تلك النائبات التي تتحطم على صخرة الارادة
المدمومة ببذور الحياة الصالحة . فيصبح مسعود سماحه :

لهني على لغة يشوّه لفظها وجلال رنّه اللسان الاعجم

(مسعود سماحه - ديوان - ص ٢١)

وفي حفلة تسلّم الكرسيّ العربي في جامعة سان باولو يحيي فيليب
لطف الله اللغة قائلا :

حييت يا لغة الاعراب والادب ام اللغات وام السادة النجب

قد ناوأتك صروف الدهر باغية شرا وما بلغت شيئا من الارب

فيا ذخيرة وجد العرب اجمعهم لا زلت للعرب نورا غير محتجب

(فيليب لطف الله في : ذكرى الهجرة - ص ٢٠٤)

الا ان هذه الحركة لم تقف عند حد بذل العواطف ، بل عرفت
مساعي جدية قائمة على اسس العلم والعقل . من هذه المساعي اثنان قام بهما
كاتبان عانيا التدريس ردا وخبرا ما في العربية من تقصير وصعوبة : هما جورج الكفوري
والدكتور انيس فريحه . يستعرض جورج الكفوري في كتابه " اللغة العربية في ماضيها
وحاضرها ومستقبلها " مواطن المرض في العربية ، ثم يأتي بعدة اقتراحات للاصلاح . اما
الاقتراح الاول فانه يقضي بعدم نبذ العامية ، وباعتبار وجودها امرا واقعا مفيدا (راجع
الكتاب ، ص ٨٤ = ٨٥) . ويرمي الاقتراح الثاني الى فتح باب التعريب والفتباس على
مصراهيه ، ان لا بأس في اخذ بعض الكلمات عن اللغات الاخرى كما فعل العرب في
جاهليتهم وفي العصر العباسي (الكتاب ، ص ٩٣ - ٩٤) . اما الاقتراح الثالث فانه

وكان طبيعيا ان يلتفت الادباء الى الاسلوب كما التفتوا الى اللغة ،
ذلك ان الاسلوب مجموعة مما في اللغة من قواعد وفن وبيان . شعر فريق من الادباء
بان زملاء لهم يتخذون من الادب القديم محرابا يعنون لديه دون ان يلتفتوا الى
الجديد وراءهم - الى الجيد في الجديد - فاذا بهم يعيشون في الماضي ، يسجعون ،
ويتكلفون الطرق السالفة ، ويسخرون المعنى لمقتضيات المبنى والصناعة . وقد شعر الحديد
بما للصناعة عند البعض من اثر هدام في الادب ، فعقد فصلا بحث فيه قضية الجنوح
الى اسلوب جديد يكون فيه الكلم ثوبا ملائما للمعنى ، فقال : (١) " وهذه هي الغاية
التي نتوخى اليها اقلام كتابنا ونستنهض اليها قرائح ادبائنا ومنشئنا لتكون الكتابة
طوع ايدينا ونسلك من الانشاء مسلكا جديدا وهو عين المسلك القديم الذي اغفلناه ،
ونطبع على نفوس قرائنا ما نريده نحن لا ما تريده مستلزمات الاقوال ومقتضيات الكلام . "

(١) نجيب الحداد - ص ٤٦

يقضي بان تهمل المترادفات ! وهذا ، لعمري ، اقتراح لا يقوم على اساس متين . الى وجود
المفردات الكثيرة لا يضير اللغة بشيء . والغاءها لا يأتي عليها باى نفع . فهي قابضة
في بطون الكتب والمعاجم ، ساكنة ، هادئة ، لا تتعرض لطالب باذى ، بل تبدل نفسها
مطوعة لكل راغب فيها . ولو فرضنا ان الاقتراح نال الموافقة وبوشر بتحقيقه ، فما هي
الكلمات التي تلتغى والكلمات التي يبقى عليها ؟

اما " تبسيط قواعد اللغة " للدكتور فريجه فانه جمع الى منا ورد في
الكتب الاخرى من نقد احوال اللغة وسط مصاعبها والاتيان بالاقترحات النظرية عنصرا
جديدا ، الا وهو الاقتراحات التطبيقية التي اردفها المؤلف بكتابه .

عندما يبحث المؤلف الدواي يعتبر ان الحرف العربي مشكلة من المشاكل
التي تعترض اللغة (ص ٩) ، وينفي عن الحرف قدسيته (ص ١١ - ١٣) ليخلص بالتالي
دونا دعوة صريحة ، الى ان الاقلاع عن الحرف العربي ، ما دام هذا الحرف مشكلة ،
ممكن ضروري . (ص ١٤ ، الهامش) لقد كثرت في الاونة الاخيرة الاحاديث عن الحرف
العربي ، وعن ضرورة استبدال الحرف اللاتيني به . وحجة القائلين بهذه النظرية ان
الحرف اللاتيني اسهل فهما واكثر شيوعا . وهذه النظرية مردودة في نظري ، ذلك لانني
اعتبر ان الحرف العربي ، مع ما فيه من صعوبة تتمثل في اختلاف اشكال الحرف الواحد
بالنسبة لوروده في اول الكلمة او في داخلها او في آخرها ، لا يشكل معضلة على

الا ان الكثيرين من اصحاب المدرسة التجديدية لم يكونوا ليقبوا مثل هذا "التجديد الرجعي"، او بالاحرى هذه "الرجعية التقدمية"، بل كانوا يريدون تجديدا في التعبير، تجديدا في النظر الى الحياة، واقلاعا عن ديار ليلى وما تصويبه حياة المضارب . وقد عبّر المقدسي عن هذه الحركة بقوله (١) : ولما بدأت النهضة في منتصف القرن الماضي كان الادب لا يزال تقليدا للقدماء يتابعهم في اوصافهم واساليب تعبيرهم . ثم اخذ الامر يتغير ، فنشأ منذ القرن المذكور جيل يدعو الى التجدد . وكما قام ابو نواس في اوائل العصر العباسي يدعو شعرا زمانه الى ترك الحياة الاعرابية والمثل البدوية ، كذلك قام المجددون في هذا العصر يدعون الى ترك الطريقة القديمة والاهتمام بما توحيه اليهم الحياة الجديدة .

وكان من الطبيعي ان ينزقم هذه الحركة ادباء المهجر لاحتكاكهم الوثيق بالغرب ، ولضعف صلتهم بالقديم ، فشنوا حملة على القديم في روحه واسلوبه ، وشهدت كتاباتهم كلمات انتحلوها لانتشارها في بيئتهم ، تقرأها لاول وهلة فتصدمك فيها

(١) المقدسي - جز ٢ - ص ١٢

الاطلاق . اسمع الى تلميذ يقرأ : فهل يفوته ان التاء تاء ز وان الجيم جيم ، وان الصاد صاد ؟ كلا . انما المهم في الامر ان هذا التلميذ لا يستطيع ضبط الكلمة بالحركة الضرورية، وهذا عائد الى مشكلة القواعد لا الى الحرف .

والمشكلة المهمة الثانية هي قيام العامية والفصحى جنبا الى جنب . ويبدو من بعض فقرات تتخلل الكتاب ان المؤلف يميل الى الاخذ بمبدأ العامية في ما يتعلق ببعض الامور . فالعامية مثلا لها قواعد خاصة للعدد ، فلا يضير الفصحى ان تأخذ بهذه القواعد او بمثلها . ولكن هذا المبدأ خطر على اللغة . فان الاخذ بقواعد فرضتها يجر الى الاخذ بقواعد ، فباللغة العامية كلغة وادب : نكتب بها ، ونخطب بها . وهنا الطامة الكبرى ! ان هل يفهم ابن الجنوب كل ما يقوله ابن عكار ؟ وهل يفهم ابن بيروت كل ما يرد على لسان البقاعي ؟ ومن يضمن لنا ان المتني يفهم معنى "الخشوقه"، و "زيم"، و "عجال"، وغيرها ؟ . ناهيك بالاختلافات القائمة بين مختلف اللهجات العامية في البلدان العربية .

اما الناحية التطبيقية فان فيها الجديد الموفق كما ان فيها الجديد القديم .

طرافتها، ثم لا تلبث، بعد ان تتوافد عليك القواني بـ "الراديو" و "الدولار" و "الويسكي" وغيرها، ان تألفها، ثم قد تستسيغها او تستسيخ بعضها لما فيه من انقياد الى العفوية والسليقة . ومن الداعين الى التجديد ونبذ القديم نعمه قازان في معقله الارز، (١) ولا شك في ان هذه الدعوة التي يدعو اليها المهاجرون، بالاضافة الى عوامل ادبية خارجية، قد اثرت في تحويل الكتابة عن جمودها وتقليدها الى مراح جديدة، فعلت ببلاغتها وحسن اسلوبها وتشبعها بالمعاني الكثيرة التي اوجدتها الحركة العلمية الحديثة فاديل من الصناعة اللفظية والسجع الرنان بالمسحة (٢) العلمية والانشاء المرسل الملائن . وكان الكتاب كلما قرأوا كتب الاوروبيين شعروا بحاجة الى مادة اغزر من اللغة العربية، واساليب اطلت وفنون ابدع وجو ومجال اوسع، فكأن اللغات الاجنبية نفسها قد كانت الحافز الاعظم على اتقان العرب المحدثين للغتهم . . .

ان اللغة تشكو اليوم اجحافا وتقصيرا . لقد امسى بعض ابنائها وكانهم اعاجم ، لا يكتفون بان يطعنوها باغفالها، بل يباهون بانهم لا يتقنونها . ومرد ذلك الى ضعف الثقافة الوطنية في النفوس، والى عوامل كثيرة اخرى ليس هنا مجالها . والذي يجعلنا نعلق على الامر اهمية هو ان بعض الادباء يتنكرون للغة بشكل سافر، قائلين بتحطيم الفصحى لانها تشكل حاجزا بين الاديب والقارى . ومثل هؤلاء كمثل الطيب الذي يداوى العليل بحقنة سم ! ومتى ادركنا ان اللغة ظاهرة قومية ودعامة وطنية، ادركنا ان وجوب الاسراع في معالجتها اضحى واجبا مقدسا . ولا تجرى معالجة اللغة بتجرد واخلاص ما لم يتجرد اولو الامر من ريقه التقاليد الدينية والاجتماعية، وما لسم تتوفر فيهم الجرأة لرذل المريض والابقاء على ذى الصحة . . .

-
- (١) ولكن الكاتب، في الكتاب نفسه، يعود احيانا، لا الى القديم فحسب، ولا الى مضرب البدوى، بل الى الصحراء، الى اعماق الصحراء، الى الرثا !!!
- (٢) الافضل ان يقال : اديل من الصناعة اللفظية والسجع الرنان الى المسحة .

وعلى العموم استطيع ان اقول ان كتاب الدكتور فريحه قد فتح في ميدان الصراحة والانعتاق فتحا جديدا، وان كان بعض الاقتراحات لم يجد عند البعض الاثر المرجو، فان ما لا شك فيه ان هذه الاقتراحات وغيرها جديرة بالدرس والمناقشة على ضوء التجرد .

المؤثرات

في الادب اللبناني الحديث

(١) مبادئ الثورة وحقوق الانسان

لم يبق الشرق العربي في غفلة عن تيارات الافكار الجديدة ، بل تسربت اليه من مبادئ الثورة وحقوق الانسان خطوط انارت له سبله المظلمة وكان لها الانسر الفعال في تحريك الهمم الهامدة واثارة العواطف الراضحة تحت نير الجور . ولقد تسربت مبادئ الثورة الفرنسية الى البلاد العربية (١) عن طريق مصر اولا ، ذلك ان الحملة النابوليونية قد حملت معها بعض الافكار التحريرية آنذاك - وقد يكون ذلك عن غير قصد منها - تضمنها المنشور الذي اذاعه نابليون في المصريين (٢) اما الطريق الثانية فهي احتكاك العرب بفرنسا مباشرة - وكانت الثورة فيها ما تزال بنت يومها - ووقوفهم امام حركاتها التحررية بجلال ، واخذهم عنها الكثير مما ترجموه وشرحوه ووضعوه وعلقوا عليه .

(١) ليس هنالك نظرية ثابتة علميا حول انتقال مبادئ الثورة وحقوق الانسان الى البلاد العربية . ولكن القرائن تحمل الباحثين على الاخذ بالمبدأ الذي اشترت اليه اعلاه .
(٢) طبع نابليون وهو في طريقه الى مصر منشورا كتب بلغة سقيمة ، ليصار الى توزيعه على المصريين حال نزول الجند على الشاطئ المصري . وارى ان اثبت المنشور لما في بعض مقاطعه من دلالة على الافكار الجديدة على العالم العربي . وسأشير بخط الى الافكار التي يمكن اعتبارها جديدة .

اورد الجبرتي المنشور بالنص التالي : "بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه . من طرف الفرنساوية المبني على اساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير امير الجيوش الفرنساوية بوتابرتة يعرف اهالي مصر جميعهم ان من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بانواع الايذاء والتعدى فحضر الان ساعسة عقوبتهم واخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الابازه والجراكسة يفسدون في الاقليم الحسن الاحسن الذي لا يوجد في كرة الارض كلها . فاما رب العالمين القادر على كل شي فانه قد حكم على الفلأء دولتهم . يا ايها المصريون قد قيل لكم انني ما فزلت بهذا الطرف الا يقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا

وعلى رأس من نقلوا اخبار الثورة ومبادئها كاتب مصرى زارفرنسا ، هو
رفاعة رافع الطهطاوى . اورد هذا الكاتب في مؤلفه " تخليص الابرز الى تلخيص باريز "
اخبار الدستور وحقوق الفرنسيين وغير ذلك مما له علاقة بالثورات الفرنسية ونتائجها .
يقول (١) : " والقانون الذى يعنى عليه فرنساوية الان ويتخذونه اساسا لسياستهم هو
القانون الذى آلفه لهم ملكهم المسمى لويز الثامن عشر ولا زال متبعاً عندهم ومرضياً
لهم وفيه امور لا ينكر ذرو العقول انها من باب العدل . . . فلنذكره لك وان كان غالب
ما فيه ليس في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لتعرف كيف
قد حكمت عقولهم بان العدل والانصاف من اسباب تعمير الممالك ولراحة العباد ، وكيف
انقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم غناهم وارتاحت
قلوبهم فلا تسمع فيهم من يشكو ظلماً ابداً والعدل اساس العمران . . . " وبعد ان يذكر
اهم ما في الدستور يتكلم عن ثورة سنة ١٨٣٠ ذاكراً ان الظلم والاستبداد والضغط
كانت اسبابها (٢٠)

(١) رفاعة رافع الطهطاوى - تخليص الابرز الى تلخيص باريز - ص ٦٦

(٢) رفاعة رافع الطهطاوى - تخليص الابرز الى تلخيص باريز - ص ١٥٩

تصدقوه وقولوا للمفترين انني ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين وانني اكثر
من الممالك اعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم وقولوا ايضاً لهم
ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشئ الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل
والفضائل والعلوم فقط وبين الممالك والعقل تضارب . فماذا يميزهم عن غيرهم حتى
يستوجبوا ان يملكوا مصروحدهم ويختصوا بكل شئ احسن فيها من الجوارى الحسان
والخيل العتاق والمساكن المفرجة ٠٠٠ الخ (٠) (الجبرتي - عجائب الآثار في التراجم والاخبار -
جزء ٣ ، مجلد ٢ ، ص ٤ - ٥) وقد يكون العثمانيون ساعدوا روح الثورة من حيث لا
يدرون ، اذ نقرأ في تاريخ الامير حيدر الشهابي " لبنان في عهد الامراء الشهابيين "
ان السلطان سليم خان اصدر فرمانا يحرض فيه المسلمين على قتال الفرنسيين الذين نزلوا
في مصر . وقد ورد في فرمان هذا المقطع : " وزعموا ان . . . والناس كلهم متساويين
في الانسانية ، متساوون في البشرية ، ليس لاحد على احد فضل ولا مزية ، وكل منهم
في ذاته يدبر نفسه وامر معاشه في حياته . وعلى هذا الاعتقاد الباطل والرأى الهازل

ولم يتخلف اللبنانيون عن المساهمة في نقل اخبار الثورة فكتب الامير حيدر الشهابي في تاريخه فصلا عن الثورة الفرنسية ، واصفا الاحوال التي حدثت الشعب الى التمرد على الملك ، منتقلا بعد ذلك الى مقتل الملك ، وظهور بونابرت ، والى حملة هذا الاخير على مصر ، كما انه اثبت المنشور الذي اذاعه نابليون (١) .

شغف العرب بالثورة عندما ادركتهم اخبارها ، وشغفوا بنوع خاص بما احثت عليه مواد شرعة حقوق الانسان (٢) ومواد الدساتير من ضمانات للحريات الخاصة والعامة ومن تقديس لحق الشعب . وقد سلك الادباء في تعبيرهم عن الثورة ومبادئها ثلاثة سبل : منهم من تكلم عن الثورة نفسها بطريقة علمية باحثا في بواقيها ونتائجها والمبادئ التي صدرت عنها - شأن الطهطاوي والشهابي - ، ومنهم من تأثر بالثورة فجاشت عاطفته لما رأى في بني قومه من استهتار بالحقوق والكرامة ، فصاح فيهم محرضا على الامتثال بالفرنسيين ، ومنهم من التفت الى النواحي التي امتدت اليها مبادئ الثورة وحقوق الانسان في ميادين الشعب والانسانية والاجتماع ، فطالب بالحرية للمظلومين وبالمساواة للمغضوب عليهم ، وحارب الطغيان اينما حل .

(١) الامير حيدر الشهابي - لبنان في عهد الامراء الشهابيين - ص ٢١٤ .

(٢) اصدرت الشرعة في ٢٦ آب سنة ١٧٨٩ ، ومن مبادئها :

١ - يولد الناس احرارا ويلبثون كذلك متساوين في الحقوق . والحقوق هي : الحرية - الملكية - الامن - ومقاومة الظلم .

٢ - كل المواطنين في حكم الشرائع سواء . ولذلك يمكن لجميعهم الدخول في المناصب والوظائف على قياس كفاءتهم وذكائهم .

٣ - ان التبادل الحر فيما يخص الافكار والاراء لمن ائمن حقوقه بالانسان . بنا عليه ، كل مواطن له ان يتكلم ويكتب ويطبّع بحرية مع العلم انه مسؤول عن اساءة استعماله هذه الحرية حسب ما ينص القانون .

(رؤيف خوري - حقوق الانسان - ص ٤٩٠ - ٥١) وراجع : *Le mouvement révolutionnaire* - P.P. ٧٤-٧٦

بنوا قواعد جديدة وقوانين جديدة . (الامير حيدر - ص ١٨٨)

ويضيف المؤرخ : "وحين وصلت الغلامين ما اخذ انتبه من المسلمين لضعف العسلة وخوفا من الافرنج" . وقد يكون المقطع الذي اشرت اليه والذي اراد به السلطان طعنا اتي بعكس المطلوب . لما فيه من ذكر للمساواة وللانسانية .

وقد شدد الادباء على الصيغة العالمية للثورة ، والتي جعلت لها في البرية قدسية خاصة . فقال عمر فاخوري (١) : " ان الثورة الفرنسية لم تعلن حقوق الفرنسي وحسب ؛ حقوقه السياسية والمدنية ، بل اعلنت ايضا حقوق الانسان . وهكذا كانت الثورة ومبادئها بشير خير وصلاح للامم جميعا ، حتى ليصح القول انها ثورة انسانية عالمية بقدر ما هي ثورة فرنسية وطنية . "

ولم يقف الادباء جميعهم كما وقف الطهطاوي والشهابي وفاخوري وغيرهم ، موقفا علميا موضوعيا ، بل قامت فئة متحمسة تنقاد لعاطفتها مع الثورة وكأنها تدعو ابناء قومها الى ترسم خطاها . فما هو اديب اسحاق يرسم لنا صورة حية للثائرين المتفضين على البالي من الاوضاع والانظمة والرجال ، فيقول (٢) : " تصورتهم فرقا واوزاعا باسما تشف عن الجلود ، يتدافعون في المسالك صائحين ، يتلقون سيوف الجند بما قطعوا من الاشجار ، ويقابلون كرات البنادق بما اقتلعوا من الاحجار ، زاحفين مكشوفة رؤوسهم للسائفين ، مفتوحة صدورهم للرماة . يبتسمون للموت سامة من الحياة ، فلا ينثنون عن القصد حتى يقف آخرهم على رأس اخيه ، من ربة اشلاء ذويه ، فيرفع بيده اللوا صائحا : ليفن الظلم وينزع من صدره النصل متناديا : لتحي الحرية ! فقلت : ما لهؤلاء الناس يهترقون الدماء ويغتالون الرؤسا ، ويفسدون في الارض ؟ قالوا : لحجب الدماء ودفع الغلبة وجلب الصلاح . قلت : وكيف يسمون ما يفعلون ؟ قالوا : الثورة . قلت : هي الدواء بالتي كانت هي الدواء . "

الا ان الادباء لم يقفوا جميعا من الثورة موقف اديب اسحاق المحبذ الممل . فان بعض الذين يتسكون بما يسمونه روحانية وصفحا وحبّة ، رأوا في الثورة اموالا تتنافى ومثلهم ، ولم يروا فيها سوى هذا ، لذلك انبروا عليها طاعنين مهذمين ، آخذين عليها تقصيرا في دنيا الاخلاقيات (٣)

ولكن مبادئ الثورة لم تتعثر بالعقبات التي قامت في طريقها ، بل حلت منها جحافل حيثما حل الفساد ، فنشب بينها وبينه صراع متأجج . ولكم امسك ادباء وشعراء بالاقلام يذودون بها عن مبادئ الثورة غائلة العدو معرضين انفسهم لنقمة ذوى الشأن احيانا . ذلك ان اهل القلم لم يكتفوا بان يقفوا امام الثورة ومبادئها مادحين ، مصفقين ، شارحين ، بل تجاوزوا هذا العهد البدائي ، عهد المدح

(١) عمر فاخوري - الحقيقة اللبنانية - ص ٦٠ - ٦١ (٢) اديب اسحاق - الدرر - ص ١٧٢ - ٧٣

(٣) فيليكس فارس في : رثيف خوري - الفكر العربي الحديث - ص ١٤٦ - ١٤٧

والتصفيق والشرح ، الى الشعب والحياة والمجتمع ، ينظرون اليها من خلال المبادئ التي
لقنتهم اياها الثورة ، فيميزون بين الخير والشر ، ويهاجمون هذا الاخير بما اوتوا من قوة .
وكان من الطبيعي ان يروا من الفساد والشر الشيء الكثير ، ذلك ان
المجتمعات العربية ، وبالتالي المجتمع اللبناني ، كانت في مطلع النهضة - وبقيت حتى
عهد متأخر ، وما تزال في بعض النقاط - مجتمعات متفسخة يسوقها الجهل والظلم والخلاف .
رأى الادباء شعبا مستكيناً الى الخنوع ، واناساً نصبوا انفسهم اسبادة
له ، واقنعوه بانه ليس بالامكان افضل مما هو كائن ، وان حياته طبيعية منطقية ، فثار
اولئك الادباء وراحوا يدعون الى الانتفاض والتمرد والسعي الى حياة افضل . . .
ورأوا عثمانياً او فرنسياً يضغط على الحريات ، ويترق بين اللبناني واللبناني
على الصعيد الطائفي والصعيد الاجتماعي ، والتفتوا الى شعار الثورة فاذا به ثالث نير :
حرية - مساواة - اخاء ، فثاروا على الظالمين وسخطوا على القابليين بالظلم ، وطالبوا بان تكون
بلادهم مرتعا للحرية والكرامة ، لا يدنسها محتل ولا يعكر صفوها جور .
وهكذا انتشرت كتابات الادباء المتحررين التي بها عرضت مطالب الاحرار
من ابنا الوطن ، فكنا نرى منهم مطالباً بالانتفاض والتمرد ، مطالباً ومطالباً بالحقوق بمطالباً
بالحرية والمساواة ، وداعية من دعاة الثورة على المحتلين في سبيل حياة فاضلة شريفة .
وبهذا تكون مبادئ الثورة وحقوق الانسان قد اوجت الى الادباء بادب
طبع بخاتمها . فاذا الشعب ، وهو الذي طالما اغفل في الادب العربي قديماً ، يجد
في الادباء مدافعين ومرشدين ، واذا بهؤلاء الادباء يلتفتون الى المجتمع التفتاة خاصة ،
فينجم عن ذلك اتجاه اجتماعي انساني شعبي يحتل في ادب النهضة اللبناني مركزاً
مرموقاً . وسيتوفر لنا درس هذا الاتجاه واتجاهات غيره بعد قليل .

هنالك ميزة بارزة في نفس العربي الجاهلي ، هي هذا الشعور القوي الذي كان يخلج في فؤاده ، ويملأه عزة وفخارا ، وهو الاعتداد بالاصل والنسب (١) والعنصر العربي . فنراه يفضل لغته على سائر اللغات ، وشعره على شعر سائر الامم ، اما عنصره فهو العنصر المثالي المصطفى الذي لا يدانيه عنصر (٢) .

على ان هذا الشعور لم يكن - عادة - سوى ضرب من الهوس العاطفي ، ذلك انه لم يكن موجها نحو غاية واحدة وفي سبيل فكرة مشتركة يمدّها بحرارته ويلهب من اجلها افئدة العرب . وبكلمة اخرى ، كان هذا الشعور العربي بعيدا عن ان يكون شعورا بالقومية العربية حسب المفهوم الحديث للقومية .

وليس غريبا ان لا نرى في ذلك العصر قومية بالمعنى الصحيح . فبالاضافة الى العناصر التاريخية والطبيعية والادارية التي اصطلاح الباحثون على اعتبارها من مقومات القومية ، والتي لم تكن جميعها متوفرة في المحيط العربي الجاهلي ، كان العنصر الالم مفقودا ، اعني به ما سماه احد المؤرخين " الرغبة التي تحدد الناس الى الاجتماع والتضامن وتكوين القومية " . وانعدام هذه الرغبة متأّت عن صدوف الجاهليين عن المثل والاهداف العامة المشتركة الى الحياة اليومية التي كانت تستأثر بانتباههم ونشاطهم لان فيها كان كفاههم .

ولكي يعرف العرب شعورا قوميا منظما ، يرمي الى الجمع بينهم على اختلاف ديارهم ، يجب ان ننتظر اواخر القرن التاسع عشر (٣) . ذلك ان الحركة القومية

(١) افرد العرب لعلم النسب ابوابا عديدة . راجع كتاب "اليتيمة في النسب" ، فسي العقد الفريد ، جز ٣ ، طبعة احمد امين .

(٢) راجع اخبار وفد النعمان ابن المنذر على كسرى . العقد الفريد ، جز ٢ ، ص ٤ - ٩

(٣) صحيح ان النبي قد وحد كلمة العرب ، الا ان هؤلاء تأثروا في وحدتهم بالعامل الديني اكثر من تأثرهم بالعامل القومي . وصحيح كذلك ان العرب شهدوا في العصرين الراشدي والاموي كيانا عربيا قويا ، بيد ان هذا الكيان لم يستطع ان يجمع العرب جميعا في وطن واحد وتحت نظام واحد وفي رابطة شعورية واحدة ، بدليل العناصر الكثيرة التي كانت تدق الاسافين في النظام القائم ، ان سرا وان جهر .

التي عرفتھا البلاد العربية تأثرت بعاملين رئيسيين : تأثرت أولا بالتاريخ العربي المجيد الذي دفع العرب الى الاعتصام به واحياء حوادثه وشخصياته بطش الاتراك وتعاليلهم . ذلك ان الاتراك اضعوا في سياسة "التتريك" في مطلع القرن العشرين ، فما كان من الفئة المخلصة في البلاد العربية الا ان استشاطت غضبا ، وغلبت عليها حمية الوطنية ، ورأت ان اولئك الحاكمين المستبدين ليسوا باصفي من العرب محتدا ولا بامجد منهم اعمالا حتى يدوسوا لهم الكرامة والحقوق ، وراحت تمجد كل ما هو عربي : لغة وتاريخا وابطلا وشعورا . وقد كثر لهذه النزعة تأثير عظيم في زحزة النزعة العثمانية التي كانت مسيطرة تقريبا . الا ان الحركة القومية التي عرفها العرب تأثرت خصوصا بالحركة القومية الصاعدة في بلاد الغرب ، وخصوصا في اوروبا ، والتي بدأت معالمها تتبلور في القرن الثامن عشر (١) ، والتي تم لكثير من شروطها ان يتحقق في القرن التاسع عشر (٢) ، عصر الانتفاضات الاجتماعية والتحررية والقومية في العالم .

(١) يذهب بعض المؤرخين الى ان الشعور القومي وجد منذ وجد الشعور الوطني ، ذلك ان الشعورين يلتقيان في اكثر النقاط ، ولا يختلفان الا في ما هو تافه . يقول روني جوهانيه في كتابه مبدأ القوميات : " ان الشعور القومي غالبا ما يكون ملتصقا بالشعور الوطني بحيث يصعب التمييز بينهما . ان الاول لا يختلف عن الثاني الا بامور عابرة تتعلق بالسبب اكثر من تعلقها بالمحتوى والجوهر . " (Reni Joghannet - Le principe des nationalités - p. 15) وهكذا ترجع هذه الفئة بالقومية - بمظهرها البدائي طبعا - الى ما قبل القرن العاشر مستشهدة بحوادث واقوال تتم عن عاطفة التعلق بالوطن .

الا ان القرن الثامن عشر يعتبر بدء عهد القومية المنظمة . يقول كارلتون هايس في كتابه " التطور التاريخي للقومية الحديثة " مايلي : " في القرن الثامن عشر ظهرت فلسفة قومية بطريقة مفاجئة تقريبا . . . ففي اواسط القرن الثامن عشر المستتيرة انتشرت اولى النظريات القومية المنظمة . ومع ان هذه النظريات كانت تختلف في بعض التفاصيل ، باختلاف اصحابها ، الا انها كانت جميعا تنتشر الى جانب روح " النور " التي عرف بها العصر . " (Carlton Hayes - The historical evolution of Modern Nationalism - p. 13 & 14)

ويلحق البعض ، ومنهم الكاتبان الوارد ذكرهما اعلاه ، بالثورة الفرنسية فضلا كبيرا في اثارة الشعور القومي ، وذلك بواسطة مبادئها ، وبواسطة جيوش الثورة التي اقتحمت اوروبا حاملة معها الشعور القومي الذي كان ينزع في فرنسا اليقظة . يقول هايس : " ان

عندما نقل العرب عن الاوروبيين في فجر نهضتهم ، وقفوا على ما فسي الغرب من علوم وتقدم ، فاخذوا عنه الكثير من المواضيع والاساليب الادبية ، وترجموا الكثير من كتبه . وبواسطة اطلاع العرب على آداب الغرب وحياته ، وبواسطة العرب الذين اتصلوا باوروبا ونقلوا من اخبارها الى ابنا بلادهم ، وبواسطة المدارس الاجنبية والوطنية التي راحت تدرس برامج واسعة في التاريخ وغيره ، وقف العرب على الحركات القومية التي رافقت الغرب وتأثروا بها في قرارات نفوسهم . كان الشعور السائد عند العرب قبل يقظتهم شعورا عثمانيا شرقيا يدعو الى الجامعة العثمانية والى الاعتصام بالنزعة الشرقية ، ولكن الشعور القومي الجديد الذي خلقتة المناسبات وخلقه العلم في قلوب العرب ما لبث ان طغى على الشعور السائد . ولكنه ظهر ، اول ما ظهر ، بدائيا عاطفيا ، واستخدم كوسيلة لدفع هجمات الاتراك الذين كانوا يرمون العرب بشتى المثالب . الا ان هذا الشعور سار في طريق الانتظام والعلم شيئا فشيئا حتى اصبح لع اليوم دعائه واصبحت له مبادئ واحزابه .

وهكذا عرف الشعور القومي عند العرب ادوارا ومراحل مختلفة . فبينما كان شعورا عثمانيا شرقيا في بادئ الامر ، اصبح ، بدافع التأثيرات الكثيرة ، عربيا في اوائل القرن العشرين واشتعل الحرب العالمية الاولى ، واستمر كذلك حتى يومنا هذا . الا انه عرف ، اثناء الحرب وبعدها ، لونا جديدا الى جانب اللون العربي ، وهو اللون اللبناني . وساتناول

جيوش الجمهورية الفرنسية انتشرت ونشرت معها قومية البعاقبة ، واصبح الجنود بذلك رسلا للقومية . " (٢٠٠٠ ، ٢٠٠٠) . ويقول ايضا : " الوطن ، في قلوب البعاقبة ، كان الها ، والها لا يحتمل مزاحمة اله آخر . " (٢٠٠٠ ، ٢٠٠٠) .

ولا يخفى كذلك ما كان للثورة الاميركية من اثر في الشعور القومي لدى الشعوب . (٢) عرفت اوروبا في القرن التاسع عشر حركات قومية سارت الى جنب الحركات التحررية . وقد كان من اثر هذه الحركات ان قامت البلاد المستعبدة (بفتح الدال) تطلب حقا في الحياة الشريفة ، كما قامت في مقاطعات كثيرة حركات ترمي الى الاتحاد على اساس قومي . وما آذنت شمس القرن التاسع عشر بالافول حتى كان الاطار القومي قد وضحت اشكله تقريبا في اوروبا وخارج اوروبا . في اوروبا اتحدت الدويلات الالمانية في مملكة المانية موحدة ، واتحدت الممالك الايطالية الخاضعة والمستقلة تحت تاج فكتور عمانوئيل ، وقامت في خارج اوروبا نزعات قومية فصلت اميركا اللاتينية عن اسبانيا والبرتغال .

كلا من هذه النزعات بالتفصيل في "الاتجاه القومي الوطني".

وسأتناول في الفصل المذكور موضوعا له بالقومية اوثق الصلات الروحية ؛ اعني به موضوع التغني والحنين الذي يحتل في ادب المهجر مركزا مرموقا . الواقع ان هذه النزعة نوع من القومية ، بدليل انها تميل الى لبنان وتتغنى به وتفضله على سواء . ولكنها اقرب الى الوطنية لانها ليست في الغالب سوى مجرد حنين ينبعث من صدر المغترب الذي تحركت لواعج نفسه في ديار الغربة ، وقد ساهم فيها اصحاب النزعة العربية واصحاب النزعة اللبنانية على السواء . وسأعود في "الاتجاه القومي الوطني" الى تفصيل نواحي هذه النزعة ، وسنرى انها قد جادت على الادب اللبناني خاصة والادب العربي عامة بتراث من الادب الوجداني الخالد .

الاتجاهات

في الادب اللبناني الحديث

١٠ الحياة والادب

النشر والشعر الادب والحياة ٠٠٠ او قل ، الادب ووحيه ، الادب ومبرر وجوده .
— — — — — والحياة مديدة الافاق ، لا يحصرها تعريف ، ولا يضيق انتفلاتها المحاولات
الرامية الى حصرها في قلمم مختلفة باختلاف السحرة . وان افلحت هذه المحاولات
حيناً ، فان الحياة ، كذلك الجبار ، جبار القمم ، ما تلبث ان تخرج من قممها لتعيد
سيرتها من جديد .

لذلك نرى الادب يهيم ، منذ كان ادب ، في الحياة ، بعضه "غراً"
"لعوباً" ، لاهيا عن كل ما من شأنه الحضر على التفكير الجدى ، وبعضه لا يسا ثوب
حداده على ما يشاهد في الحياة من مستدعيات الاسى ، وبعضه مفلسف الامور معللاً ،
وبعضه حاضاً على السعي وراء حياة شديدة الحياة فضى .

اما الانسان ، ابن الحياة ، فانه لم يلق دائماً في "الاداب" الناجمة
عن الاوضاع السالف ذكرها ما يحقق آماله ، وما يعبر عن خلجاته ، او ما يرسم له صورة
صادقة في صراعه مع البؤس والظلم . ولكن لكل من هذه "الاداب" مقومات ونظريات ، فما
تلبث هذه المقومات والنظريات ان تثبت بك كلما حاولت ان تطرح "اللمانا" حول نقاط
معينة . فاذا ما اتهمت الرمزيين بالابتعاد عن الانسان انتهموك قائلين : "ويحك ! ليست
الرمزية تعبيراً عن حالة من حالات اللاوعي ؟ اوليست حالات اللاوعي حالات ملازمة
للطبيعة الانسانية ؟ اذا ليست الرمزية سوى تعبير عن الطبيعة الانسانية ! " واذا ما
اخذت على الطبيعيين لجوءهم الى الطبيعة وبعدهم عن الانسان قالوا : "وبعد ،
ليست الطبيعة ، بداجنها ووحشها ، بواضحها وغامضها ، صورة حية للانسان ؟ اننا في
وصفنا هجرة قطعت نصف اليد التي احتزت الشجرة بالفأس ، والرأس الذي حرّك اليد .
ومتى تكلمنا عن الادغال التي تعج بالزواير والجوارح عرضنا بضعف الانسان امام
الطبيعة احياناً ، وقصوره عن ولج مخبأتها . " واذا اعترضت غزلاً في نشوته فانه يتابع
كلامه مردداً : "ما الانسان ؟ ان هو الا شمعة تذيبها نيران الحب ٠٠٠ وما اعذبها
نيرانا ! " اما اذا اتفق ان سألت شاعر خمرة عن الفعنى الانساني في شعره ، ترتجح ،
وابتسم تلك الابتسامة التي لا يرتسم مثلها الا على شفاه اسرى المدام ، واجابك : "ما
العيش الا سكرة بعد سكرة ٠٠٠"

اما الشعب ، وهو مجموع اناس ، تربطهم صيرورة واحدة وامانيّ متقاربة ، فان الاداب القديمة لم تتركس له الا القليل . ولا نرى الامر غريبا متى ادركنا الاطار الارستوقراطي الاقطاعي الذي ارتسمت في دائرته مجتمعات العصور السالفة . فالسيد مقتنع بشرعية سيادته ، والعبد يألف الصغار وكأنه جزء متم لحياته . ولكن العصور المتأخرة ، عصور الثورات الانكليزية والاميركية والفرنسية والروسية ، قد اشرقت على الناس باشعاع جديد لم يألفوه قديما : اشعاع تلك الجماهير التي يقول فيها عمر فاخوري : "ونخال ان اغلبيه هذه اللئمة من الذين سموا او يسمون انفسهم الخاصة قد فتحت ابصارها على ذلك المشهد ، مشهد تقدم الجماهير حتى تسد الافق ، بشيء من الذعر وكثير من الدهشة ، ولكن لن يلبث الذعر حتى يغطي على الدهشة ."

واذا كان الادب القديم قد اتجه الى ملازمة الابواب تكسبا في غالب الاحيان ، او الى التكلم عن نفسه او عن قبيلته دون ان يرسل تلك النظرات الانسانية الشاملة ، فان مورد الاديب المعاصر ليس في الدور او القصور ، او في كنف اسياذ القبائل ، بل في المكتبات ، وروادها غالبا من ابنا الطبقت الفقيرة او الوسطى . اضاف الى العامل المادي عاملا معنويا خطيرا ، وهو شعور بعض الادباء بمسؤوليتهم تجاه شعبهم ومجتمعهم بعد تعاظمهما اثر الحوادث المختلفة التي كوّنت لهما في صلب الحياة كيانا مرموقا . لذلك نرى الادب الحديث يميل غالبا الى الشعب ، يتكلم بلسانه ، ويصور حياته . ولكن هذا الاتجاه الشعبي لم ينتصر في بعض الاماكن دون قتال دام بين القديم والجديد ، الا انه ، وان كان قد انتصر في ناحية ، ما يزال في نواح اخرى يرسف تحت ضربات المقلّدين ، فيحاول للافلات جهده ، وفي كل محاولة له وثبة الى الامام . وقبل ان اناقش تطور النظريات الادبية في العصر الحديث يجدر بي ان اثبت هذه النظرة العامة لانيس المقدسي (١) : "كان الادب القديم عموما يعيش في كنف الملوك والامراء او من يتصل بهم من ارباب الثروة والجاه . وظل الادب كذلك حتى اواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحاضر . . . اما الشعب فلم يكن ذا منزلة كبيرة عنده ، ان كان الملك او الامير محور الحياة السياسية والاجتماعية وعليه لا على الجمهور كان يتوقف رواج البضائع الادبية . فهو يصدق العطايا على الشاعر او الكاتب ، وله كانت تصنف الكتب وتنظم القصائد . . . فالشعب اليوم قوة لا يستهان بها ، وهو عند التحقيق

معتمد الادب الاكبر ومصدر نشاطه الاغزر . ومما يكن نفوذ ذوى السلطة فيه فان الجمهور هو الذى يغذيه .

ولا بد لي من العودة قليلا الى الوراء ، الى اواخر القرن التاسع عشر ، حيث نجد ان النزعة السائدة كانت نزعة واقعية ، تطورت وتطورت حتى اصبحت نزعة شعبية . بعد انتشار الآلة وتطور الصناعة واحتكاك الناس بالمادة ، نشأت في النفوس موجة جرفت اصحابها الى آراء جديدة في الفن والادب ، فبينما كان الادب رومنطيقيا مع لامرتين وهوغو ودوفينيي ، رأينا التيار الجديد يميل نحو الملموس ، نحو الواقعية . لذلك راح الكتاب يصورون محيطهم كما يرونه ، ولكنهم كانوا غالبا آلات تسيّرها " حتمية الموضوع والواقع . يقول اميل زولا احد ممثلي هذه النزعة الجديدة (١) : " ان الروائي مكّن من ملاحظ ومجرب . فالملاحظ يعرض الحقائق كما خبرها ، ويضع نقطة الانطلاق ، ويمهد الميدان الذى عليه يسير ابطال الرواية وتتطور حوادثها . ثم يظهر المجرب فيبدأ بتجربته ، اعني انه يحرك ابطاله في قصة خاصة يدل فيها على ان النتائج في الاحداث سيكون بالطريقة التي تتطلبها حتمية العناصر الموضوعة تحت الدرس .

وقد امعن البعض في الواقعية حتى غرقوا في نزعة خلاعية هي ، والحق يقال ، واقعية ، ولكن لا يليق بالادب ان يتلمى بها معرضا عن مشاكل الحياة العميقة . وهكذا ثارت الضجة حول كتاب فلوير " مدام بوفارى " واحيل المؤلف الى المحاكمة . ومع ان المحكمة قد برأت ساحة الكاتب ، الا انها وجهت اليه لوما قاسيا تقول فيه (٢) : " ان مهمة الادب هي ان يزين العقل ويخلقه خلقا جديدا برفع دعائم الذكاء ويتطهير العادات ، لا في عرض " قرف " الاثم بعرض لوحة للمفاسد الاجتماعية . . . ان اتباع مثل هذا النمط الاخير يقود الى واقعية هي ضد الجميل والحسن . . .

ولئن كان البعض كالوارد ذكرهم لا يهمهم الا التصوير الموضوعي دون ان يحرك تصويرهم شعور موجه ، فان بعض الادباء ممن اخذوا بعبداً الواقعية رسموا للواقع صورة صادقة ، وضمنوها آلام الشعب الراح تحت عبء الظلم . فلا يربك فصل لهؤلاء الكتاب الا وترى فيه صورة لعبد ذليل ، او صورة لسلول لا يجد من يعنى به ، وصورة لبغّي اتخذت البغلة مورداً للارتزاق بعد ما ضاقت بها وبذويها آفاق الدنيا .

(١) Malt et Jnae . Histoire Contemporaine - P. 430-31

(٢) Malt et Jnae . P. 433

ولكن اولئك الادباء لا يكتفون بالتصوير، بل طالما رأيناهم يسكبون الاماني على افواه ابطالهم، فنشعر بما في الشعب من بساطة، وبما فيه من طموح نحو الخير. ولكم انتصب الكتاب واعظين، مهاجمين الشر (١).

وما لبثت النزعة الواقعية ان تشعبت في طريقين: طريق اردت بالواقعية الجامدة نزعة انسانية حية، فاتجهت نحو الشعب، وطريق امعن الادباء فيها فاصبحوا وكتاباتهم خلاعة سافرة، وافكارهم احتقار للانسان، وفظرياتهم لا تؤدي الى تحسين الاحوال بل لتزيد الفساد فسادا. ومن هنا تفردت نظرية الفن للفن: فالخلاعة اصبحت فنا، والبرج العاجي اصبحت فنا، والرمزية اصبحت فنا.

انظر الى هذه النظرية التي بشر بها الاخوان سراييون في روسيا مدة (١٠ يقولون ٢): "لسنا نرتضي الاخذ بمبدأ النفع. لسنا نكتب دعاية. الفن حقيقي كالحياء نفسها. وكللحياة لا غاية للفن ولا مغزى. يوجد الفن لانه لا بد له من الوجود. فهل ينتظر من هذه النظرية ان تثمر خيرا وجميلا؟ ان من آخى بان الحياة سائرة على غير هدى، لا مغزى لها ولا غاية، جدير بان يأتي في ادبه، وهو بالتالي بلا غاية ولا مغزى، بالشنيع من الافكار والخسيس من المآرب.

ولما تفشت هذه النظريات عندنا قام في الادباء جماعة من الذين فتحوا اعينهم على الحياة الحقيقية، الحياة التي لها مغزى، والتي لها غاية، مغزى وغاية يسيّرانها نحو الكمال المنشود والسعادة المنشودة، نحو الجميل والخير في كل شي: في البيت الذي نسكنه، والكلام الذي نتفوه به، والطبيعة التي نعيش فيها، والحب الذي تعلق به آمالنا، والعلاقات التي تربطنا بقوم تعانقت قسمتنا وقسمتهم. ولم يمس اولئك الادباء المبصرين الا ان يدركوا سحق الهوة التي نسقط فيها اذا اخذتنا يوما البدع المشار اليها، فهبوا يكيلون لاصحابها مفحم الحجج. يقول عمر فاخوري (٣): "لا نجد مندوحة عن التذكير بان اشد الادباء والمفكرين تشييعا لمذهب العزلة او

لنظرية "الفن للفن" واعلاهم صوتا في الجهر بها والدعوة اليها، كانوا يعلنون على رؤوس الاشهاد انهم لا ينظمون ولا ينثرون ولا يصورون ولا يلحنون من اجل هذا الجمهور المسكين الذي كتب عليه ان يعاشهم ويعاصرهم، دون ان يقدر له ان يفهمهم او يعجب

(١) تولستوى مثلا في كتابه "البعث"، ودوستوفسكي، وغيرهما...

(٢) جدانوف - ان الادب كان مسؤولا - ص ٤٧

(٣) عمر فاخوري - لا هودة - ص ٢٧٠

بروائعهم . ثم لا يلبثون حتى يعلقوا الامال العريضة على الاجيال الاتية . فهم اذن يستبدلون جمهوراً بجمهور ، او قرا' سيأتون بقرا' ذاهيين ، وكأنها حوالة يسحبونها على المستقبل . واذن ، لا غنى للفرد ، مهما تفرد ، عن المجتمع باية حال . وقد ورد في مقدمة الكتاب "درب الى القمة" الذى وضعته رابطة الكتاب السوريين " ما يلي ، وهو ما ارادته الرابطة دستوراً لها في ادبها (١) : ان هدفنا هو ان نعمل للشعب لاننا منه ، ولان الفن الصحيح هو الفن الذى ينبع من حياة المجموعة . ان الاثار العظيمة الباقية هي الاثار التي غيرت وجهة الحياة فاغنتها والبستها اشياء صالحة جديدة . لم يعد هناك - كما يقول بعضهم - من "فن للفن" ، ولا من زهر للزهر ، ان الفن هو للناس ، كما ان الزهر هي للعيون التي تراه والانوف التي تشمه ، والزهرة لا تكون جميلة الا اذا استطاعت ان تؤدى لي شيئاً يتصل بذاتي وخدمة تحسن حياتي . نحن — القائلين بان الفن هو تعبير جميل عن الحياة ، ولكن التعبير لا يكون جميلاً اذا لم يعبر عن الحياة الحق ، حياة المجموعة . وغير هذا كثير .

ويعبر ايليا ابو ماضي عن علاقة الاديب بالقرا' ، بالمجتمع ، بالشعب ، وذلك بكلام جميل زينه بالصور التي تضمنها . وقد صدر بهذا الكلام ديوانه "الجداول" جامعاً منه سنته في النظر الى الادب . يقول (٢) :

يا رفيقي . . . انا لولا انت ما وقعت لحنا
كنت في سرى لما كنت وحدي اتغنى
هذه اصدا' روحي فلتكن روحك اذنا
ان تجد حسنا فخذ . وأطرح ما ليس حسنا
ربما كنت غنياً غير اني بك اغنى
ما لصوت اغلقت من دونه الاسماع معنى

فهو يؤمن اذا بان لا ادب بلا قرا' يصفون الى اصدا' نفس الاديب ، وبان الاديب ، حينما يكتب ، انما يكتب ليقرا' ، يكتب وفي قلبه من صور القرا' حافز له . ثم ينتقل الى نظرية "النفع" ، فيعلن ايمانه بان النفع امر واقع في الحياة ، وبان حكم

(١) رابطة الكتاب السوريين - درب الى القمة - ص ٦ - ٧

(٢) ايليا ابو ماضي - الجداول - ص ٤

الانسان على الشيء انما يكون من خلال شعوره بنفعه او عدمه . . . يقول (١) :

كل نجم لا اهتدا به لا ابالي لاح او غرا

كل نهر لا ارتوا به لا ابالي سال او نضبا

ان صدقا لا احسبه هوشي يشبه الكذبا

فما اصدق هذه النظرية تطبق على الادب !

اما الرمزيون اولئك الذين يتسترون وراء الغموض ، فانهم تعرضوا لهجمات الكثيرين . لقد غابوا في نشوة الكلمة ، في نشوة الرنة ، واغفلوا المعنى ، ومثلهم في ذلك كمثل تلك الحية التي ترقص على انغام ناي الساحر : انها تعيل هائلة بمنظرها البشع ، وما ان تخرس الانغام حتى تعود الحية حية ، فيسرع الساحر الى دفع رأسها تحت غطاء سلته ، هكذا هؤلاء : انهم يتمايلون مع نغم في كلمهم ، ولكنهم ما يلبثون ، عند زوال السحر ، ان يرجعوا الى حقيقتهم العارية ، حقيقتهم الفارغة الا من الكلام . يقول الياس ابو شبكة في اولئك الشعراء والادباء (٢) : ونحن لا ندرى اى مبرر لهذا الغموض في شعرنا ، ولا يسعنا الا ان نأسف لتلك الغارة الاجنبية على صعيدنا الادبي وتلك السيطرة على خيال الجيل الجديد . وما لا اشك فيه ان اعجاب المتهوسين ببعض شعرائنا المستصدرين يعكر على الناشئة سلامة تفكيرها ، ويمنعها من الوصول بقدم رشيقة نشيطة الى الله السنن والوضوح . . . وليس الغموض لازما للايجاز كما يخیل الى بعضهم . فالكاتب البليغ يلزم الايجاز في التعبير والوضوح في المعنى معا ، وقد يرمز من غير ان يبههم . . . ويوسفنا ان نرى بعض الشعراء ممن يدعون السير على غرار ملارمه وفرلين وقاليري يطلقون خيالهم في دياميس لا يرون فيها شيئا ويتشبثون في التعبير عما لا يرون ولا يفهمون ، ويحاولون اقناعنا بانهم انما يعبرون عن شيء يحسونه في اقصى نفوسهم ولا يستطيع ابرازه واضحا صافيا . فالذى يحسونه في اقصى نفوسهم شيء كامن في نفوسهم ، ولكنهم لم يؤثروا قوة الغوص الى الحماق هذه النفوس ليروا هذه الشيء . . . وقد يسمعون اصواتا صادرة عن اعماق كيانههم ولكنهم لا يفهمونها . وليس هذا دليلا على ان هذه الاصوات لا يستوى لها معنى ، فجوهر النفس صاف ولغة النفس واضحة ، غير ان ما

(١) ايليا ابو ماضي - الجداول - ص ١٥

(٢) الياس ابو شبكة - روابط الفكر والروح بين الشرق والغرب - ص ١٣٨ - ١٤١

يحيط بهذه اللغة من الطفيليات الناشئة عن ضعف ما في الجهاز البشرى يخرجها خليطا من التشويش والابهام^١.

واذا كان الرمزيون يقولون انهم لا يضحون بالمعنى على حساب اللفظ، ويدعون بان كلامهم ليس خلوا من المعنى، فان ثمة فئة من "الكلاميين" آمنت بادب اللفظة الى درجة اصبحت فيها لا تختلف عن ادب الانحطاط الا بتأخر عهدا! كلام مرصوف تجهد الفكر لفهم المراد منه، واذا لاحت لك بارقة امل هنيئة، فان هذه البارقة ما تلبث ان تضحل لتتركك في جهلك وتساؤلك، واذا انت بين كلام لا يعدو كونه كلاما فحسب!

اذا هنالك ادبان من جهة ادب واع يسعى وراء الحياة، ومن جهة اخرى ادب قائم ينزوى في زنزانة لا هوا فيها ولا نور، فتفوح العفونة كلما حاول في الناس نطقا. ويقابل الشاعر المهجري نعمة الحاج بين هذين الادبين بقوله (١):

يا شاعر اللفظ هذا الثوب موضته	من خمسمائة بعد الالف قد درجت
هذي البضاعة امست غير صالحة	في عصرنا فهي من طول المدى فسدت
لا تقض عمرك خلف الباب منزويا	اخرج الى النوران الشمس قد طلعت
فسائل النفس ما اذا نافعا علمت	والكف ما اذا جميلا للورى علمت؟

بعد ما هاجم الكثيرون مقاييس "الفن للفن"، وقرروا ان الادب لا يمكن ان يعيش على هامش الحياة، نراهم يحددون موقف الادب من الشعب، ولكنهم، قبل تحديد هذا الموقف، آمنوا بحقيقة ثانية بوهي ان للادب وظيفة فعالة. يقول نعمة قازان في هذا الصدد (٢): "فالادب اذا، ادبي، كل زرع مشرق في هذا الحقل، وكل نور ولو ضئيلا، يضيء في هذا الطريق. والاديب، ادبي، كل من يدلني على الطريق ويسير امامي". ويحدثنا عمر فاخوري عن وظيفة الادب فيقول (٣): "للو نحن طالبنا الاديب بان ينزل الى "السوق" حيننا بعد حين، في غير حاجاته المعاشية، فقد طالبناه اذا بان ينظر ويعرف ويعقل ويشعر ويبتذل ويتحمس، فتدخل — ويا للمصيبة — هذه العناصر جميعا في مادة ادبه وليس بعد ذلك — ويا للفضيحة — الا ان نلزمه القيام بعمل اجتماعي، يتنمى هو يؤثر الاعتزال في برجه العاجي، في تفرد حصين: لا اذن تسمع، ولا عيني تدمع".

(١) نعمة الحاج — ديوان — ص ٤٧

(٢) نعمة قازان — نعلقة الارز — ص ١٢ (٣) عمر فاخوري — اديب في السوق — ص ٥٥

"رسالة الاديب ! لقد الانبيا" وحدهم فيما غير من القرون ذوى رسالة . فاذا كل من عليها اليوم وله رسالة : الطبيب والمعلم والصحافي والمحامي ، ويتبعهم الاديب . حلّة مبهرجة لستر الفاقة . . . حبذا لو ان هؤلاء الرسل يقلون من التبجح برسالاتهم اقل كثيرا ، ويكثرون من اداء وظائفهم اكثر قليلا . . ."

ولكن على ماذا تقوم وظيفة الاديب ؟ انها تقوم في الدرجة الاولى ، على ان يساهم الاديب او الشاعر في حياة قومه ، يتألم لآلمهم ويفرح لفرحهم ، ويرفع صوته بالنيابة عن اصواتهم . فالمجتمع العربي كان منذ مطلع النهضة ، وقبل النهضة بكثير ، وما يزال ، في حالة من الفوضى السياسية والاقتصادية والادبية ، وهذا المجتمع ، بالتالي ، بحاجة ماسة الى اقلام متمتعة بالعافية تصلم ما فسد وتسير بالشعب مع الشعب ، الى المقصد الشريف . اما اذا اخذ البعض على هذا الادب تدخله في السياسة ، فانه يجيب بان الاديب انسان يعيش في وطن ومجتمع ، لذلك وجب عليه ان يساهم - كما يساهم غيره - في سياسة بيئته . وهل اشرف للاديب من التدخل في بعض "السياسات" ، كالوطنية والانسانية ومكافحة الاوبئة الاجتماعية ؟ يجيب القروي عابئي الادب السياسي بقوله (١) : " ولقد يقول الناقدون : ما شأن السياسة في الشعر ؟ ان الشعر لارفع من هذه الاباطيل . انه تنكّب عن افراض الدنيا واعراض عن سفاسف الحياة وتلّؤس للمثل الاعلى . ثم يقولون من خاحية اخرى : ان الشعر الحقيقي ما مثل الحياة اكمل تمثيل ، والشاعر العظيم هو صورة محيطه الناطقة . هو دليل امته الذي يتقدمها كعمود النور في ليالي محنتها ، رافعا لواء الحق . هو بشيرها في الشدة ينعشها بالرجاء ، ونذيرها في الرخاء يقيها مزلق البطر . فنقول لحضرة الناقدين : انا اذا واياكم لجد متفقين ، ولا خلاف بيننا الا ان ما نسميه نحن وطنية اخطأتم انتم فدعوتموه سياسة . اننا جاهرنا بالحرية ولادينا بالاستقلال وطالبنا بالحق ونشدنا العدل . والحرية والعدل ليست من اباطيل الحياة كذا تزعمون ولكها من اشرف مبادئها وانبل غاياتها ."

وساحاول الان ان استجلي نظرات الادباء والشعراء اللبنانيين الى الشعب ، بعد ما قرر الكثيرون "النزول الى السوق" ، او ، علي الاقل ، السير مع الشعب شطحة من طريقه .

ان اول ما يطالعنا في درس الادب اللبناني ، هو تلك النقمة على الشعب الذي رضي بالهوان ثلث السنين دون ان يكسر النير . ولكن هذه النقمة نقمة

محبة لانها لا ترمي الا الى الاصلاح ، ذلك ان اصحابها من الادباء مؤمنون بما يكمن في الشعب من قوة قادرة على تحطيم الفساد والشر ، ولكنهم يرون ان الشعب مقصر في تقدير قوته . وهذا لا يمنع اصحاب هذه النعمة من ان يكونوا مخطئين احيانا في طرحهم الاخطاء "كلها" على اكتاف الشعب .

افتتح السلسلة بالقوى . ان هذا الشاعر يطلق ضحكة ساخرة ملؤها المرارة ان يرى ابنا وطنه ينامون على الضيم . فهو لا يدع فرصة مناسبة تفوته دون ان يغمز من قناة مواطنيه . ففي وصف سمكة يقول (١) :

لم تؤذ الا جنسها فكانها
سورية رضعت حليب تفرق
وفتي كلامه عن وقوفه بباب الله يقول معرضا بجنوح اهل بلاده عن

(الادب ٢) :

وقفت بذلة فيه كأنسي ابيع بباب سوري كتابا !
ولكن السخرية ما تلبث ان تنقلب نقمة جامحة فيقول (٢) :
امدون التاريخ مرحمة ولا تذكر لهم لبنتان في صفحاته
لا تمح رسم المجد من تاريخك يكفيه عيب بنيه في آياته
لا تخبر الاحفاد ان جدودهم لم يشهروا سيفا بوجه عداته !
وغير هذا كثير في "القرويات" وغيره (٤) .

ومثل القروي امين ناصر الدين الذي ينقم على الشعب الذي استكان للمستعمرين حتى جاع ومات (٥) :

فيا لك ارضا انبتت كل خانع
ويا لك شعبا ما احاط بوصفه
ويا لك شعبا جوعته عصابة
ومثل هذين مسعود سماحه الذي يقول ناعيا على امته خنوعها (٦) :

بلد يموت وامة تتألم
والدهر بينهما اصم ابكم

(١) القروي - القرويات - ص ٥٠ - ٣٥

(٢) القروي - القرويات - ص ١١٢ - ٥٠

(٣) القروي - الاغصير - ص ٥١ - ٥٠

(٤) راجع : القرويات - ص ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٣ - ٥٠٠

(٥) امين ناصر الدين - الالهام - ص ١٠٦ - ٦٤ (٦) مسعود سماحه - ديوان - ٢٠

حلت بسوريا الخطوب عظيمة واجتاح لبنان القضاء المبرم
 مشيت القرون وكل شعب قد مشى معها وقومك واقفون ونسوم
 اتخذوا الشقاق دليلهم فتفرقوا والجهل كان عميدهم فتقسموا
 يا ويح ارض تحت ظل لوائها عيسيتها يشقى ويشقى المسلم
 اما مطران فانه يعلم حق العلم ان الظلم ظلم لان كل قوم خالقو
 نيرونهم . فالشعب الدليل يعلم الظالم الظلم . انه يفتتح قصيدته في نيرون بقوله (١)
 ذلك الشعب الذي آتاه نصرا هو بالسبة من نيرون احرى
 ويختتمها بقوله :

كل قوم خالقو نيرونهم قيصر قيل له ام قيل كسرى
 ويردد الفكرة نفسها في قصيدته "مقتل بزرجمهر" حيث يقول (٢) :
 هم حكموه فاستبد تحكما وهم ارادوا ان يصلوا فصلا
 واذا رأيت الموج يسفل بعضه الفيت تاليه طفى وتعالى

هذه هي النعمة العامة التي تطرق اسماعنا في ادبنا اللبناني الشعبي .
 ولهذه النعمة من جهة، مبرراتها ، لانها تنطلق من قلوب اضناها اليأس فوقفت تنتظر
 الفرج فلا تراه ، فاذا بها تنقض على لمن اعتبرته مسؤولا عن التقصير : الشعب . ولكن
 ثمة ادبا غير هذا ، ادبا آمن بصلاح الشعب وقوته ، آمن بان الشعب دائما في عالم
 الطليعة . وهذا الادب ظهر بنوع خاص في زمن قريب ، واكثره منتشر في الصحف .
 واذا كان لي من كلمة اضيفها الى الموضوع ، فلهي ان الاديب ، سواء نغم على الشعب
 ام لم ينغم ، قد بدأ يحس بمسؤوليته كمواطن وانسان ، ولولا ذلك لما اتجه الى الشعب
 بمدحه تارة وينحي عليه باللائمة طورا . ولكن هنالك فئة ما تزال تتخذ من النسيب
 والبكا وسيلة لاطهار الاسى بدلا من التسليح بالقوة والارادة والتوجيه . ولا يخفى ان
 هذه الفئة قد افلست ، لان الامة الساعية الى النهوض تتطلب عكس ما يعرضه ادب البكا
 عليها من بضائع . وقد عبر الريحاني عن رأى الشعب بالادب الباكي بقوله (٣) : "وفحن

(١) خليل مطران - ص .

(٢) خليل مطران - جز' ١ - ص . ١٢٠ - ١٢٣

(٣) امين الريحاني - انتم الشعراء - ص . ٨٠ - ٨١

نتحاور ونتجادل في الادب الباكي والادب النائر وايهما انفع لنا . والله لو كان حالنا حال غيرنا من الامم المستضعفة لما اختلف في المشكلة اثنان . وهل في مثل حالنا يجوز البحث في ما اذا كان الشعر المبكي والاغاني المحزنة اعظم فنيا من تلك التي تحرك في النفس الخفة والطرب ؟ وهلا يكفي ان اقول لكم ان النخاس يحب في عبيده الشعور الرقيق والاحساس اللطيف ؟

اما وقد طاف الادب في الميدان فانه قد لمح الشعب كتلة قوية لا يمكن اهمالها . ولكنه لمح غير هذه الكتلة ككتلة : لمح المجتمع بكل ما فيه من عورات تستدعي الاصلاح ، ولمح الانسان يتخبط في دنياه بين الخير والشر ، بين السعادة والشقاء ، بين الامل والضائع والامل المنشود . وعند ذاك خاض الغمار على نطاق اوسع فخلف لنا اتجاهين ، اجتماعياً وانسانياً ، هما من ابرز اتجاهات الادب اللبناني الحديث . وساعد اليهما في الفصلين التاليين .

المسرح
قوام المسرح الشعب . من تشجيعه يستمد النشاط ، ومن يده وقلبه يستمد الحياة . فلا عجب اذا اتجه المسرح ، فطرياً ، الى ما يرضي الناس ويجعلهم يدأبون على الاتصال به . وهل يرضي الناس ويستميلهم الا ما هو متصل بكيانهم اشد الاتصال ، الا ما هو معبر عن نزعاتهم واهوائهم ، الا ما فيه دواء للمعضلات الاجتماعية والاخلاقية والسياسية التي يتخلطون فيها ؟ ان المرء يترنم عندما يشاهد في المسرحية مشهداً يمثل مظهراً من مظاهر الحياة التي تحيط به ! وهو يشعر بالخيبة امام فصل مصطنع متكلف لا يمثل الحياة في شيء . انه يحب ان يرى امامه نماذج من حياته ومن حياة جدوده ، ومن حياة جيرانه ، وهو كذلك يحب ان يرى صوراً من الحياة التي يحلم بها ، الحياة الفاضلة الشريفة السعيدة .

واذا كان المسرح في بلاد الغرب قد قام بدور فعال في تثقيف الناس بتمجيد الحسن وتقويم المعوج وطعن الخبيث ، فان المسرح العربي هذا حذوه لانه منه نهل اول نهلة ، وعلى هديه شق طريقه ، فرأى الشعب فيه صورة له ولمجتمعه . والروايات التمثيلية التي عرفها المسرح العربي مستقاة من التاريخ العربي والتاريخ العام ، وهي كذلك تمثل المظاهر الاخلاقية والاجتماعية بصورة انتقادية تحمل الناس على التفكير بتصرفاتهم والحكم عليها في قرارة نفوسهم . كما انها تمثل الشهامة والبطولة وكل ما في

النفس الانسانية من صفات سامية . فلا بدع اذا اذا الحقت هذا الفصل الصفيير
بالاتجاه الشعبي ، فهو ابعد ما يكون عن الانزوا والتعالي ، واقرب ما يكون الى
الاتصال بالناس ، باكبر عدد ممكن من الناس ، بالشعب .

يقول انيس القديسي (١) : "وما يقلل عن الرواية يقال عن المسرحية . فهي
ايضا من ثمار هذه النهضة لم يعرفها ادبنا القديم . وبذلك يصح احد المعروفين بهذا
الفن ان يقول : ان هذا الفن دخل الينا فيما دخل من الوان الثقافة الغربية حينما
اخذت بصائرنا تتفتح على اورورا تنتحل من فنونها وادبها بحكم ذلك الاتصال الاجتماعي
والثقافي الذي ازداد توثقا منذ اوائل القرن الماضي ."

هذه حقيقة راهنة . فالادب العربي القديم لم يعرف المسرحية (٢) ، لاسباب
ليس هنا لذكرها مجال . ولولا الاحتكاك العربي الغربي لما تيسر لنا ان نعرف هذا
الفن معرفة صادقة . ويبدو ان لبنان سباق دائما الى اقتباس الخير من محصول الغرب
الادبي ، فقد سارع الى المسرح يرشف منه روايات واساليب وطرقا ، واول لبناني ادخل هذا
الفن الى البلاد هو مارون النقاش المولود سنة ١٨١٢ والمتوفى سنة ١٨٥٥ (٣) . وقد
ساعد النقاش على انشاء المسرح العربي انه كان ، بحكم اعماله التجارية ، يضطر الى التجوال
في اورورا ، فشاهد روائع التمثيل فيها وعلق في نفسه منها ذكريات حلوة ، حتى اذا
عاد الى لبنان راح يسعى ، في حلقة من اصدقائه ، الى بث الروح المسرحية والفن
المسرحي ، فوفق بعد جهد الى ان يمثل رواية اقتبسها عن "البخيل" لموليير ، وذلك في
منزله سنة ١٨٤٨ ، وحضرها قناصل الدول والاعيان . وما لبث ان انشأ مسرحا بجانب
بيته .

يظهر لنا مما سبق ان اول رواية تمثيلية عرفها الادب العربي هي رواية
"البخيل" التي نقلها النقاش ببعض التصرف . اما اول روائية شعرية موضوعة بالعربية فكانت
"المروءة والوفاء" للشيوخ خليل اليازجي (٤) ، وفيها يقول زيدان (٥) : "وقد شهدنا تمثيلها

(١) انيس المقدسي - جز ٢ - ص ١٦٣ (٢) راجع زيدان - جز ٣ - ص ١٢١

(٣) لمراجعة حياة النقاش : زيدان - ص ١٣٠ - ١٣١ ، وحنّا فاخوري - ص ٩٢٠

(٤) زيدان - ص ١٣٣ (٥) المصدر نفسه .

فسي بيروت سنة ١٨٧٨ ، وتمثيلها خطوة مهمة في التمثيل العربي . ويصفها المقدسي بقوله (١) : " هي رواية عربية الروح تدور على حادثة جاهلية حدثت لدى النعمان ملك الحيرة ، وذلك في يوم من ايام بؤسه . وهي تمثل قباحة الظلم وجمال الفضائل البدوية من مروءة ووفاء واكرام للضيف وحب شريف . "

وكان من الطبيعي ان يعيش المسرح العربي على موائد الغرب مدة . فقام الادباء بترجمون من روايات الغرب ، وكثيرا ما اخذوا عن الروايات الغربية مواضيعها بخطوطها الرئيسية ، ثم حوروها او طوروها حسب ما تقتضيه الاوضاع المحلية . ومن اشهر من عرب الروايات : اديب اسحاق معرب اندروماك ، والشيخ نجيب الحداد معرب "صالح الدين" و "غرام وانتقام" و "شهداء الغرام" و "الفرسان الثلاثة" (٢) ، والياس فياض معرب "ماري تيدور" و "عواطف البنين" و "بين نارين" و "تبكيك الضمير" و "بائعة الخبز" و "مضحك الملك" و "نابليون" و "ليلة العرس" (٣) ، وشبلي فلاط معرب "شرف العائلة" و "الفرد الكبير ملك انكلترا" و "جاندرك" و "هرناني" (٤) ، وغيرهم

ولما انس الكتاب الى فنهم بعد ما اشبعوا مسرح الغرب درسا ونقلوا وترجمة ، راحوا يولفون الروايات الشعرية والنثرية فكان منها للادباء المذكورين وللنقاش وغيرهم الشيء الكثير . بيد ان هذه المسرحيات ضرت في التاريخ اكثر ما ضرت (٥) ،

(١) المقدسي - جز ٢ - ص ١٢٥ .

(٢) انيس نصولي - ص ١٣٥ . ويضيف عادل الغضبان قائمة اخرى باسماء روايات الحداد .

راجع : عادل الغضبان - الشيخ نجيب الحداد - ص ٢٩٠ (الهامش)

(٣) الياس فياض - ديوان

(٤) تامر وشبلي ملاط - ديوان - ص ١٠٠ .

(٥) اليك عناوين بعض الروايات ، ومنها تستنتج مصدرها التاريخي :

نارات العرب ، عمرو ابن عدى (للحداد) - ابو الحسن المغفل ، هارون الرشيد (للنقاش) -

شعلة من الصحراء (لفريد مدور) - وهناك كتاب "صحون ملونة" لرثيف خوري ، وهو عبارة عن اخبار من التاريخ العربي وضعت في قالب تمثيلي .

ولا يخفى ما للون التاريخي من اثر في اثاره هم الجماهير ، خصوصا ما كان منه ممثلا للبطولة العربية . بيد ان الانصراف الى التاريخ لا يؤمن رغبات الشعب كاملة ، ذلك ان في حياته مواضيع قيمة للمسرح تأتي بمفعول سحرى لو استغلها الادباء .

باستثناء عدد منها توجه الى تصوير الحياة الاجتماعية الشعبية (١) .

وقد اثار اهتمام الادباء والناس بالمسرح حركة تمثيلية مباركة في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . فاقبل الناس على الروايات اقبالا عجيبا ، حتى ان احداها درت خلال ثلاث ليال ثلاثمائة ليلة ذهبيا (٢) . ويقول الدكتور شاكر الخوري في وصف حفلات التمثيل يومذاك (٣) : " ولما مثلت (رواية الوردتين للمعلم عبد الله البستاني) كانت من الحاضرين ، وكان الشعراء يقرظونها عقب كل فصل ، وكثر المقرظون حتى لم يبق وقت لاستماع الرواية . ويصف الدكتور نقولا فياض حالة التمثيل قائلا (٤) : " اما الروايات التمثيلية فقد كان اشهرها ما مثل في مدرسة زاكي كوهين في الاشرفية . وقد كنت احضرها خلسة واحمد من يحمل بيده دعوة رسمية . وكانت العادة بعد كل الفصل الثاني او الثالث ان يقوم المقرظون من الحضور بين ناثر وناظم ، واشهر هؤلاء المقرظين سليم جدى . كان يحضر الروايات اوقات تلقينها للطلبة الممثلين ، فيأتي تقرظه على واقعة الحال مع ذكر الاسماء والادوار . وشعره من السهل الممتنع ، فيصيب استحسانا واعجابا ، حتى اذا انصرف القوم كان الحديث عن التقرظ والمقرظ اكثر مما هو عن الرواية ومؤلفها . كما شكوا لي ذلك فيما بعد سليم زاكي كوهين نفسه مؤلف تلك الروايات . ولا بأس في ايراد نماذج من تقرظ سليم جدى . يقول في رواية يوسف لعبد الله البستاني (٥) :

رواية هذرا قد لعبت بنا	لعب الشمول كما يقال واعظم
قد حاك بردتها اديب بارع	يسدى القريض من البديع ويلحم
لله در مشخصيها انهم	نظموا الوقائع كالعرضوا حكموا
وغدا لسان الحال فيها منشدا	بمقام يوسف كل حسن ينظم

وقال في رواية "المقامر" لسليم زاكي كوهين :

(١) من هذه الروايات ، "كذبه يا ابي" لغريد مدور ، وهي تمثل الظلم ايام الاتراك ، و"ثورة بيدبا" لرثيف خورى ، وهي تمثل انتفاض الفيلسوف بيدبا برفقة الشعب على الملك الطاغية . وشعر ادباء الزجل ان الشعب يميل الى المسرح ، فكتبوا مسرحيات كثيرة اشهرها رواية "محسن الهزان" لرشيد نخله . وغيرها كثير . (راجع : منير وهيبه : الزجل) .

(٢) الدكتور فياض - ذكريات ادبية - ص ٦٣ (٣) الدكتور شاكر الخوري - ص ٩٢٠

(٤) الدكتور نقولا فياض - ذكريات ادبية - ص ٤٨ (٥) سليم جدى - ديوان - ص ٢٩٠

هذه (١) الرواية قد حوت بقصولها

حكما تروق بعين كل فهم

لو كان يفهمها المقامر لاهتدى

عن غيه المكروه والمذموم

وإذا انجلت مثل العروس بوشيا

حكم الجميع بحسن ذوق سليم (٢)

بيد ان حركة المسرح في ركود اليوم . وغريب ان يكبو المسرح الذي نهض تلك النهضة في القرن الماضي . بدلا من ان يندفع الى امام بقوة متزايدة وعزم متجدد . ولكن الامر لا يبدو غريبا اذا وقفنا على الاحوال التي اعترضت سير المسرح .
اولا الموضوع . ذكرت ان المواضيع المطروقة كانت تاريخية واجتماعية و مترجمة . الا ان التاريخي والمترجم منها كان اكثر من الاجتماعي بكثير . وقد سر الناس بالروايات في اول عهدهم بالمسرح ، الا انهم اخذوا يشعرون بانهم يتوجهون الى المسرح ليشاهدوا صفات انسانية عامة واحوالا اجتماعية هم فيها ، لذلك اخذوا يملون المواقف البطولية والجمال البراقة والحظات النافرة والمظاهر الغريبة ، . فذوقهم كان في تطور في حين ان ادباء المسرح وقفوا مثنى المسرح حيث هم ، وحيث كانوا عندما اسسه النقاش . يقول نعيمة (٣) :
" نحن لا نزال ننظر الى الممثل نظرتنا الى "بهلوان" والى الممثلة كعاهرة ، والى التياترو كمقصف ، والى التمثيل كنوع من القصف واللهو . شعبنا لم يدرك بعد اهمية فن التمثيل في الحياة لانه لم ير بعد نفسه على المسرح . وللولوم عامة على كتابنا لا على الشعب ."

وهناك التقاليد الى جانب الموضوع . فالمرأة محرومة غالبا من الظهور على خشبة ، والرجل لا " يتنازل " خوفا من ان تلوك اللسان سمعته (٤) ، كانه يأتي بالتمثيل امرا وضيعا ! اصف الى ذلك صعوبات من الناحية اللغوية ليس ههنا مجال بحثها .

(٢) سليم جدى - ديوان - ص ٨٣

(١) الاصح : هذى

(٣) ميخائيل نعيمة - الاباء والبنون - ص ٦٠ (٤) يقول الدكتور فياض في " ذكريات

ادبية " : ثم فكرت انه لا يليق بطبيب ان يمثل فترك ذلك * (ص ٦٣)

ولكن ... حتى متى سيقى المسرح عندنا خاملا ؟ ان الجواب عسير، لان النهضة بالمسرح وقف على عوامل نفسية ومادية ، حتى توفرت فينا ، كان لنا كما لسوانا من الامم الراقية ، مسرح راق وكتاب مسرح مجلّون . ولقد صدق نعيمه ان قال (١) : "انا لا اشك قط في اننا سنرى عندنا ، عاجلا او آجلا ، مسرحا وطنيا تمثل عليه مشاهد حياتنا القومية . انما يقتضي لذلك قبل كي شيء " ، ان يحول كتابنا انظارهم الى الحياة التي تكرر حولهم كل يوم ، الى حياتنا بعجزها وبجرها ، وانراحها واتراحها ، وجمالها وقبحها ، وشرها وخيرها ، وان يجدوا فيها مواد الفلامهم ... وهي غنية بالمواد لودروا كيف يبحثون عنها .

ومتى غاص الادباء على الحياة ، هان امر اللغة ، واذلت صعوبة التقاليد ...

(١) ميخائيل نعيمه - الابداء والبنون - ص ٦

الاتجاه الاجتماعي في الادب يتضمن كل ما يتخلل حياة الانسان الشعبية والانسانية والفنية وغيرها . واذا اردنا ان نخوض بحثا في ادب المجتمع كله اضطررنا الى وقف الوقت الطويل له .

الا ان هنالك ظاهرة بارزة في الاتجاه الاجتماعي في ادبنا تستوقفنا ، الا وهي جنوح هذا الادب الى معالجة القضايا المستعصية التي حَبَّرت العقول منذ القدم ، والتي انفق الكثيرون اوقاتهم وافكارهم ودماهم في سبيل حلها . ومن اهم هذه القضايا مشكلة الفقر والغنى ، فتمة مجتمعات تظهر فيها هذه المشكلة صارخة ، فاذا يغني فاحشر الغنى يصول بسطوته ، وفقير قوته في الحياة ذل الطلب . ومن المعضلات الاجتماعية الفوارق التي تجعل من الاسياد طغمة متعالية ، تقابلها في الدرك الاسفل طبقة الخدم . وثمة امراض اجتماعية تفشت في كل عصر بلـغ ابناؤه درجة من التمدن ، فراح خيالهم بعدها يستنبط المعاصي ، حتى عمت الفوضى الاخلاقية التي حولت قسما من الفتيات البريئات سلعا في سوق الاعراض ، والتي حولت فريقا من الشبان الى اغوال غدارة تكمن لفريستها ولها من مالها انيابا ولا كالانياب ! اضع الى ذلك ما يتخبط فيه المجتمع من ظلم واجحاف وكبت وتسلط ، ترافقها محاولات للخلاص يقوم بها الناس حفظا للكرامة وصيانة للاخلاق . وقد خاض الاتجاه الاجتماعي هذه الميادين كلها ورسم لنا للمجتمع اللبناني بمختلف خطوطه صورة صادقة .

الغنى والفقر من ابرز من عني بهذه الناحية في القرن التاسع عشر نجيب الحداد . لقد جال نجيب الحداد في مختلف الميادين التي يظهر فيها البؤس الاجتماعي ، فكتب عن الغني والفقير يقول (١) : " قل للغني المترف الساح في مراتع نعمائه ، الساحب ذيل الخيلا على بني الانسان نظرائه ، قف هذا النظر الذاهب في السماء قليلا ، ومل بتلك النعمة التي تجر من فضول اثوابها ذيولا . على فقير يسأل منك رحمة ويسترحم منك سؤلا : ما ضر الغني الذي يتكبر على الفقير ، والموسر الذي

يحقر العامل والاجر، لو علم ان المذلة لا تكون في لبس الكنان والعظمة لا تأتي من وراء الحرير، وان الفقير اشد لزوما منه في مجتمع الانسان .
والفقير فقير بمجمعه ، فقير باغنيا . فهو لولاه ولولاهم لما كان فقيرا ، ولولا بؤس الفقير لما اشرى الغني وبطر اثراؤه . وكم من فقير يقذف به الشقاء الى الجريمة (١) :

كم شقي يساق للاعدام كان اولى بوحمة الحكام
ولكم في القصور ناعم بال وهو احرى بالنار ذات الضرام
قاتل النفس دونه قاتل الجسم فليس النفوس كالا جسام
ما لهذي الحبال تعفو عن العالي ويعلو بها وضع المقام
ما سمعنا بانهم علقوا يوما غنيا بها ولا في المنام
افكل الانام اهل صلاح ما خلا ذا الفقير بين الانام ؟
ان يبق المال ربه الاثم فالفقير يجبر الفقير للاثام
فاقتلوا الفقر ان عدلتم فان الفقر اصل البلاء ورأس الخصام

ثم يوئي (٢) كانه لم يكن الا كطيف مضى مع الاحلام
وتراى للناس فيه خطيب صامت ناطق باسعى كلام
يا ذوى المال انتم شركاء لي ولكن بغير هذا الحمام
لو اردتم لما ارتكبت المعاصي لو اردتم لكنت خدن سلام

ضحايا البؤس الاجتماعي هنالك فئة من البائسات استرعت انتباه الادب . اعني بهن الموسسات . فمن الادباء من اتخذ لهن الاعذار منيخا باللوم على الفساد الاجتماعي ، ومنهم من نظر اليهن نظره سوداء ضيقة ، فاذا بهن في نظره آلات فساد همها امتصاص الاموال والدماء . يقول نجيب الحداد (٣) : الا اكبره المرأة الباغية تدفعها يد الفقر الى البغاء . ولا الوم الفتاة الساقطة تطرحها عوامل الاحتياج في مطاح الفحشاء ، ولا احتقر الغربية النازحة تلجئها كف الضرورة الى بيع

(١) الياس فياض - ص ١٥ - ١٢

(٢) الفقير المشنوق .

(٣) نجيب الحداد - ص ٩٥

العفة والحياء . ولا اثم بغايا الاسواق يجهرن بما يأتيه من المنكرات . فانما هـن مخلوقات انزلها الشقاء في منازل الذلة والهوان فلم تخف ما رمتها به الاقدار ولم تنكر ما اصابها به طوارق الحداث .^(١) ويقول في مكان آخر (١) : " المرأة البغي خليفة ساقطة دفعتها يد الفقر . ونفس كانت نقيية طاهرة فزايها العفاف والطهر ، وثمرة كان يرجى منها الصلاح والخير فافسدتها حوادث الدهر . بل هي ريشة حمامة بيضاء نثرها عاصفة الايام " .

ولكن امين ناصر الدين يعتبر ان الباغية باغية لان الفحشاء تسرى في

دمها (٢) :

افاتنة الاغرار انت شقاؤهم	وانت عدو للفضيلة ازرق
لبست ثمين الوشي من صلب ماله	وضمك قصر للدعارة مؤثق
وعلق قلب بين جنبيك مظلّم	فما غر حرا ان وجهك مشرق
وواليت ابليس الرجيم فحيثما	رقصت فابليس الرجيم يصفق
فلا جاوزت مغناك يوما صواعق	ولا جاده هام من المزن مغدق (٣)

والى جانب المومسات اللواتي اختلف الادباء والشعراء في النظر اليهن ، فئة من الفتيات والنساء اجمع حملة الاقلام تقريبا على اعتبارهن ضحايا بريئة لخداع المجتمع والفاسقين من ابناؤه . هذه هي فئة اللواتي عمل التخرير والبؤس فيهن عمله ، فبتن بائسات

(١) نجيب الحداد - ص ١٢٣

(٢) امين ناصر الدين - الالهام - ص ١٠٩ - ١١١

(٣) ان الشاعر يسل هذا الكلام مدفوعا بدافع التقاليد والعاطفة . وحبذا لو نظر اديباؤنا جميعا نظره اعمق الى هذا الموضوع الخطير ، اذا لادرخوا ان المرأة التي تضطر الى المساومة على شرفها انما تفعل هذا مسيرة بدوافع اقتصادية او اجتماعية لا بدافع الشهوة والفجور ، واذا لحاولوا الاصلاح ، ولبثوا في الناس روحا غير الروح السائدة اليوم من احتقار اولئك البائسات ورميهم ببشتى الاتهامات والشتائم . وانها لمهمة جلييلة تقع على عاتق الاديب ، تلك التي تحتم عليه ان ينقي المجتمع من ادرانته بدلا من ان ينزلق احيانا مع العاطفة الى ما هو مناف للحق والصواب .

تاعسات في مجتمع يتنكر لمن قسا عليه . وقد ساهم ادباء لبنان حيث حلوا في وصف حالة البؤس الاخلاقي التي رسف بها البعض ، فتعالت اصواتهم في اميركا ومصر ولبنان منددة بالجور مطالبة بالانصاف .

واشهر اثر ادبي يمثل هذه النزعة صدر في لبنان قصيدة "الريال المزيف" لبشارة الخوري . تمثل القصيدة امرأة بائسة قست عليها الايام ان نفت زوجها الى الحرب فتركها وحيدة مع طفلة رضيع ، فباتت لا تعرف للقمّة طعاما ، حتى اضربها البؤس وكساد يودي بحياة ابنتها ، فرأت ان تشتري بعرضها ما يبقي ابنتها غائلة الموت . واذا بشاب يحوم حولها شرها لثيما ، واذا بها تمتنع عليه غير مرة ، وهي تقول في سرها (١) :

سام الفتى مرضي فيا لك من فتى كاسي الغنى عار من الاخلاق

هب ان اختك والزمان اصابها مثلي اصابت سافل الاعراق

افكان سرك ان ترى احسانه ثمن العفاف لضمة وعناق

ولكن المقاومة تنهار تحت وطأة الضائقة ، فينفج الفتى المسكينة ربالا ثمن

العفاف السليب . وتسرع المرأة الى حانوت لتشتري به لطفلتها بعض الغذاء ، بيد ان الطباخ ادرك ان الريال مزيف ! فما كان من المرأة الا ان

سقطت على قدم الشقا فبكت لها عين العلى ومكان الاخلاق

وبكى عفاف الانسات عفافهما خلل السجوف بمدمع مهراق

وشبيهة بهذه الرواية - من حيث الروح - رواية اوردها خليل مطران

في قصيدته "الجنين الشهيد" . ان موضوع القصيدتين واحد : الفقر وما يدفع اليه ، كما ان اشخاص الروائيتين لا يختلفون الا قليلا : فالشاب الخليع يمثل دوره في كلتا القصيدتين ، والضحية ، وهي امرأة في القصيدة الاولى وفتاة في الثانية ، تنساق الى الهوة بدافع القرش . اما النتيجة فهي ان الفتى الخليع ينصرف عن ضحيته بعد ان يشبع منها بهيمته سعيا وراء ضحية جديدة يلقي في طريقها حباله .

ولكن قصيدة مطران تنفرد عن الاولى بامرین : الاول هو ان اهل الفتاة

قد ساهموا في شنائها وذلك بان دفعوا بها الى الحانات حيث راحت تشتغل وتستغل جمالها لتكسب بعض المال يتمتع به والدها ووالدتها . والثاني هو ان الضحية كانت

مزدوجة : عفاف الفتاة ، وروح بريئة ، لم تأت في الحياة ما يجعل الحياة تقسو عليها ، وهي روح الجنين الذي اضطرت الفتاة البائسة ان تودى بها خوفا على عرضها من ان يصبح مضغة في الافواه (١) .

اما مسعود سماحه فانه يصف لنا راقصة اتخذت من الرقص موردا للعيش .
ولكن النتيجة ، هنا ايضا ، لم تكن سوى خداع وغدر ، وطفل ليس له اب (٢) :

تركت بيتها وفي الصدر منها	زفرات وفي الحشا رمضا
ورآها مثرتمشـل يوما	فسرت في عروقه كهرا
فدعاها الى الشراب فلبت	وهي لا تدري ما يدير القضا
جرعة بعد جرعة بعد اخرى	سكرا بعدها وضاع الحيا

43

نظرت نحو طفلها بحنو
ذكرت ربه فقالت : "الهي
امن العدل ان تجازى فتاة
وتغك الاغلال عن نفس وغد
ودمع العينين منها دما
اشقا" ما حل بي ام جزاء
خدعتها الوعود والازياء
اسر الخبث قلبه والربا ؟"

ولكن البؤس لا يقتصر على النساء . فكم من شاب طوحت به ايدى الفساد الاجتماعي ، فاذا به يعمل جاهدا في سبيل الرغيف ، حتى اذا ما اضنى جسمه نشب به المرض ناهشا . ولوديع عقل قصيدة يصف بها مثل هذه الحال ، فيقول في شاب (٣) :

خانه الحظ باهل وحمسى
بائس، لكــه نـوشم
راح يشقى عاملا ، لا سائلا
دق كالطيف هزالا فاذا
اجهد الجسم ولما ضاره
عائثا في صدره يأكل من

فانبرى يسعى فقيرا معدما
رب يؤس لا ينافي الشهما
غير باريه يليه كرمها
مرت الريح عليه جثمها
نشب السل به مستحكما
رئتيه شرها ملتھما

(١) خليل مطران - جزء ١ - ص ٢٢٣ - ٢٤٥

(٢) مسعود سماحه - الديوان - ص ١٠٠ - ١٠١

(٣) وديع غقل - الديوان - ص ٠ ٠ ٧٠

ولم يقف الادباء والشعراء اللبنانيون امام مظاهر البؤس الافرادى فحسب .
فهناك بؤس جماعي يصيب العائلات احيانا ، كذاك الذى اصاب تلك العائلة الاميركية
يوم اعلن اتحاد اصحاب المناجم الاضراب كي يتحكم بالاسعار على هواه . يصف الريحاني
عائلة فقيرة تكاد تموت دنقا لان المحتكرين منعوا بيع الفحم . يقول (١) : بيت حقير صغير
بارد قائم . لا نور فيه غير نور شمعة ضئيل وما يدخله من نور الكهرباء في الشارع . ونحن
الان في اقصى شتاء . رآه الزمان . امرأة فقيرة ترتعش من البرد بالقرب من سرير طفلها .
المريض وقد بعثت ابنها الى المخزن بآخر فلس معها لبيتاع رطلا من الفحم حبا بهذا
الطفل الذى يموت برذا . فعاد الولد سريعا ورمى السطل الفارغ الى الارض لاعنا شركات
الفحم الاحتكارية وناخا في يديه المرتجفتين ليدفئهما : لافحم للبيع يا امامه . لافحم
للبيع البتة . . . مات الطفل من الزمهرير . مات لان الكانون بارد . مات لان سطل
الفحم فارغ . مات لان قلوب اصحاب المعادن والتجار خالية من الرحمة والحنان .

الاحسان بؤس وشقاء ، بائسون واشقياء . . . ولكن ما الدواء ؟ كيف يقضى على البؤس
في مجتمع لم تقم دعائمه الا على الاثرة والتحكم ؟ وكيف للسبيل الى تخفيف
الوطء من البائسين ، فنجعلهم يعيشون بيننا دون ان يشعروا بانهم يشكلون على صفحة
الحياة هائلا لا تقع عليه عين الانسان الا اذا كان يبحث عن مكان يملأه سوادا ؟ هنا ،
كما في غير مكان ، وقف الادباء فئات ، او بالاحرى فئتين كبيرتين بارزتين : فئة تقول
بالاحسان وسيلة اخلاقية ودينية واجتماعية ناجعة في معالجة البؤس ، وفئة تذهب الى
ان هذا الضرب من العلاج ليس سوى نوع من انواع المخدرات يعتاده المدمن : انه
دواء ما يلبث ان يصبح داء . وخير وسيلة في نظر هذه الفئة هي ان تقوم في العالم
حكومات عادلة تمحو البؤس دون ان يكون لها على البائسين منة ، ذلك لان من حقهم
عليها ، وهي منهم ولهم ، ان ينالوا العناية التي تتطلبها انسانيتهم .

وهكذا انطلقت فئة من الادباء والشعراء تبشر بالاحسان وتدعو الى
مشايعته . واتخذت من الجمعيات بنوع خاص منابر تبث منها دعوتها . وهنا ينقسم الداعون
الى الاحسان فئتين : منهم من يتكلم عن الاحسان بصفة عامة ، طالبا الى الناس ان
يجودوا على البائسين منهم بما يستر عوراتهم وبما يشبع نهمهم ، ومنهم من يحدد سبيل

الاحسان فيأتي باقتراحات ايجابية في هذا الشأن .

من الفئة الاولى شعراء تقودهم العاطفة فتجعلهم يسترسلون في كلام
كله اخلاص، ولكنه قلما يأتي بالعمل البناء . يقول الياض فياض (١) :

ايها الناس انما الطك لله تعالى يعطيه من يشاء
كل في ايديكم من يديه
فابتغوا وجهه بصنع جميل
ان صنع الجميل يرضي السما
ويقول شبلي ملاط واصفا اللواتي يقمن بمشاريع خيرية (٢) :

حي الكرائم في عهد اعدن به
ايام جعفر للدنيا وهارون
لهن في كل حال كل معجزة
عصا من معجزات العطف واللين
باللطف يأخذن من مال العقل كما
يغفرن بالظرف من اهل الملايين .
ويقول خليل مطران (٣) :

جرحت اخن جرح
لكن قلبك مؤمن
فان اردت سلوا
احسن، وما اسطعت احسن
ولم يكن ادب المهجر مقصرا في هذا المضمار . فما ايليا ابو ماضي يدعو
الى نصره اليتيم البائس قائلا (٤) :

ان يك الموت قد مضى بابيه
ما مضى بالشعور فيك وفيها
وشقاء يولد الرفق فينا
لهو الخير بالشقاء تنزيا
فاعينوه كي يعيش وينمو
ناعم البال في الحياة رزيا
حاربوا البؤس في الصغار صغيرا
قبل ان يستبد فيهم قويا
وها القروى يصرف نساء الاحسان فيقول (٥) :

بكين مع الباكين حتى تألقت
على عبرات البائس البسمات
فديت اليد البيضاء خاتمها الندى
ودملجها المعروف والصدقات
تجود لها كف البخيل وتلتقي
على كفها الاميال والنزعات

(١) الياض فياض - ديوان - ص ٥٩

(٢) شبلي ملاط - ديوان - ص ٢٧٣ - ٢٨٤

(٣) خليل مطران - جز ٤ - ص ٥١٠

(٤) ايليا ابو ماضي - الجداول - ص ٥٠٠ - ٥١
(٥) القروى - القرويات - ص ١٥

ومن الذين يتقدمون بمقترحات ايجابية في الاحسان اديب اسحاق .
يقول اديب مطالباً بانشاء مدارس للفقراء (١) : "ومن لنا مع ذلك ان تتألف من وجهاء
مدينتنا واغنيائها واهل العلم والنباهة فيها، جمعية يكون القصد منها انشاء مدرسة
كبيرة مجانية لاولاد الفقراء ، يقرأ فيها الذين لا شغل لهم للنهار كله ، والمشتغلون بشي
من الحرف ساعات معينة من النهار . ولا هير ان تشارك البلدية في هذا المأخذ
الادبي النافع ."

اما الفئة التي لا تؤمن بان الاحسان - وحده - يكفي لاعانة الناعسين ،
فعلى رأسها عمر فاخوري . يقول (٢) : "ان العناية بشأن اليتيم مادة وروحاً، تغذية وتربية،
تتصل اتصالاً وثيقاً بالمبادئ الادبية او الاخلاقية التي يزين بها مجتمعنا الحاضر ،
مباهياً مفاخرها . وفي رأس تلك المبادئ مبدأ الخير او الاحسان او المعروف - اسماً
متعددة لاسم لا يتعدد . ثم يقول في مكان آخر (٣) : "ولكن هنالك حقيقة لا مندوحة
عن الاشارة اليها، وهي ان التوكل على مروءة اهل الخير والمعروف لم يقدم النوع الانساني
مثيراً نحو الكمال الذي ننشده او نسير نحوه . بل ان قانوناً واحداً يسن وينفذ ، لافضل
من كل الخطب والمواعظ والشرح والحلول التي ينو الضمير الانساني الصغرى - بعبئها
الثقل ، منذ قام في الدنيا اول حكيم ، او اول واعظ ، او اول داع الى الخير . ترى ،
متى نلج باب المدينة الفاضلة التي لئلهجون فيها بذكر اليتيم - حيث لا يتيم ؟"

التعصب والتساهل بينما كان التعصب يذوب تدريجياً في الغرب بتأثير الحركات العلمية
المتصاعدة والرقى الاجتماعي الناجم عنها ، بقيت الطوائف المختلفة
في الشرق - في الشرق العربي خاصة - تتطاحن في سبيل اللاشيء ، مدعية انهى
تجاهد في سبيل مسيح او نبي . وثمة عوامل كثيرة جعلت من الشرق موطناً رحباً
للمشاحنات الطائفية ، على رأسها تدخل الاجانب في شؤون البلاد ، متسلحين بالاعذار
الدينية والسياسية المختلفة تنفيذا لرغبات المقرب الشنيعة . ولا يخفى ما كان للاحوال

(١) اديب اسحاق - ص ٢٨٨

(٢) عمر فاخوري - اديب في السوق - ص ٨٤

(٣) عمر فاخوري - اديب في السوق - ص ٨٧

الاجتماعية السائدة في عصر الظلام عندنا من اثر في دفع الناس الى التعلق بالتعصب . وكما رأى الادباء والشعراء بناقب نظرهم مفسدنا الاجتماعية ، وعالجوها على ضوء مفاهيمهم ومقاييسهم ، ادركوا كذلك ان التعصب آفة تجر على البلاد وبالا ، وادركوا ان التساهل هو خير ما يقي الضعيف تجاوز القوى ، وهو بالتالي خير ما يؤمن للبلاد استقرارها وللناس تفاهمهم . يتكلم ولیم كسفلیس بلسان خطيب سنة ٢٥٢٠ ، فيقول هازنا من المتعصبين ومن المتمسكين بقشور الاديان (١) : " اما كون ابنا اللغة العربية اكثر استسلاما للتقليد من معاصريهم فلاسباب كثيرة . اهمها تأثير الاديان عليهم . فالاديان كما كانوا يفهمونها في تلك الايام المحزنة كانت شديدة التحفظ لا تتراح الى البحث وتحرم الجدل . عدوة الاستقلال وحرية العقول . وقد رسخت تعاليمها المشوهة بالتفسير والتأويل في قلوب الشرقيين ونفوسهم رسوخ المرض العضال في الجسم النحيل . انما الفرق بينهم وبين المريض هو ان المريض يكره علته ويسعى للتخلص منها ، اما هم فكانوا شديدي التمسك بعلتهم يتعصبون لها ويناضلون من رام مداواتهم واهراهم منها . ولذلك ولما كانت اديانهم مقلدة ومحافظة ، نشأوا على التقليد والخوف من كل جديد وان كان فيه التقدم والاصلاح "

ويعرض عمر فاخوري واقع الحال عندنا فيقول (٢) : " لقد اتى علينا زمن في لبنان ، وبين الطائفة والاخرى ، اوبين ابنا دين وابنا دين آخر ، كالحدود التي تفصل وطننا عن وطن : كدنا نحتاج الى جوازات سفر بين الطوائف والاديان . . . ونحن على يقين من ان نظاما سياسيا ديمقراطيا صحيحا كليل بان يسمحو تلك الحدود الوهمية المخجلة ، والمؤذية لكثير من الالهام . . . ولا خسارة في ذلك على احد ، اللهم الا على نفر قليل من المستثمرين الكسالى ، واطن ان هؤلاء ليس يهمنا شأنهم . . . نحن بحاجة الى ما يؤلف ويجمع ، لا الى ما يفرق ويقطع : ان الوطنية تؤلف وتجمع . . . ان النظام السياسي الديمقراطي الصحيح يؤلف ويجمع . ان التقدم الاجتماعي يؤلف ويجمع . . . ويرى نقولا فياض ان الطائفية تهدم كيان البلاد فيقول (٣) :

وطني يهدمه الشقاء ولا ارى	كفا تطيح بمعزل الهدام
الطائفية قطعت اوصالها	وسياسة الاحزاب والارحام
لي في هوى وطني كتاب خالد	يبقى على المكتوب من ايامي

(١) كسفلیس في : مجموعة الرابطة القلمية - ص ٧٠ - ٧١

(٢) عملا فاخوري - اديب في السوق - ص ١٢٨ - ١٢٩ (٣) فياض - رفيق الاقحوان - ٩٥

سجلت نصرانيي في منته ونشرت بين سطورہ اسلامي
ويصف امين ناصر الدين فئة المتعصبين الضالة بقوله (١) :
فئة اذا نطقت فكل كلامها كذب وتزعم انها لا تكذب
وتظل ترتكب الذنوب ضلالة في حين تنهى الناس عن ان يذنبوا
لا تعجب لجاهل متعصب واعجب لمن هو عالم متعصب
ويناشد الياس فياض قومه حائثا على الحب والوحدة فيقول (٢) :
بني الشرق هل من ذلك النوم يقظة

ترجى وهل يجدى بتنبيهكم شعري
ايجمعنا جنس ولسن وموطن ويفرقنا وهم تحكم في الفكر
تلكم دين لكم فاتتباعه احق ومن ازرى بذاك فني كفر
وقريب من هذا كلام القروي^٣ وشبلي ملاط (٤) وغيرهما . . .
اما تامر ملاط فانه يذهب في نهاية الامر الى ان الدين الحقيقي ليس
اليهودية والاسلام والمسيحية ، انما هو الوجدان الذي يجعل من الانسان انسانا (٥) :
مذ كان خلق الناس كان الدين في ارواحهم متأصلا مغروسا
فمضوا به شتى المذاهب شرذا يتخبطون دجنة ادموسا
فدع الحنيفة واليهود وشأنهم والعيسوي وصحب كفاشوسا
واعمد الى الوجدان لا تعدل به شيئا ولو مطر الغمام طقوسا

التمرد الضعف والفساد لا بد للتمرد من شعور يضع المظلوم امام كيانه كائناتان ، ووعي يجعله
يسعى الى صيرورة انسانية لا يضطر فيها الى خفض الرأس امام
معقرى الكرامات . وحتى لو اخفق طالب السمو والتحرر في مسعاه ، فان في المحاولة التي
يقوم بها بهجة للنفس الالهية ، هي البهجة التي يشعر بها من يتبع هاتف الضمير والقلب .
وقد شعر كثيرون من كُتّابنا بضرورة الانتفاض على الاوضاع الفاسدة والتمرد على ما يفرضه الجور

(١) امين ناصر الدين - الالهام - ص ١٤٢ - ١٤٣

(٢) الياس فياض - ص ٣٧ - ٣٨

(٣) القروي - القرويات - ص ٢٨

(٤) شبلي ملاط - ص ٣٤٦

(٥) تامر ملاط - ص ٣٨ - ٣٩

من خنوع وضعف ، فنادوا بالتمرد على الواقع الدليل . ويمثل جبران خليل جبران هذه النزعة في مقالته "البنفسجة الطموح" . فهذه البنفسجة لم ترض بان تبقى طول حياتها بنفسجة قابعة في زاوية ، بل ارادت ان تصبح وردة تشرف بقامتها على الحياة . ومع ما بذل لديها من محاولات الاقتناع اصرت على موقفها حتى اذغمت الطبيعة اخيرا فحققت مراد ابتها ، ولكن العواصف ما لبثت ان هبت فطرحت الرياح الوردة الحديثة ارضا وهي تلفظ حشاشتها . ولكنها تماكنت نفسها وقالت لرفيقاتها اللواتي وقفن ينظرن اليها بسين ساخرة وحزينة : "انما القصد من الوجود الطموح الى ما وراء الوجود تمردت نفسي على نفسي وهام وجداني بمقام يعلو عن وجداني ، وما زلت اتمرد على ذاتي حتى انقلب تمردي الى قوة فعالة واستحال شوقي الى اردة مبدعة (١)

ولكن جبزلان ما يلبث ان يشتعل غيظا ان يرى الباطل يدوس منطق الحق ، فيثور مع خليل الكافر ويوحنا المجنون مرفيا مزيدا انه لا يكفي بالتمرد ، بل يدعو الى الثورة التي تحطم الفساد من جذوره ، فيشد في تمرده احيانا عن الصواب فيتمرد على الشرائع الاخلاقية التي اتفق الناس على اتخاذها سياجا يصون الاعراض من الدمار ودعائم العائلة والحياة من الانهيار ، فيمرر مثلا موقف تلك التي تركت زوجها وتبعته سواء ، لا لسبب الا لان زوجها متقدم في السن ، ولان من تبعته شاب يفيض شبابا !!!

المطالبة بالحرية والتغني بها ناشد ادباء لبنان وشعراؤه الحرية ، في لبنان وخارج لبنان ، ذلك لان نفوسهم التي جرمت من صخور لبنان

عزتها ابت ان يروضها سوط الجلاذ الاجنبي ، فكانت تتحين الفرص للتغني بالحسرية ، بينما انطلقت في المهاجر لا تبالي بفنون التشنيع والارهاب التي كان يعدها الظالمون لكل ذي اعتناق . لقد صاح جبران خليل جبران مع خليله الكافر ، ورعدة الاجيال المستعبدة في اواصره ، وتلمل النسر الجريح في عينه (٢) : "من اعماق هذه الاعماق نناجيك ايتها الحرية فاسمعينا" وصاح امين الريحاني (٣) : "متى تحولين وجهك نحو الشرق ايتها الحرية ؟ متى يمتزج نورك بنور هذا البدر الباهر فيدور معه حول الارض ويضيء ظلمات كل شعب

(١) جبران خليل جبران - مجموعة مؤلفات جبران - الجزء ٣ - ص ١٦١ - ١٦٢

(٢) راجع قصة "خليل الكافر" في "الارواح المتمردة"

(٣) امين الريحاني - الريحانيات - جزء ١ - ص ٥٩٠

مظلوم ؟ ايتأتى ان يرى المستقبل تمثالا للحرية بجانب الاهرام ؟ ايمكن ان نرى لك في بحر الروم مثيلا ؟ ايتها الحرية ! متى تدورين مع البدر حول الارض لتتيرى ظلمات الشعوب المقيدة والامم المستعبدة ؟^١ وانطلقت من ضفاف النيل صيحة شاعر ترك لبنان لانه اصبح فيه غريبا بين الوثراك والمستتركين ، وراح يزار في مصر كلما لاح له في الافق ، افق التاريخ والحاضر ، رسول الظلم . لقد قيل في مطران : (١) " وهناك سمات اخرى نعتقد انها حكمت شخصية الخليل ، هي الحرية ، التي قد تبلغ درجة الثورة ، والاقدام الذي قد يصل الى درجة المجازفة والمغامرة ، والاباء الذي نأى به عن مواطن التذلل حتى في احلك الساعات . . . وبرز هذه السمات وأصلها تحرره وجراته وابطاؤه ، ولا ادل على تحرره من نفوره من الظلم في ينبوعه ، وهجرته بعلمك موطنه الاول الى باريس ، ومساهمته في حركات البعث الوطني والقومي ومناصرته لاعلام الوطنية . . . ولم يكتسِف مطران بالمطالبة بحرية قومه ، بل طعن الظلم اينما وجد ، ورفع الحرية على اكف قوافيه حيث ومض للحرية بارق . وقد حيي الحرية بقوله (٢) :

حييت خير تحية يا اخت شمس البرية

حييت يا حرية

الشمس لالاشباح وانت لالارواح

كالشمس يا حرية

انت النعيم واحلى انت الحياة واغلى

للخلق يا حرية

اما الذين هددوه بالشو عندما تعرض لمساوئهم فقد نالوا منه عكس ما

كانوا ينتظرون من ازدلاف واعتذار وابتسامة ذليلة . قال لهم (٣) :

انا لا اخاف ولا ارجي فرسي موهبة وسرجي

فاذا نبا بي متن بر فالمطية بطن لسج

لا قول غير الحق لي قول ، وهذا النهج نهجي

وقد ثار الياس فياض على الظلم والقابليين به . فما كاد ينتقل الى الباخرة

(١) مصطفى السحرتي - خليل مطران ، الرجل والشاعر - ص ٨

(٢) خليل مطران - جز ٢ - ص ٥٠ - ٤٥

(٣) خليل مطران - جز ٢ - ص ٩ - ١٠

قاصدا الى مصر حيث عرض عليه تحرير احدى الجرائد حتى شعر بانه منصرف من بلد اسود بالظلم ، فقال على لسان الحرية (١) :

حبسوني من الظهور المباح وارادوا قتلي بغير جناح
جرموني ، وليس يشفي جراحي غير هجرى ارضا بها البؤس القى
هاجرها فالله خير وابقى

وقبل مطران وفياض قام الياس صالح - وهو شاب توفي وهو في الخامسة والعشرين - يتغزل بالحرية ، فقال (٢) :

لا تمنني يا عاذلي في هواها فانا قيس هذه العامرية
وعلام العلم والقلب قلبي ومعني فيه حجة شرعية ؟
انت حريا ايها المرء فاعلم ولك العلم فيه والاسبقية
انت حر ، فاعلم بهذا وعلم انت حر وهذه اولية !

ولم يكن ليفوت اديب اسحاق ان يدلي بدلوه بين الدلاء ، وهو الحر الساهر على حركات الظالمين . فقال يبسط مفهوم الحرية ويشرح احوالها في البلاد (٣) :

" قد حق للانسان ان يكون حرا فيما يفعل مما لا يخالف قانون العدل والحق المنصوص عليه في : ولا تفعلوا بالناس ما لا تريدون ان يكونوا بكم فاعلمين (٤٠٠٠) فهل من حرية القول ان تلغى جرائدكم ، وان يبعد منكم كل ناطق بالصدق ، ام من حرية الفعل ان يكون زارعكم عبدا للشيخ لا يصدر الا عن امره ، ولا يتحرك الا بارادته "

المطالبة باقرار المساواة الى جانب تلك النهضة التي اندفع بها ادباؤنا وشعراؤنا نحو الحرية ، ثورة جامحة انصبت حملا على رؤوس الظالمين الذين انتزعوا الحقوق من اصحابها واخذوا الناس بالسوط لاقرار حكمهم الباغي . ولئن كان

(١) الياس فياض - ص ٩٠ - ١١

(٢) الياس صالح في : رثيف خوري - الفكر العربي الحديث - ص ٢٨٢

(٣) اديب اسحاق - ص ١٦٦ - ١٦٧

(٤) ان في تحديد اسحاق للحرية لمطابقة تامة لتحديد الحرية الذي ورد في احدى مواد شرعة حقوق الانسان والتي نصها : " الحرية هي ان يفعل المرء كل ما لا يؤذى سواه . وهكذا ليس لممارسة الحقوق الطبيعية من حقوق سوى تلك التي تؤمن لسائر اعضاء المجتمع حق التمتع بالحقوق نفسها . ولا يمكن ان تحدد هذه الحقوق الا بواسطة القانون . . . "

الشعب لم يشعر بكامل مسؤولياته وحقوقه كوحدة منظمة ، فان فئة الطليعة قد اخذت تنير للجموع سبيلها ، وذلك منذ امد ليس بقريب جدا . فتطالب للمقرر بكسا ، وللسجين المظلوم بالحرية ، وللاكفا بالمساواة ، وللمظلومين تحت كل شمس ، اولئك الذين يطوون الليالي على دمع ودم ، بحرية الحياة الشريفة والرأس الابي .

ومن اجمل ما قرأت لادبائنا المقيمين والمغتربين حول المساواة هذا البيت للشاعر القروي يصف فيه حبة قمح (١) :

وكأنا الشق الذي في وسطها لك قائل نصفي يخص اخاكا

فهل اروع من هذا النداء المحب ترسله الطبيعة الى ابنائها ؟

وقد اجتاحت الادب اللبناني ، ازاء الجشع والظلم ، موجة عارمة من استنكار الاثرة ومن الدعوة الى المساواة . والمساواة التي عدا اليها كتابنا ليست محوا لاي فارق يميز انسانا عن انسان ، بل هي مساواة امام القانون ، مساواة امام الحياة بان يقدم للجميع فرص متساوية للانطلاق وهنا كذلك نجد الكاتب الذي يتخذ من نور العقل هاديا لخوض الموضوع ، كما اننا نجد المتحمس الذي يشيد بالمساواة بوحى العاطفة . وقد صبر اديب اسطق عن هذه المساواة بقوله (٢) : اما المساواة فليس المراد بها ما يروم الغلاة من محو الطبقات وازالة الدرجات المترتبة على السعي والجهد لزوما ، فتلك امنية لا تتال الا ان نكون جميعا اخوانا وانما حقيقة المساواة ان تكون الاحكام سواء على من هم بالنظر اليها سواء ، بمعنى ان تجرد النصوص الحكمية عن كل ما يجعل بعض الناس فوق بعض ، وتنزه عن كل ما يفتح باب التجاح لبعضهم دون الاخرين

ولعل من ابرز الامثلة التي اقدمها عن المطالبة بالمساواة قصيدة "الطين"

لايليا ابي ماضي . في هذه القصيدة يخاطب الشاعر المتعجرف بلسان المسكين ، فيدعوه الى ان يرجع الى ماضيه الذي يلتقي ، في الطين ، بماضي اى معدم . يقول (٣) :

يا اخي لا تمل بوجهك عني	ما انا فحمة ولا انت فرقـد
انت في البردة الموشاة مثلي	في كسائي الرديم تشقى وتسعد
لك في عالم النهار امانبي	ورؤى بالظلام فوقك ممتد

(١) القروي في : توفيق ضعون - ذكرى الهجرة - ص ٤٥٣ .

(٢) اديب اسحاق - ص ٣٣٧ .

(٣) ايليا ابو ماضي - الجداول - ص ٢٣ - ٢٧ .

ولقلبي، كما لقلبك، احلام حسان فانه غير جلمد

ويرى البعض في الاجحاف ظاهرة اجتماعية على الهيئات والافراد تداركها
كي تعود الى الانسانية كرامتها السليب . يقول توفيق ضعون (١) : " انا لا انكر الثروة لانها
عماد الرقي والعمران ، لكنني اكره ان ارى الى جانب الحديقة الغناء مستنقعا وان يتجاور
القصر البانخ والكوخ الحقير ، ويسير في شارع واحد الكاسي والعارى ، وان يشكو بعض الناس
التخمة والبعض الآخر الجوع . والذي يرسخ في ذهني منذ بدأت افكر واحس ان الانسانية
تظل كلمة جوفاء والمدنية حديث خرافة ما لم يتم عليهما دليل . وهذا الدليل الذي اتطلبه
من الحكومات والهيئات والافراد هو وضع حد ادنى للمعيشة يجب ان يتحتج به كل بشرى ،
فاذا اتفق ان قصر احد عن ادراكه كان ذلك لعلة جسمية او نفسية فيه و وعلى المجتمع
ان يكتشفها ويداويها . "

وقوف الادباء على نتائج المساواة في البلاد التي اخذت بها ، فقال
الشاعر المهجرى مسعود سماحه متغنيا (٢) :

الا فلتعشربين النفوس عزيزة	وتحي بافكار الشعوب المساواة
فما هي الا سلم للاولى سعوا	تؤدى الى المجد الرفيع ومرقاة
فكم اوقدت للمهتدين مشاعلا	وكم خفقت منها بنود ورايات
وكم ايقظت شعبا على الذل راقد	فهب للشعب المقيد هبات

المطالبة باعطاء كل ذى حق حقه ولكن لا مساواة ما دام الحق مهضوما ، وما دام ذوالحق
ينظر الى حقه القريب فيراه بعيدا ، صعب المنال كالسراب .

لذلك رافقت المطالبة بالمساواة مطالبة باحقاق العدل واحترام الحقوق . فيصبح الشيخ
نجيب الحداد (٣) : " مهلا بني الانسان ! فان للانسان على الانسان حرمة . ورفقا يا سادة
الخدم ، فان الخدمة في شرع الكرام ذمة . "

ولكن الحق لا يعطى دائما . بل غالبا ما يؤخذ بالقتال والصمود ، ولا بد

(١) توفيق ضعون - ص ٢٣٩

(٢) مسعود سماحة - ص ١٠٧

(٣) نجيب الحداد - ص ١٣

للمصاد من الفوز نهائيا . يقول خليل مطران (١) :

ولكن قوما يذودون عن
ويدفعهم حسب اوطانهم
لو الموت يد اليهم يدا

ويؤمن الدكتور نقولا فياض بان العمال ، تلك الفئة التي غمط الكثير من حقوقها ، سينالون عاجلا او آجلا حقوقهم المطعونة (٢) :

يا اخي العامل لا تيأس
وانا ما اخذوا القمح
وانا ما ذقت بالاضراب
قل ستأتي ساعتي
ولا تشك الزمانا
واعطوك الزوانا
ضربا وهوانا
فالدهر دولا ب يدور

ويؤمن معه القروي بان يوم الخلاص ، خلاص الجميع ، قريب (٣) :

سيجي يوم وهو ليس بعيدا
لا الظالمون بظالمين به كما
يوم يساوى سيدا ومسودا
عهد الزمان ولا العبيد عبيدا

وقد اقترنت المطالبة بالمساواة والحقوق بصرخة تزعق في وجوه الظالمين ، المسؤولين المباشرين عن الاجحاف ومن تفقر العدالة الاجتماعية الانسانية . وسيمر معنا في الفصول التالية شي من ادب الحملة على الطفلة ، واكتفي الان منها بهذين المثلين . يتكلم امين ناصر الدين عن جمال باشا هازنا ساخطا (٤) :

اجمال لا والله لست بمسلم
لم يرح الاسلام يا امر امله
جزار سوريا احتكم فرجالها
كذب الذي قد قال انك مسلم
بالرفق مذ بعث النبي الاعظم
غنم ودا خنوعهم مستحکم

وينور خليل مطران على جلادى الاقلام فيقول (٥) :

-
- (١) خليل مطران - جزء ١ - ص ١٨٠ .
(٢) نقولا فياض - جريدة الانباء - عدد ١٦ / ٥ / ١٩٥٢ .
(٣) القروي - القرويات - ص ٧١ .
(٤) امين ناصر الدين - الالهام - ص ٥٨ - ٥٩ .
(٥) خليل مطران - جزء ٢ - ص ٩٠ .

شردوا اخيارها برا وبحرا
واقتلوا احرارها حرا فحرا
انما الصالح يبقى صالحا
آخر الدهر ويبقى الشر شرا
كسروا الاقلام ، هل تكسيرها
يمنع الايدي ان تنقش صخرا ؟
قطعوا الايدي هل تقطيعها
يمنع الاعين ان تنظر شزرا ؟
اطفئوا الاعين هل اطفائها
يمنع الانفاس ان تصعد زفرا ؟
اخذوا الانفاس هذا جهدكم
وبه منجاتنا منكم . . . فشكرا !

الاستعمار والاستبداد^(١) لم تخف على الواعين اهداف الاستعمار قديما وحديثا ، فهـب
ادباؤهم وشعراؤهم يكشفون نيات المستعمرين ويحرضون على
مقاومة كل حركة ترمي الى اذلال البلاد .

من ارباب القلم من رأى في الاستعمار دليلا على انحطاط الروح الانسانية ،
فلم يفرق بين انسانين : انسان انسان ، وانسان ليس له من الانسان الا الظفر والناـب ، بل
شمل الجميع في حزمة واحدة وجعل "الانسان" مسؤولا بطمعه عما كان وعما هو كائن
من امر الاستعمار . وفي هذا الموضوع يقول فوزى معلوف (٢) :

آدمي هذا - اجاب اخوه -
جا يستعمر الاثير باسره
كرة الارض من مطامعه ضاقت
فحطت هنا مطامع فكره
نحن لم نهجر البسيطة الا
هربا منه واجتتابا لشره
قم بنا نحشد الطيور وننقض
عليه نجزيه من مثل غدره !

ويشرح الكاتب المهجري وديع باحوط وضع الانسان ، ويفسر الاستعمار على
ضوء المطامع التي لا تزداد الا اشعا (٣) : "وحاجات الانسان متسلسلة من قليل الى
كثير فاكتر : فكلما كبرت اشتد طمعه وطلب المزيد من التوسع . وهو ما دام على ذلك سيظل
يتطلب سلطة اوسع تريد معها حاجاته حتى تضيق هذه بتلك فيندفع متطلبا سلطة اخرى
اكثر اتساعا الى ما لا نهاية له . او ما نراه اليوم يتحفز لاكتساح السماء ؟ ولم ذلك ؟ اليس
لان الارض تكاد تضيق بحاجاته ؟ (٤) فقد باشر ركوب الهواء واضعا نصب عينيه التدخل في
شؤون الكواكب وضماها الى املاكه . . . ولا يجدرى كيف يجيز لنفسه ذلك بعدما صرح زعمـؤه
بعضهم لبعض باستقلال الشخصيات والامم ، وترك كل شعب يعيش ويجري في احكامه بحسب

(١) كانت بالامكان ان يدل هذا الفصل على ان الاستعمار القديم ، الا انني اناشده هنا من ناحية الاجتماعية اكثر من ناحية القومية
(٢) فوزى معلوف - على بساط الريح - الفصل "بين للطيور"

(٣) وديع باحوط في : مجموعة الرابطة القلمية - ص ٢٨٠ - ٢٨١ (٤) اراجع كلام معلوف اعلاه

اختياره وكم مرة سمعتم ينادون : كل بلاد لاهلها . يقولون ذلك وهم يعلمون
انهم كذبة مخادعون غشاشون . لانهم يفعلون عكس ما يقولون . فلماذا لا يتركون الهوا
للهوائيين ان كانوا من الصادقين ؟

وينظر البعض الى بلاده فيراها ترسف في الاغلال ، فيقول امين ناصر
الدين منحيا باللوم على الشرق الخاضع (١) :

اخنى عليك الغرب يا مشرق	وانت في الغفلة مستغرق
وسمت خسفا بعد تلك العلى	وقيد استقلالك المطلق
الغرب قد ضاق بسكانه	وانت لا وهرولا ضيق
وفيك اسباب الغنى حجة	ووجهك الطلق له رونق
فجاءك الغربي مستعمرا	وهو الى ما تحتوى شيق
لم تخل ارض فيك من فاتح	وفيلق يتبعه فيلق
فبات احرارك في ارضهم	عبيد قوم بأسهم مرهق

اما الدكتور فياض فانه يقرر واقع البلاد ثم ينتهي بدعوة الى التيقظ

والاتحاد (٢) :

وكان هناك في الحكم انتداب	على الاعراب يلقلمهم هوانا
فللروم الشام عنت ودانت	وللفرس العراق عنا ودانا

بني امي خبرنا الغرب دهرنا	وشاهدنا بطامعه عيانا
فكيف يغرنا منه سراب	نسد له الرجال وما سقانا؟
تباعدنا زمانا وافترقنا	فهللنا جاء موعدا وحسانا؟

ويتطلع القروى من البرازيل ، فاذا به امام لبنان ضعيف ، لبنان معتل ،
لبنان جفت ارزء العزة ، واسودت بياض صنيته خسفا ، فيخاطب بني امه في مقدمة "الاعاصير"
قائلا (٣) : "ان هؤلاء المضللين يلهونكم عن السعي الى تحقيق مطلبكم الاسمى بيهج

(١) امين ناصر الدين - الالهام - ص ١٨٢

(٢) نقولا فياض - رفيف الاقحوان - ص ١٦٦

(٣) القروى - الاعاصير - ص ٩٠

من وعد وزيف من رجاء لتلبثوا حيث انتم او تمشوا القهقري . انهم يحاولون اقناعكم بان
العبودية وسيلة الى الرقي والرقي وسيلة الى الاستقلال . انهم يعدون الجائع بمقــــــــــــيص
ويمنّون العارى بكأس فليح ، ارايتم منطقا اسد من منطق المستعمرين ! ثم ينتحسب
على بلاده مرددا بين الشبهات (١) :

لهفي على صنين يجفوه العلى ويغيب فجر العز عن ذرواته
لهفي على بيروت تصبح مسرحا لمغامر الغازي وعهر بناته
فردوس املاك يضم ابالسا وتعذب الابرار في جناته

اما الحل الوحيد الذي يرتأيه الكتاب للخلاص من الاستعمار وما يجره من
جور وخنوع ومذلة ، فهو النضال ، سلاح الضعيف الوحيد ، السلاح الذي يحول ضعف
الضعيف الى قوة طالما ادهشت رواد التاريخ . يقول عمر فاخوري (٢) : " يقولون لنا ايضا :
هي القوة ، لا قبل لنا بها . كمن يشكو ضيق صدره : هو الجبل لا مزحج له . بل كمن
يتأهب ليغطف في نومه : هو القضاء فمن يدفعه ؟ وكأني بهم يخشون ان لا نفهم ، على
احسن وجه واكمله ، ضرورة الرضى والقناعة والخنوع والتسليم ، فهم يأتوننا ببرهان لا يقطع
قطعا ، لكن يخز وخزك . . . يقولون لنا : ان العين لا تقاوم المخز . اما التاريخ فقد
عرف حوارا يدور بين تلك العين وذلك المخز . . . ودائما كان ينبت للعين ظفروناب " .
اجل . . . كان ينبت للعين ظفروناب . . . انظر الى هذه اللوحة
يرسمها لنا خليل مطران مثلا القوى وقد وثب به الضعيف (٣) :

ويل القوى اليوم من ذاك الضعيف وقد هجم
اترى نكوص المعتدى ملأ الفلا مما ضخم ؟
متقهقرا وهو الذى في بأسه لا يستهم ؟
ووثوب ابنا الديار به حبيث انهزم ؟

متد

(١) القوي - الاغصير - ص ٩٠

(٢) عمر فاخوري - اديب في السوق - ص ١٣٤ - ١٣٥

(٣) خليل مطران - جز ١ - ص ١٢٥ - ١٢٧

وبالإضافة الى المواضيع التي ذكرت ، والتي كان للادب اللبناني فيها نظرات وآراء ، نجد ان ثمة مواضيع قد تدخل في هذا الاتجاه ، الا انها ليست بخطورة تلك التي مرت معنا . من هذه المواضيع : المرأة ، حرية المرأة ، الحجاب . وقد كان بالامكان ان اثير الموضوع كما اثير غيره ، ولكنني اكتفيت بان اشير اليه لانه لم يشكل يوما اتجاها بارزا في الادب اللبناني ، بل كانت منه ومضات تمر بين الحين والحين في شعر هذا وكاتبه ذاك . ولو كان موضوع بحثي يسمح بان ادرس هذه الناحية من وجهتها العربية العامة بدلا من الوجهة اللبنانية الخاصة لخصصت لموضوع المرأة اتجاها خاصا ، ذلك ان الادب المصري قد عني بالقضية عناية خاصة ، بين الموالاة والمعارضة ، خصوصا عندما نزل الى الميدان الكاتب الاجتماعي قاسم امين . اما نحن ، فان ادبا مطلق النهضة عندنا كانوا ، اما لامبالين ، واما معارضين بشأن تحرير المرأة ومنحها بعض الحقوق (١) .

+++++

لقد التفت الادب اللبناني الى المجتمع والانسان . ومهما يكن من امر بعض الاتجاهات الخاصة ، فهو يسير في طريق ترمي الى ان تعيد الى الانسان كرامته ، ولذلك يان تؤمن له الاستقرار والرفاهية وتجعله بعيدا عن مؤثرات الفقر والظلم ، فتقيه بذلك مغبة التورط في المهادي . اما الادب الذي ما يزال يعيش وكأنه ليس من المجتمع بشيء ، فان الحياة ستحكم في امره . ويقيني ان حكمها سيكون عليه لان الناس باتوا يطلبون من الاديب ان يتأثر بالحياة ويؤثر فيها ، لا ان يكون كالذي قال فيه ميخائيل نعيمة :

وتسير وحدك في القفار عليك ستر من غبار
كسافر يبغي الديار لكه فقد السبيل

(١) للمعلم بطرس كزاه البستاني خطاب عنوانه "تعليم النساء" القاء سنة ١٨٤٩ . وفي هذا الخطاب استعراض لحالة المرأة ، يخلص منه الخطيب الى ان تعليمها امر واجب ، ويقترح ان تدرس المرأة الديانة والقراءة والكتابة والتاريخ وتدريب المنزل . .

(١) الاتهام الانساني - التأملني

... وما الانسان ؟

يقول لك البعض : "الانسان خير كله ، وخير كل ما يقوم به . حتى المجرم الذي يكب على عنق ضحيته يحترها ، فانه لا يخلو من ذرات خير تنكسر على نفسها في طوايا اللاوعي . " ويقول لك آخرون مخفيين من هذه الايجابية القاطعة : "اجل . ان في الانسان لخيروا . ولكن بين البشر من فطروا على الشر ، علّقوه وهم بعد في الرحم . اما الفئة الثالثة ، فئة السلبية ، فانها تستسلم قائلة : "الانسان ؟ ان هو الا حيوان عافه الحيوان ! انه "طين حقير" ، من الطين جبل ، ومن الطين جوهره ، فهو لا يتكلم الا طينا ولا يعمل الا طينا !"

ومهما اختلفت النظريات حول الانسان ، لا مندوحة لنا عن القول ان الانسان محور الوجود ، وقد اخذ يخطو في ميدان السطوة خطوات جبارة ، فيتغلب على الموت في كثير من الامراض ، ويروض الطبيعة لمنافعه . ولا بد هنا من صورتين لـ "انساتين" مختلفتين : انسان جشع يريد جيبه محورا للحياة ، ويستعبد من اجل هذا المبدأ شعوب الارض . وانسان بسيط يحلم في الحياة بسكن يأمن اليها ، وسعادة ظاهرة ينعم بجوها ، ولقمة شريفة تبعد عن جوفه حرقة الجوع ، وحرية يشعر ، كلما تمتع بها ، بانه مخلوق له كرامته . ولذا نرى ادبنا اليوم يميز احيانا بين هذين الانسانيين ، فلا يرمي الشريف بمثالب الحقير ، بل يعلل الامراض ويعيد الشرور الى اصولها ، ويدافع عن حقوق البائس المضومة .

الخير والشر في الانسان لقد آمن بعض ادبائنا برسالة الانسان الخيرة ، وعبر انيس المقدسي عن هذا الاتجاه بقوله (١) : "واذا كانت النزعة الروحية في القرون الوسطى قائمة على توجيه النفس الى العالم الآخر والتماس السعادة عن طريق امتهان الجسد ورغائب النفس ، والى تحقير الطبيعة البشرية على انها دنسة غير قابلة للاصلاح ، فان لادبا هذا العصر نزعة تكاد تكون معاكسة لتلك . فقد حوّل الزمان اهتمامهم الى الحياة الحاضرة ورفع في اعينهم قدر الانسان والقي على الوجود

(١) انيس المقدسي - جزء ٢ - ص ٩٣

الحالي مسحة من الجمال ، يعكسها لنا كثير من اقوالهم ، حتى الذين نراهم احيانا ينفثون نفثات التشاؤم العلائي ، يجارون المتفائلين في هذا الامر ويؤمنون ايمانهم بقابلية الانسان للسير في طريق التقدم

والايمان بصلاح الانسان يقود الى الايمان بان الحياة ليست تلك العاهر اللعوب التي صورها الكثيرون قديما . ويستعرض المقدسي هذا الاتجاه كذلك فيقول (١) :
 " كان الفكر العام عند القدماء ان الحياة الارضية ناقصة ، ولذلك فهي ستظل شقية حتى تصل الى الكمال في العالم التالي . على ان الفكر العام اليوم يذهب الى ان الحياة ليست ناقصة وشريرة ، وبالتالي شقية ، بل انها متطورة والتطور اساس جمالها وسعادتها . وما على الانسان الا ان يجارى ناموس التطور ، وان يستقبل الحياة مستبشرا مؤمنا بانـــــــه يستطيع ان يجد فيها اسباب الكمال والجمال . "

ولكن فريقا كبيرا من ادبائنا نحن نحوا مخالفا للنحو السابق : رأى بعض الادباء الشرور في الارض كثيرة ، ورأوا الناس ، بعض الناس ، يتهاكون على الشر والخسيس من الاعمال ، فثارت حميتهم ، وارتج على صوابهم ، فلم يستطيعوا ان يميزوا بين تينــــك الصورتين اللتين اشتر اليهما ، فاذا الانسان في نظرهم واحد ، هو ذلك المخلوق العجيب الذي يعيش بالشر للشر . ومن هذه الفئة شعراء كان لسوئدائهم اثر في توجيه افلامهم توجيهها تشاؤميا ناقما ، كما ان منها جوعة ثارت على الناس بدافع وطني ، وذلك لما رآته فيهم من استكانة للظلم . وقد تجمع لدينا من جراء ذلك شعرون كثيران كلاهما طعن بالانسان وتجريح . فانظر اولا الى هذا البيت لغزى معلوف ، وهو يرسم لنا اتجاه هذه الفئة في طعن الانسان : (٢) :

الناس؟ ما فيهم سوى غادر مراوغ، ومفسد مقلق

وهذا الانسان المفسد، المقلق ، المراوغ ، يسعى الى الشرف لكأنه ، ان يلقاه ،

في عيد (٣) :

هو يحيا للشر فالشر يحيا	ابدا حيث حل شوم ركابه
وهو لا ينفع البسيطة الا	حين يثوى في القبر بين رحابه

(١) انيس المقدسي - جز ٢ - ص ٩٢

(٢) فوزى معلوف في : ذكرى فوزى معلوف - ص ١٣٠

(٣) فوزى معلوف في : ذكرى فوزى معلوف - ص ١٣٠

حين يمتصه الثرى فيغذى منه ما في الاديم من اعشابه
وعبثا يحاول الانسان ان يستر عجزه بالتبجح بما ناله في مضمار الحضارة
والرقي . فما حضارته سوى قشور فاسدة ، وما رقيه سوى كذب يطلقه في وجه الحياة (١) :
نسي الخير حين اوغل في الشر فداس الضمير في عصيانه
ملأت قلبه الافاعي فلا يسمع غير الفحيح في خفقانه
فاذا بالادى وليد حجاب واذا بالشور بنت لسانه
ليته لم يكن ذكيا فكل الويل في الكون من نهى انسانه
ليت عمرانه تأخر اجيالا فكل الخراب فن عمرانه

وغير فوزى معلوف كثيرون آمنوا بالشر في الانسان . يفتتح جبران "مواكبه"

بقوله (٢) :

الخير في الناس مصنوع اذا جبروا والشر في الناس لا يفنى وان قبروا
ويقول القزوى (٣) :

يا كل من فوق سطح الارض قاطبة لولاكم لم يكن في ارضكم باس
ويردف كلامه هذا بقمقه صفراء (٤) :

حتى دنا من ساحتي فرد بلا ذنب ، حقير
قزم قصير بات طرفي عن تبينه حسيير
هو ذلك الانسان من ابدا يجور ولا يجير
وشبيه بهذا الكلام كلام شفيق معلوف في "عقبر" (٥)

واري ان افضل رد على الذين يرمون الانسان دائما بالشر وبيتعدون عنه
هو الذي ورد على لسان كاتب مصرى تعرض لشعر فوزى معلوف ، هو احمد زكي ابو شادى .
يقول : "وعندى ان نظرات الشاعر الفلسفية ليست خالية في مخزاها من الجديد فحسب ،

(١) فوزى معلوف - بساط الريح - ص ١١٠

(٢) جبران خليل جبران - المواكب - ص ٩

(٣) القزوى - القرويات - ص ٢٧

(٤) القزوى - القرويات - ص ٨٢

(٥) شفيق معلوف - عقبر - ص ١٦١

بل هي ضارة ايضا ، فلا سلوى منها للانسانية ، واحسب انها نزعة تقليدية متغلغلة بين معظم ادبائنا ، او كأنما هي شروح متتابعة للبيت القديم :

موى الذئب فاستأنست بالذئب ان عوى

وصوت انسان فكادت اطيير

ولا ادري لماذا ننسى حقيقة اخرى : وهي ان الانسانية في جملتها تسير الى الامام نحو الجمال الروحي والفكرى ول الجسدى ايضا ؟ ولئن كان في سخط الشاعر في تقريره لابناء جنسه او نوعه تهذيبا (١) وتربية ، فاجمل من ذلك ان يحمل امامهم مصباح الامل وحب الجمال الذى هو نعمة الحياة بل ذات الحياة .

التعاليى نظر بعض الكتاب الى الانسان من عل ، فأروه حقيرا صغيرا . وكان من الطبيعى بعد هذا ان يعتبروا انفسهم من جبلة غير جبلة البشر . هذه هي فئة الكتاب الذين فرضت عليهم الحياة فرضا ، او هم ، لو خيروا ، لما كانوا اختاروا الا ملعب النجوم موطننا ! ان الشاعر ينتسب الى الارض بجسده ، اى بالعرض الزائل ، بالسخيف من كيانه ، بينما هو في الرحب الفسيح بروحه ، وهي ازلية ابدية لا تعرف حدودا ولا قيودا . فالشاعر في رأى فوزى معلوف (٢)

هو بالرغم عنه من عالم الارض وان كان تريا بشكل ابنا جنسه
لذلك نجده غريبا بين قوم اصروا على اعتباره منهم واصر هو على اعتباره نفسه خارجا عن محيطهم . يقول فوزى معلوف ايضا (٣) :

ليت شعرى ما الشاعر ابن لهدى الارض الا بلحمه وبعضه
فاذا اختار هجرها برضاه انما جاءها مقودا برغمه
هو منها وليس منها فما زال غريبا ما بين ابنا امه
حتى اذا مات الشاعر وجد في وحشة القبر انسا لا يجده في حياته (٤) :
لا تظنوا القبر فيه غربة ليس من في صحبة القبر غريب

(١) كذا في النص . والاصح : تهذيب .

(٢) فوزى معلوف - بساط الريح - ص ١٢٦ .

(٣) فوزى معلوف - بساط الريح - ص ٣٩ .

(٤) ندره حداد في : مجموعة الرابطة القلمية - ص ٣٠٨ .

عشت في الدنيا زمانا لم اجد احدا في الناس ادعوه قريب

السلم والحرب في حياة الانسان ظواهر غريبة تقدم للفئة المتشائمة - وقد رأينا الكثير من اقوالها في هذا الفصل - براهينها ضد نزعة الخير في الانسان . من هذه الظواهر الحرب . فمنذ كان الوجود كان صراع بين البشر ، صراع تمليه السياسة الغاشمة ، سياسة تنازع البقاء وبقاء الاقوى . ولكم رأينا قويا يقف على جماجم الضعفاء ، وهو المغتصب ، وهم المظلومون .

وكان لا بد للكاتب من ان يقف يوما موقفا معينا من الحرب والسلم . ذلك ان ما تبنيه الانسانية في قرون يصبح طعمة لنيران حرب مستعرة لا تبقي على حي ، فاذا بالحضارات رماد ، واذا بالتقدم يعود القهقري . وبدلا من ان تتابع الانسانية سيرها ، تضطرها الحرب الى السير من جديد من نقطة الانطلاق الاولى . اصف الى ذلك الناحية العاطفية في القضية ، الا وهي تأثير تلك الالام التي تخلفها الاعمال البربرية في القلوب ، وتلك الشهوات التي تنشرها في المجتمع . فلا بدع اذا ان يرمي الادباء والشعراء الحرب بقارص الكلام ، واصفين مضارها ، عارضين صور البؤس التي ترسمها في الانام اعمال الحديد والنار . فلنسمع ما يقوله خليل مطران (١) :

من هذه الزلا قد	اخنى بها طول العقم ؟
برزت لهم من خدرها	مهتوكة لم تلتئم
عزيرل اولدها ومن	سفاحها القوم الغشم
تلکم هي الحوب الزبون	وذلك هتک الحر

ولم تنطل حيل الحكام الظالمين يوما على الشعب . انه يعلم حق العلم ان الاسباب التي يتذرع بها اولئك واهية لا تقوم على اساس من الصدق . والحقيقة التي شعر بها الادباء هي ان الجندي كثيرا ما يدفع الى ساح الوغى وانفه راغم (٢) :

بعثوا بابنا العباد الى وغي	قعدوا لها بين القعود وقاموا
ساقوهم لمجازر من هولها	يقف الكبي ويحجم المقدام
ساقوهم للظى الوغى ، فكانهم	قد ايقظوهم للماث وناموا

(١) خليل مطران - جز ١ - ص ١٢٤ - ١٢٥

(٢) مسعود سماحه - ص ٨٠

وهناك جماعة ينجرون الى الحرب متأثرين بالدعايات التي ييشهها الحاكمون ، حتى اذا ما وصلوا الى ساحات القتال ، ونظروا الى الاعداء ، شعروا بانهم ، كالأعداء ، مغفلون يساقون الى الموت بسلاسل من العظاات الوطنية والمكافآت الباطلة ، وادركوا ان الحوب لا تعدو كونها قتلا لابرياء ، واعلاء لشأن اناس في مهامه الجهالة وحب العظمة يهيمون . وليس ابلغ من هذا الكلام الذي وضعه ميخائيل نعيمة على لسان الجندي شورتي . يقول (١) : " انا جيفة حية بين اجياف متحركة ، يداى ملطختان بدما بريئة لاني جندي ، وعمل الجندي القتل . فقد حرمت اكثر من زوجة لقا ، زوجها ، وحببية عودة حبيبها . وقد اوجدت في العالم اكثر من ثكلى واكثر من يتيم ویتيمة . ولقد بعثت اكثر من امل ، وفقأت اكثر من عين ، ودمرت اكثر من بيت . لذاك فعاني الناس شجاعا ، وكافأوني بما يحسبونه شارات شرف وفخر الى ان يقول (٢) : " سمعت رفاقي ينددون بالاوتوقراطية والاستبداد والظلم والبربرية والقوة المطلقة . فقلت : ها هم اعدائي فالأصب عليهم كبريت نقمتي . وذهبت بنار بغضائي الى ساحة القتال فلم اجد هناك لاعدائي من اثر . وجدت جهلا يناطح جهلا ، وبشرا يذبحون بشرا ، وكلهم مدفوع لا دافع . واذا ما انتهت الحرب ، جال الشاعر بالخيال في ارجاء وطنه ، فاذا به لا يرى سوى العرى والجوع والدمار والموت . واذا به يرى العائلة تنتظر الاولاد علمهم يعودون ، ولكنهم لا يعودون . انهم هناك ، هكت السرو ، اوفي مكان ما ، تحت الاديم .

احبابنا وضع العشاء	والكم بالانتظار
وقلوبهم لغيايكم	تشوى على جمرات نار
قوموا نعود الى الحمى	قد آذنت شمس النهار

نام الحمام على الغصون	فهاج احزاني الحمام
ارشيد لا تلم الاحبة	لا يحق لك السلام
احباب قلبك هومت	كف الحمام بهم فناموا (٣)

(١) ميخائيل نعيمة - كان ما كان - ص ١٣٢

(٢) ميخائيل نعيمة - كان ما كان - ص ١٣٣ - ١٣٤

(٣) القروى - القرويات - ص ١٢ - ١٤

ويقف الانسان حائرا . ترى ، الفيس للحرب ، كما للكثير غيرها من الاوسنة ،
دوا ؟ واذا كان ثمة فئة ترى ان الحرب كانت وما تزال ضربة لازب ، تأتي بالنع على
البشر ان تجرف الضعيف وتخلي المجال رحبا امام الاقوياء ، فان هذه الفئة قد افلست
او هي في طريق الافلاس لانها لا تتركز في نظريتها على دعائم اخلاقية وانسانية
ومنطقية . وهكذا نرى ان الادب اللبناني الحديث قد حفل بالنغمة المنددة بالحروب
لشدة الويلات التي تجرها ، كما حفل بالمطالبة بوضع حد للاعمال البربرية التي تقترب
في ساحات القتال وبين الامنين . ولكن الادب لم يخل من نظرات تشاؤمية في هذا
المضمار . يصور لنا شفيق معلوف الصلح الذي عقد بعد الحرب العالمية الثانية بعد
ما قاست الشعوب في الشرق والغرب ما قاست ، وينتهي الى ان هذا الصلح انما هو
" صلح احمر " كتبت بنوده بمداد القلوب (١) . واذا ما وعدت الدول بالسلام ، وقف
البعض من وعدها موقف الحذر المشكك ، لان الايام اخلفت بوعودها فلم يبق للسلم يوما
قائم . وفي هذا يقول امين ناصر الدين (٢) :

وان زعمت ميلا الى السلم دولة فذاك خداع ظاهر وتصنع
وبينا تراها تطلب السلم تنشني وما همها الا حسام ومدفع
لعمرك ان السلم عنقا مغرب واي امرى في المستحيلات يطمع ؟

اللاادرية ولقد نشأ عن تلك الحيرة التي انتابت الانسان ازا انسانيته ، وازا ما
يهدد كيانه ووجوده من احداث ومظاهر خطرة ، نزعة " لاادرية " حارت
في تفسير الكون وما وراء الكون . فراح اصحابها في بحران من الشكوك ، وهم يقبلون
الشفاء امام كل سؤال يتعلق بالانسان : مصدر وجوده ، سر وجوده ، هدف وجوده ، ما
يوول اليه وجوده .

وتظهر هذه النزعة جلية في ادب اللبنانيين (٣) المهاجرين . وقد
افرد لها ابو ماضي قصيدة طويلة في " جداوله " ، بدأها بقصة الخلق وسره قائلا (٤) :

-
- (١) شفيق معلوف - نداء المجانيف - ص ١١١
(٢) امين ناصر الدين - صدى الخاطر - ص ١٤
(٣) وبين بعض الشعراء السوريين مثل هذه النزعة ايضا . يقول الياس قنصل (الاسلاك الشائكة ، ١٦)
صديقي لا تسرف بلومك انني ارى حياة المرء والمرء طلسم
(٤) ايليا ابو ماضي - الجداول - ص ٨٩

جئت لا اعلم من اين ولكني اتيت
ولقد اقتصرت قدامي طريقا فمشيت
وسابقي سائرا ان شئت هذا ام اييت
كيف جئت ؟ كيف ابصرت طريقي ؟
لست ادري .

ثم ينتقل بين العناصر ، فاذا بالبحر ، كالانسان ، سر غامض . واذا بالشهب،
والسحاب ، والغاب ، وهي بنات الطبيعة ، تقف ، كالانسان ، حائرة (١) :
قد رأيت الشهب لا تدري لماذا تشرق
ورأيت السحب لا تدري لماذا تغدق
ورأيت الغاب لا تدري لماذا تورق
فلماذا كلها في الجهل مثلي ؟
لست ادري

الى ان يقول اخيرا (٢) :

اتراني كنت يوما نغما في وتر
ام تراني كنت قبلا موجة في نهر
ام تراني كنت في احدى النجوم الزهر
ام اريجا ، ام حفيفا ، ام نسيمًا ؟
لست ادري

وعلى غرار ابي ماضي كثيرون ، رأوا الانسان طلسمًا ، ورأوا الحياة سرا
غامضًا لا يستجلي سرائره بحث او فكر . يقول ميخائيل نعيمة في مقدمة "مجموعة الرابطة
القلمية" (٣) : "هو الانسان - هبة العبر وحيرة الحير . يجي من حيث لا يدري ويمضي
حيث لا يدري . يحل هذه الارض ردا من الزمن فيبهته جلال ما يرى ويسحره جمال
ما يسمع . فوقه نجوم لا تعد وحوله فضاء لا يحد " . وفي سر الحياة يقول

(١) ايليا ابو ماضي - الجداول - ص ١١٨

(٢) ايليا ابو ماضي - الجداول - ص ١٠٩

(٣) ميخائيل نعيمة في : مجموعة الرابطة القلمية - ص ٣٠

نعمه الحاج (١) :

وسألت النفس عن كنه الحياة والوجود
او هل يرجى لها بعد الممات من خلود
طيب العهد الذي ولّى وفات هل يعود

فاذا بالنفس اعيها الكلام في جواب عن سؤال حَيِّراً

ولكم قابل الكاتب بين الانسان والطبيعة في هذا المجدل . فلانسان ،
كعناصر الطبيعة ، ذرة حائرة في هذا الكون : فبحر ابي ماضي لا يجيب عن اسئلة
الشاعر الا بابتسام غامض او بازباد صახب ، وفي كليهما جهل مطبق . وكذلك جسدول
ندره حداد ، فانه يسير الى حيث لا يفهم " (٢) :

وما شاقني في الحياة سوى منظر الجدول
يعيش بقلب الفلاة سعيدا بلا منزل
جرى بسين شدو وندب الى حيث لا يفهم
كذا نحن نعصي كركب الى اين ؟ من يعلم ؟

ولا عجب بعد هذا اذا وقف الانسان لغزا غامضا امام لغز غامض . فهل

سوى الجهل له دليل ؟ يقول جبران (٣) :

كبت في الجزر سطرًا على الرمل
اودعته كل روحي مع العقل
وعدت في المد اقرا واستجلي
فلم اجد في الشواطي سوى جهلي

المنزعة الفلسفية ولئن كانت اللاادبية صفة بارزة في الادب المهجري ، فان للمنزعة
الفلسفية فيه مركزا من مراكز الصدارة . ولا نجد غرابة في ميل
الادب المهجري نحو الحكمة يطلقونها شعرا او نثرا ، فان في حياة المهاجرين ما
يبرر هذا الميل . لقد خلف المهاجر وراءه اهلا وخالنا ، وغاص في عالم هو فيه غريب ،

(١) نعمه الحاج - ص ١٠٠

(٢) ندره حداد في : مجموعة الرابطة القلمية - ص ١٤٩

(٣) جبران في : مجموعة الرابطة القلمية - ص ١٥٠ - ١٤١

فاذا به يذوب حينئذ وشوقا واسى ، في ادب وشعر يماعرض منهما ضمة مختارة . الا ان غربة الشاعر في مهجره لم تسفر عن هذا الادب وهذا الشعر فحسب ، انما اسفرت كذلك عن تمرس المهاجر بالحياة وما فيها من مصاعب وعقبات وخيبة وامل وصراع مرير . ولقد نجم عن هذا كله ادب يصور هذه الاحوال ، والى جانبه ادب يستخرج من مظاهر الحياة المختلفة التي عاشها اربابه حكما وفلسفة وعظات . وفي هذا الادب نظرة تشير الى

ان التأمل في الحياة يزيد آلام الحياة

لذلك دعا الكثيرون الى نبذ التفكير بالحياة وشؤونها وشجونها ، والى اخذ الامور على عواهنها لان في ذلك راحة للبال . يقول ولیم كتسفليس (١) : "زهرة الحقل تنبت فلا تسأل لماذا ، ولا تحسد نضارة الورد وجمالها متألمة لانها ليست مثلها محبوبة ، ولا تكيد لها المكائد لاتلافها . زهرة الحقل قانعة بنصيبها فاقتدوا بها واجعلوا الحلم جميلا . . . مادة وروح ، قذارة ولوهية . فالجسم هيك من طين لالهة هي النفس . وليس بالجسد بل بالنفس السعادة . تناسوا الجسد وحدوده ، تناسوا السجن الذى يقيد لانهاية النفس ، واجعلوا الحلم جميلا ."

لنجعله جميلا ، اجل . ان ما الفائدة من "ان نعلم" ، وفي "ان نعلم" يمكن البلاء ؟ وهل ما نعلمه من امر الحياة غير البؤس والمرارة ؟ لذلك يقول رشيد ايوب (٢) :
ان كنت تجهل انت في سر او كنت تعلم انت في سر
انا لا اظن رواية العمر ادوارها لهزل بلا جد

وهناك مئات الامثلة التي تدل على اتجاه الادب المهجرى احيانا نحو النزعة الفلسفية في النظر الى الحياة وما يحيط بها . ولو اردت ان اثبتها لتوفر لدينا منها الكثير الكثير . انما اتيت بما اتيت به مكتفيا بما له دلالة على النحو الذى اشرت اليه .

ولكن النزعة اللاادرية والنزعة الفلسفية ليستا النزعتين اللتين ينحون نحوهما

(١) ولیم كتسفليس في : مجموعة الرابطة القلمية - ص ١٥٠ - ١٥١

(٢) رشيد ايوب - افانسي الدرويش - قصيدة "يا ثلج" .

كلنا ادب اليوم . ان ادب اليوم قد بدأ يعي حقيقة الانسان ، ويدرك ان الانسان ليس طينا وجهلا وطلاسم بقدر ما هو مخلوق شاعر بظوفته في الحياة . وهل يضير ان يجهل من اين اتى ، والى اين يذهب ؟ المهم انه وجد ، ولانه وجد يترتب عليه ان يكيف نفسه حسب مقتضيات الوجود ، وهي التكتاف ، والتضامن ، والاخاء ، والمحبة ، والتعاون الوثيق بين البشر في سبيل الحياة الفاضلة التي ينشدها الناس منذ وجدوا .

أشرت في الفصل الخاص بالموثرات الى ان القومية كانت من اشد هذه
الموثرات فعلا في الادب اللبناني الحديث، وأشرت كذلك الى ان الحركات القومية
في البلاد العربية اتخذت قوالب كثيرة وتقلبت في حالات شتى ، ولم يستقر لها قرار
بعد في بعض البلدان . ولقد عرفت كل من النزعات القومية ادبا يمثلها ، وهذه الاداب
تمثل في مجموعها ، على تباين روحها واهدافها ، وحدة من الادب القومي لها اهميتها
في الادب العربي الحديث خاصة ، وفي الادب اللبناني خاصة . والى جانب هذه
النزعات القومية نمزعة وطنية ، هي ذلك الحنين وتلك العاطفة اللذان يربطان المهاجر
ببلاده القديمة بعواطف متينة ظهرت في الادب المهجري بصورة جليلة ، وهذا ما حداني
الى ان افرد لها في هذا الفصل مجالا خاصا .

النزعة العثمانية : بين الموالاة والمعارضة غفلت البلاد العربية عن قوميتها العربية ردحا .
كان العرب يعتبرون بلادهم جزءا من
الامبراطورية العثمانية لان "مرور الزمن" قد لقحها باللقاح العثماني . وقد ظهر هذا
الشعور العثماني في الادب بظواهر مختلفة : فالموالون قاموا بمدحون السلاطين وعملهم ،
ويرفعون التحية اثر التحية الى الجيش العثماني اثر انتصاراته ، ويدعون اخوانهم الى
الالتفاف حول "الدولة" واخلاص الود لها . "ولا ينكر ان من الشعراء من كان في هذه
الاقطار صادق العقيدة العثمانية ، اما لتأثيرها الديني في نفسه واما لاسباب اخرى .
على ان الرهبة من الاستبداد او الرغبة في جر المخانم كانتا قبل العهد الدستوري
من اهم الدواعي الى شيوع النزعة العثمانية في الادب العربي (١٠) اما المناوئون فلم
يكونوا ليظهروا امتعاضهم من الاوضاع بطريقة سافرة لان مشائق عبد الحميد كانت تكشر عن
انيابها دائما وتلتهم الابرياء بسرعة عجيبة ، فكيف بـ "المجرم" الذي يجسر على معارضة
السلطان ، والسلطان

خليفة الله ظل في خليفته ظلت به تنقى الدنيا وتستتر

كما قال ناصيف اليازجي ؟

من الادباء الذين اطلقوا في مدح السلطان والدولة عنانهم احمد فارس الشدياق . يقول من قصيدة : (١)

للدولة العليا علي ملثر
ساست ممالك ليس يعلم حدها
يشدوبها يوم الفخار الاثر
ولقائها الا العليم القادر
سرحيث شئت من البلاد فلا ترى
الا النعيم وما اشتها الناظر

ويحاول سليم نقلا مؤسس الاهرام ان "يفلسف" الرابطة العثمانية فيقول (٢) :

"ان في ممالكها المحروسة عناصر عديدة بين تركية وعربية وارمنية ويونانية وغيرها، وكذلك مذاهب مختلفة . ولكنها تجمعها جامعة واحدة وطنية هي الجامعة العثمانية ، وهي دون استثناء تخضع لجلالة سلطانها وتصدع بامرہ وتنصاع لاحكامه . وهذه الجامعة كانت وتكون الحصن الحصين للرعية دون اطماع الدول ، وما وراء العيث بها الا الخسران والضياع . واذاتبين هذا ، وهو الحق الصراح ، كان ابن مصر وابن الحجاز والعراق والشام اخوة لام هي دولتهم ، واب هو جلالة السلطان ."

واما الكلام عن السلاطين فكثير ، ولكنه حافل بهذا النوع من الادب الرخيص الذي يجعل القارئ المخلص يذوب حياة وكأنه يبدل ما وجهه مكان الكاتب . وان المرء منا ليعجب اليوم من اولئك الذين قبلت جباههم الرغام بينما كانت اوروا تنتفض نفسي الوقت نفسه على الباغيين وتؤدبهم بالعصي والحجارة والرصاص ! فاسمع نجيب مشرق يقول مادحا محمد رشاد (٣) :

لولا محمد السما سده
عصر الرشاد امانى البلاد على
لم يحيي شعب بني عثمان الامل
هداك يا باعث الدستور تتكل
فانهض بها وار الاعراب قاطبة
والترك انك فيهم حبذا الرجل
واسلم فعصرك والفاروق جا به
نرى الهلال على مجلاه يكتمل

وهذا سليم جدى يقوم كلما اقبل وال وولى وال ، يمدح السلطان ، ويمدح الدولة باشخاص حكاهما ، فيقول مثلا بعد مدح عثمان نوري والي سوريا :

(١) احمد الشدياق في : المقدسي - جز ١ - ص ١٥٠

(٢) سليم نقلا في : المقدسي - جز ١ - ص ١٦٠

(٣) نجيب مشرق - المشرقيات - ص ٢٠٠ - ٢١

وبنعمه كبرى جزاك مليكنا
فكفاك ما احزرت من انعامه
ظهرت كرامة ذاته في عصرنا
حتى اختفت آثار فضل كرامه
لا بدع ان شمل الامان بلاده
فقد استتب العدل في ايامه
واليمن خط لمن يرافق جيشه
والفتح مرسوم على اعلامه (١)

ويا ليت المدح اقتصر على مناسبات تدعو اليه او تبرره . فان بعض
الذين جعلوا همهم تسخير القوافي في ركاب الطغيان كانوا غالبا ما يجعلون الظروف
العادية ، وهي ابعد ما تكون عن فجال الترف ، مناسبات لمدح السلطان واطهار
الخضوع له . من هؤلاء سليم جدى نفسه ، فقد خطب في جمعية "شمس البر" فخلص
الى مدح السلطان قائلا (٢) :

كيف لا يهوى فؤادى وطننا
لحليف التاج سلطان الانام
ايها العرش الذى خرت له
عظما الارض طرا باحترام
قمت اهديك الدعا متخذنا
فحضر اخلاصي سبيلا للكلام
وهلال السعد منه ظهرت
لبني عثمان انوار السلام
فهم في عصر سلطان له
يخضع الدهر ويخشاها الحمام
واثرى الدنيا سواء سيدي
فاذا دانت لديه لا تلام
فليدم للناس غوثا ما بدا
نوره شمس البر في جنح الظلام
وحتى الطغاة وجدوا من يكرمهم . يقول الياض في جمال باشا (٣) :

يا جمال البلاد حسبك منا
اننا لا نزال نرعى العهد
انت ارسلت نحونا مثلما ارسل موسى الى اليهود دليلا
يا هلالا بافنى عثمان يزهر
لا اظلم ارانا الاله منك افولا

وكانت المناسبات لا تعدم الادياء المتعتمنين فرصا ثمينة لاطهار ولائهم .
ومن هذه المناسبات اعلان الدستور ، وزيارة الطيارين التركيين للبلاد العربية .
اما الدستور فقد حول تيار المدح الى ناحيتين : ناحية الدولة العثمانية
وناحية جيشها . ففي الدولة يقول يقولنا فياض :

(١) سليم جدى - ص ٣٦

(٢) سليم جدى - ص ٤٤

(٣) الياض فياض - ص ٧١ - ٧٢

يا بني عثمان انتم امة
 قل لاهل الغرب عنا حسبكم
 اصبحت موضوع اعجاب الامم
 ان للاتراك بأسا وكسرا
 حرروا الشرق وذى اعمالهم
 ولعن يطمع في تفرقنا
 كان للتفريق عهد وانصرم (١)
 ويمدح امين ناصر الدين الجيش العثماني بقوله (٢) :

فدى لك يا جيش ابن عثمان انفس كبار بها الابطال ما برحت تغدى
 نهضت قلوبنا الارض مائدة الربى
 واوشك صلد الصخر يبتلع الصلدا
 قدم ايها الجند المظفر حاميا
 حمى الملك توليه السعادة والمجدا

وعندما قام الطياران التركيان فتحي وصادق بزيارة سوريا ولبنان ، هدف
 الادب لهما طويلا ، وسرت في الناس نشوة المظفر : كيف لا ، وهذان عثمانيان يحلقان
 مع النسور ، وهما يبطلان الزم القائلان الغرب وحده يتقدم ، وان الشرق كتب عليه
 الهوان ؟ قال خليل مطران (٣) :

اقبلتما برعاية الرحمن
 انقذتما محد الحمى من ريبة
 وقلوبنا لكما بغير رهان
 وارحمتا الصرعى من الاقران
 يا ايها الضيفان جاءا من عل
 وافيتما من "فروق" بنفحة
 تشفى النفوس كفحة الهيجان
 لقلوبنا في الجوى خفقان
 قولا لها بالله ما احسستما
 قولا لها بالله ما لا قينما
 من معشرني حبها متفان

وعندما ورد نبأ مصرع الطيارين تجلبب الادب بالحداد ٠٠٠ وراح الشعراء
 يشيرون الى عظم الخطب الذى حل بالبلاد ، فقال الياس فياض (٤)

نبأ دهم الاردن وقع مصابه
 وغدا يفيض النيل منه تألما
 يا ايها البطلان حسبكما العلى
 ذكرا وحسب المجد ان خلدتما

(١) نقولا فياض - رفيف الاقحوان - ص ٢٢ - ٢٩

(٢) امين ناصر الدين - صدى خاطر - ص ٢٤ - ٢٥

(٣) خليل مطران -

(٤) الياس فياض - ص ٦١ - ٦٢

فتحي اطل من العلاء مكذبا من قال انا امة لن تقدما
من قال ان الشرق شعب غافل لا يستطيع مع الشعوب تقدما
ورثاهما امين ناصو الدين بقوله (١) :
ولما نعى الناعون فتحي وصادقا تصدعت الاكباد للنكبة العظمى
وكاد يغوص الشام في بحر دمعه وهز الاسى منه روابيه الشما
ولبنان ملتاغ الحشى ، وعيونـه تفيض وفي بيروت داهية دهما
فقدناهما فردين في ميعة الصبي على غير نيل المجد لم يعقدا المخرما

وحتى الذين اظهروا تحررا وانعتاقا ، حتى الذين ثاروا غير مرة على
انظمة الدولة العثمانية ويطى ولاتها ، حتى اديب اسحاق يدافع عن الوحدة العثمانية
قائلا (٢) : "فمقصدنا السياسي تأييد الوحدة العثمانية من طريق التأليف بين قلوب
العثمانيين ، والمدافعة عن مصالحهم من غير مبالاة باختلاف الاما احوالهم وما يعتقدون .
فالوحدة العثمانية واجية لانه لا بد للامة من وحدة تجتمع الكلمة عليها ، ورابطة تولف
بين القلوب ، ومركز تنتهي اليه خطوط القوى . وليس للامة الداخلة تحت النسبة العثمانية
من جامعة ممكنة غير تلك الوحدة المذكورة ، فانها موجودة والموجود لا يترك للمفقود .
ثم انها متصلة الحاضر المنظور بتاريخ قديم مذكور (٣) وهي صفة لا بد منها ولا غنى
عنها في قيام الدول .

وقد شهد المهجر جماعات من اللبنانيين تميل الى تركيا . يقول توفيق ضعون
في المنازعة الصحافية التي نشبت بين جريدة الجديد وجريدة فتى لبنان (٤) : "وكان
رشيد عطيه ونجيب طراد يؤيدان الدولة العثمانية بضفة كون سوريا جزءا منها ، وان
السوريين عثمانيون عليهم ان يكونوا الى جانب دولتهم ويعملوا بكل الوسائل على اصلاح
ما فسد من شؤونها ، فاذا استجاروا بدولة اجنبية لحق بهم عار الخيانة واستبدلوا من
الشركة المشرفة العبودية المخزية ."

(١) امين نصاصر الدين - الالهام - ص ٣٠

(٢) اديب اسحاق - ص ٢٧١

(٣) ؟؟؟؟؟؟؟

(٤) توفيق ضعون - ذكرى الهجرة - ص ٢٤٨

اما المعارضون فقد كانوا ، كما ذكرت ، لا يستطيعون ان يجاهروا بمعارضتهم ،
الا من كان منهم في المهاجر بعيدا عن ان تطلاله يد الاتراك . ومن الناقمين على
العثمانيين سليم سركيس الذي قال (١) :

نرجو صلاح الترك قد خابت امانينا الكواذب
هي دولة ظلمت وليس العدل عن ظلم بذاهب
فانشد معي قولا تردده المشارق والمغرب
ليس العجيبة فقد ها بل عيشها احدى العجائب

وعندما اخذ الاتراك يتهاجمون على العرب في جرائمهم انبرى لهم
جماعة من الشعراء والادباء مدافعين عن العرب دون ان يتجاسروا على الطعن بالاتراك .
وفي هذا الموضوع يقول امين ناصر الدين - احد المتعتمدين - رادا على جريدة "اقدام" (٢)

اجهلت قدر العجم يا اقدام ولهم على هام النجوم مقام
اجهلت ما نالوه من شرف به يسمو الزمان وتفخر الايام
ارسلت يا اقدام سهم وقبعة لكن اعيد اليك وهو سهام

النزعة الشرقية والى جانب النزعة العثمانية نزعة ربيت جذورها على الحقد الذي ولّده
في قلوب العرب الشرقيين تدخل الغربيين المستعمر في شؤون
بلادهم . فقد دخل الاستعمار الغربي مرحلة الذروة في اواخر القرن التاسع عشر ، فراح
يقطع من جسم الدولة العثمانية العضو اثر العضو : البلقان ، الجزائر ، مصر ، تونس ، الخ .
اضف الى ذلك عاملا اجتماعيا جعل قلوب الادباء المحذفين ترقص كالطير يرقص مذبحا
من الالم : او وهو ما اصطلح الغرب على تسميته تمدنا . لذلك اتفق المحافظ مع الوطني
على ذم الغرب ، فضرب كل على وتره ، ولكن الاوتار جميعا رجعت نغما شرقيا عرف منه
الادب اللبناني هصة كبيرة .

ومن ممثلي هذه النزعة الشرقية امين ناصر الدين . فعند اعلان الحرب
الروسية اليابانية وبعد فوز اليابانيين هب عدد من الادباء يمجدون بطولة اليابان ويدعون

(١) سليم سركيس في : المقدسي - جزء ١ - ص ١٧

(٢) امين ناصر الدين - صدى خاطر - ص ٩٣ - ٩٤

الشرق الى الاقتداء بالاخت الكبرى . يقول انيس المقدسي : (١) فان الشرق العربي ، او قل العثماني ، عرته هزة وطنية عامة على اثر انتصار اليابان . وقد ردها الادب العربي عدة سنين بعد تلك الحرب .

يقول امين ناصر الدين في هذه الحرب ، والقصيدة حوار بين فتى ياباني

وحبيته (٢) :

دعيني اشاطر قومي المجد حينما يفر اخوجين ويقدم محرب
هناك اخوض الحرب حبا لموطني واطعن طعن المستميت واضرب
وانظر من ابطالنا كل موكب يصادمه من فيلق الروس موكب
الا ان ملقى الموت في ساحة الوغى رهيب ولكن التخاذل ارهب
اذا وطني الحبوب ذل فانسي اعيش ذليلا والمذلة تصعب
الى ان يقول :

ورجعت الاقطار صوت انتصارنا ففي الشرق هزاج وفي الغرب نذب

وللتمثيل على النزعة الثانية ، اى نزعة الثورة على المدنية الغربية ، اورد هذه الابيات لشبلي ملاط، وفيها وصف لفتاة تتيه عجا بين المولمين ، وكل يطعم منها بنظرة رضى (٣) :

ذاك ان حف ثوبها يتهد ذاك غالى بالتوريات وابعد
غمزات ليست بظرف تشهد ابهذا يا قوم محلى ومقصود
للمسعى تمدنا غربيا !؟

+ +

اين تلك الشمائل العربية اين تلك الابصار وهي حبيه
اين تلك الاخلاق وهي ابية اين آداب قوملا الشرقيه
رحم الله مجدنا الشرقيا !

(١) انيس المقدسي - جزء ١ - ص ٠ ٢٩

(٢) امين ناصر الدين - الالهام - ص ٠ ٣

(٣) شبلي ملاط - ص ٠

النزعة العنصرية لن اسهب في الكلام عن النزعة العربية . لن اسهب ، لا لان الموضوع
لا يحتاج الى اسهاب ، ولا لانه ليس به جديرا ، بل لان الاسهاب
معناه الوقوف طويلا امام آثار ادبية ما زالت ، منذ اوائل القرن العشرين ، تتدفق وتندفق ،
وما تزال ، حتى امسى درسها يتطلب جهدا خاصا وبحثا يكون وقفا لها .

ان الشعور العربي قد خبت جذوته بعد الضربات التي نزلت بالعرب على
ايدى الشعوبيين والعناصر الغربية والشرقية الغربية التي احتلت البلاد ، فكاد الشعور
العثماني يستأثر بالافئدة لولا نزوع البعض الى الشعور بواقعهم العربي . ولقد بدأ
الشعور القومي العربي شعورا بكيان اللغة العربية ، يوم كان المصلحون يقوون دعائهما
ليعيدوا اليها مجدا سابقا (١) . وما لبث هذا الشعور ان تطور عند البعض حتى اصبح
شعورا بكل ما هو عربي : لغة وقومية واماني . . . وقد غذى هذا الشعور السياسة الاحتقارية
التي نهجها الاتحاديون حيال العرب ، فهب الادباء ، ومنهم من كان يدعو الى العثمنة ،
يدافعون عن شرفهم ، مستعدين في الازمان امجاد الاجداد الذين شادوا للمجد
قبابه . وقد زاد في اتقاد هذا الشعور الثورة العربية التي اعلنها الحسين ، والوعود التي
القاها الحلفاء بانشاء امبراطورية عربية نظمو لها حدودها بواسطة سفير الانكليز في مصر !
كل هذا - بالاضافة الى الاحتلال والحركات الاخرى التي غدت الروح
الوطنية - اثر في مجرى الشعور القومي العربي ، هذا الشعور الذي يشق طريقه اليوم
بين عقبات كثيرة ، منها عقبات الشعوبية التي تحطم العرب والعربية والعروبة ، ومنها
الحركات الانكماشية التي تغمط العروبة حقها ان تحرمها ابنا لينا في لبنان ومصر
وغيرهما .

وليس ادل على انتشار النزعة العربية من ان بعض الادباء الذين كانوا
يمجدون "العثمنة" قد اخذوا بالمبدأ العربي عند وعيه . من هؤلاء خليل مطران واديب
اسحاق وغيرهما . يقول مطران (٢) :

داع الى العهد الجديد دعاك فاستأنفي في الخافقين علاك
يا امة العرب التي هي امننا اي الفخار نमितه ونمناك؟
يمضي الزمان وتنقضي احداثه وهواك منا في القلوب هواك

ولكن العرب خضعوا للأجانب صاغرين ، فاذا بهم ينسون عهدا لهم بالعز
ماضيا . ويذكرهم اديب اسحاق بهذا العهد ، يقول (١) : " شعلة سرت من الحجل
فانارت الشام والعراقيين ومصر والمغرب والهند ، واتصلت باطراف الفرنجة فملأتها نورا
ونارا ، فهي بنورها تستضيء ، ومن نارها تقتبس . ثم هبت عليها عاصفة الفتنة ، ونكباء
المحنة ، فلم يبق من ذلك النور غير شفق التصور ، في افق التذكر . فمن رأى العرب
مئات من الرجال يقتحمون مصر الفراعنة ، وملك القياصرة ، وسلطنة الاكاسرة ، ينكرهم اذ
يراهم الوفا الوفا يقادون بخيوط مما نسجت العنكبوت . ومن سمعهم يقولون لاميرهم : ان
رأينا فيك اعوجاجا قومناه بحد السيف ، يعجب من رضاهم بفساد الاحكام ، وصبرهم على
التواء الحكام . "

ويلتفت خليل مطران الى طرابلس الغرب ، الى حيث حل الموت والدمار
بحلول جحافل الظليان ، الى موطن الشهداء امثال عمر المختار ، فيقول مخاطبا المستعمرين (٢)
خلتم طرابلس الغنم المباح لكم وشرما قتل الخداع ما غنموا
هناك يلقي سراياكم وان ثقلت عرب صلاب خفاف في الوغى هضم
لله هبتهم ، لله غارتهم تحت الرصاص وفي اسماعهم صمم

ولم يكن المهجر عاقا بالعروبة ، بل شهد فرسانا لها صالوا فيه وملء
حناجرهم اصوات تمجد المجد العربي الاسيل ، وتدعو المحاصرين الى الاقتداء بالسلف ،
وفي الدعوة بحمة الاسى ونبرة اللوم . وقد وقف الكثيرون من ادباء المهجر على آثار
العرب في الاندلس يرثون اربابها . يقول القزوي واصفا اطلال الحمرا (٣) :

ان بالحمرا ارواحا مطيفة لم تزل تحمي ذرى القصر المنيفه
ارسلت من بينها عين الخليفه نظرات هن لعنات مخيفه
لا يحييني سوى نفس شريفه
ابعدوا لبنان عني والشأما من ربوع الذل لا ارضى سلاما

(١) اديب اسحاق - ص ٢٠٠ - ٢٠١

(٢) خليل مطران - جز ٢ - ص ٧٤

(٣) القزوي - الاغصير - القصيدة " ذكرى الاندلس "

وهذا ابو الفضل الوليد الشاعر اللبناني العربي يقول في قصيدة له عن

قرطبة (١) :

ابن الملوك بنو مروان ساستها
واين ابنا عباد ورونقهم
يصحون قاضين او يمسون غازينا
وهم اواخر نور كان يهدينا
تلك المساجد صارت للعدى بيعا
بعد الائمة لا تهوى الرهابينا
ويقف شفيق معلوف في غرناطة مؤبنا (٢) :

لا عين غرناطة ولا اثر
اهكذا النسر بعد رفعته
ولت فهميات تنفع الذكر
الى حضيض الهوان ينحدر
عابوك لما عدت محممة
فيك جياذ الاعارب الضمر
كل الحضارات في بداءتها
بدو وفي عزها حضر
يا ساسة الاسد ليس من اسد
فيك يحمي حياضك الذعر

ويقول نعمه الحاج مؤبنا قومه لصبرهم على الهوان ، مستشهدا بالتاريخ (٣)

يا معشر العرب كيف صيروكم
اترضون الخنوع عن جزع
وذا مضام وذاك مضطهد
ام استهانتم هوانها الاسد
اين الاباء الذي به اشتهرت
آباؤكم ، اين منه ما ولدوا
هذي بطون التاريخ شاهدة
فاستشهدوها عن الاولى شهدوا

النزعة اللبنانية وما يقال من اتساع آفاق النزعة العربية يقال كذلك عن آفاق النزعة اللبنانية . فقد بقي اللبنانيون عثمانيين حتى قامت بوادر النزعة العربية ، فاعتنق مبادئ هذه النزعة فريق كبير من اللبنانيين . ثم كانت الحرب العالمية الاولى ، وكان الانتداب ، وكان اعلان استقلال لبنان الكبير سنة ١٩٢٠ . عند ذلك شعر اللبنانيون بان لهم وطننا ذا حدود ، وبان لهذا الوطن الصغير امجادا ردت اصداءها الحقب ، وتراثا هو هذا المزيج الساحر من تراث فينيقيا والعرب . وكما

(١) ابو الفضل الوليد في : ضعون - ذكرى الهجرة - ص ٢٢٥٠

(٢) شفيق معلوف - نداء المجاديف - ص ١٩٠ - ٢٣

(٣) نعمه الحاج - ص ٢٢٠

عاد الادباء اللبنانيون العرب الى التاريخ يستملونه احيانا عظات الغابرين ، رجع الادباء اللبنانيون اللبنانيون الى التاريخ ينشرون اعلام فينيقيا . وفي هذا يقول شفيق معلوف (١) :

نداء تردد عبر الحقب
فدوى له في الاضالع رجع
ومن ثلج صنين شب ملهب
وفي الازحن الى الصوت جذع
نداء لحيرام ايام كان
يسوق الاعاصير بالصولجان
نداء بعيد يهز السفوح
فينجاب عن طلعة الفجر ليل
وتنقل في البحر رجلا جبيل
وتشهر صيدون سيف الفتوح
ويزرع ملكار من قلب صور
فجاء البحار وكور نسور

وان كان شفيق معلوف يوفق بين لبنانيته وعرويته ، ويؤمن بان للبنان وجهها عربيا (٢) ، فان الكثيرين سلكوا احد النقيضين : ملهم من آمن بان لبنان ليس سوى فينيقيا ، ومنهم من قال بلبنان عربي ليس له بالماضي السحيق اى عند . وهاتان النزعتان تبدوان جليتين يوما بعد يوم ، وهما تتلبسان ، لسوء الحظ ، باثواب الطائفية : فاللبناني الفينيقي اجمالا مسيحي ، وان كان له مشايخون بين المسلمين ، واللبناني العربي اجمالا مسلم ، وان كان ثمة عدد غير قليل من المسيحيين يقول قوله . ولا يخفى ان كلتا الفئتين تحاولان ان تؤمنا الكيان الطائفي ، ان ان المسيحي لا يريد ان يذوب في مجموع عربي مسلموه اكرية ، كما ان المسلم يسعى الى اقرار كيانه بالانضواء تحت لواء العروبة . ولكن قولنا هذا لا ينفي اطلاقا وجود نزعة قومية عربية مخلصه ونزعة لبنانية صادقة ، الا انه يخشى عليهما من ان تتحولا ، تحت تأثير العناصر الطائفية ، الى نوعتين مساندتين للطائفية .

وهناك فئة تنظر الى النزعة اللبنانية الانكماشية نظرة الحذر والريبة، ذلك ان بعض اصحاب هذه النزعة انتقلوا من حب لبنان الى حب فرنسا ، واعتقدوا ان لبنان واحة في صحراء ، وان هذه الصحراء مليئة بالضواري التي لا ترى حرجا في الانقضاض على الواحة حتى دعا الداعي لذلك . لذلك وجب على لبنان ان يستند الى دولة تحميه ، وتكون له بمثابة الام في يوم الكريهة . وهل لجدر من فرنسا ، من ان تمثل هذا الدور ؟
كثيرون هم الادباء الذين تكلموا عن فرنسا . . . كثيرون هم الذين راحوا

(١) شفيق معلوف - نداء المجاديف - ص ٧ - ٨

(٢) اهدى شفيق معلوف كتابه "نداء المجاديف"

يستخلصون من الثورة الفرنسية العبر ٠٠٠ هؤلاء لم يأتوا منكرا لانهم ردوا ما رددته الاجيال عبر الاقطار المختلفة . ولكن فئة من الادباء جعلت ديدنها ان تنصب مــــن اقلامها ابواقا للمحتلين ، فاخذت تمدح المفوضين ، وتشيد بالدور التمديني الذي لعبته فرنسا في لبنان وتلعبه في العالم . ومن هؤلاء الياس ابو شبكه الذي يقول في كتابه "روابط الفكر والروح بين الشرق والغرب" ١١ : "ومن الانصاف ان نعترف بان الفرنسيين ابنا" الثورة الكبرى مشوا على سنن آبائهم فلم يستخدموا القوة المادية الا في النادر القليل ، ولم يخلقوا عبدا في اى بلد من البلدان التي بسطوا عليها نفوذهم . بل قضوا على العبوديات القديمة في كل مكان حتى في سامورى السوداء ٠٠٠ لقد واصلوا بروح الديمقراطية الانساني ما بدأته رسالاتهم بروح الدين ، فبنوا قليلا من السجون والشكات وكثيرا من المستشفيات والمدارس والاميات والمؤسسات الزراعية . واعطوا اطباء للمرضى وعيادات للجرحى ، وملاجىء للعجز . وكافحوا الاوبئة وقضوا عليها ، وفتحوا سجون الذكاه ، تلك السجون التي كانت الارستوقراطيات المختلفة قد سجنّت فيها الفكر البشرى ، وبروح من العدل والمثل العليا اعلنوا المساواة بين جميع الاجناس على تباين الوانها ٠ ٢)

وفي المهجر فئة سلكت على نهج المقيمين الموالين ، فنزعت الى موالاة فرنسا والتغني بكرمها الذى لولاه لما قبلت ان تنفخنا بجودها وتحميننا . فلنسمع مسعود سماحه يقول (٣) :

يا ايها الجبل الذى لولاه لم	اسبيل دموع تأوه وتحسر
غمرك سيدة الشعوب بجودها	فاهنا بعصر النور فيك وبشر
فمثلث الالوان يرسل نسوره	لاخي الوفاء وناره للمزدرى
غورو فتحت قلوبنا وحللتها	خملا وانت ذلك الفرد الجرى (٤)
ما انت فيه فاتح مستعمر	بل انت خصم الفاتح المستعمر

ولست بحاجة الى الوقوف طويلا امام هذه المقطوعة ، ففيها من التلون والخطأ

ما لا يخفى على احد .

(١) الياس ابو شبكه - روابط الفكر والروح - ص ٦٠ - ٦١

(٢) ان في هذا الكلام لتحيزا ملحوظا ، خصوصا في ما يتعلق بالحرية والقضاء على العبودية .

(٣) سماحه - ص ٧٢ - ٧٥

(٤) لا بد لي من ان اذكّر بان غورو هو الذى وجه الحملة على سوريا في مطلع الانتداب !

وعندما صمت على ان اقرأ في "مجموعة الرابطة القلمية" قطعة وليم كتسفليس التي فيها يتحدث بلسان خطيب يخطب سنة ٢٥٢٠ ، لم يكن ليتبادر الى ذهني ان هذا الكاتب المهجري سيصل الى درجة التذلل لفرنسا ، وهو الذي يتبجح في القطعة بحرية الرأي طاعنا التعصب والجهل ، فوقع في ادهى من التعصب والجهل ، وقع في ما يقرب من الخيانة ! يقول بلسان خطيبه (١) : " في الجيل العشرين وفي بلادنا هذه عينها ثارت ثائرات القوم وهدرت الدماء ، لانتداب فرنسا الوصاية عليهم ، مع ان فرنسا كانت ارقى ام تلك العصور ، وما ذلك الا لان اغلب سكان سوريا كانوا من المحمديين فرغبوا عن فرنسا لا لذنبا ارتكبته او لقصورا ظهرت فيه ، بل لانها على غير مذهبهم الفلسفي الذي كانوا يسمونه دينا " واصحاب هذا النوع من الكلام يحاولون ان يخفوا ما استطاعوا عنصر الانتفاض في الشعب ضد كل قوة او سلطة ترمي الى اذلاله .

هذا ما كان من امر النزعات القومية في لبنان في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، وهذا ما كان من تأثير هذه النزعات في الادب اللبناني . وما يزال بعض هذه النزعات يتجاذب لبنان اليوم ، سرا او جهرا ، ويتخذ من بعض المتعصبين الجهلة انصارا يتناحرون .

الوطنية

وانتقل الان الى موضوع له بالقومية علاقات روحية ، اعني به الوطنية ، او ، بكلمة اوضح ، ذلك الشعور الذي عرف به المهاجرون بالتغني بلبنان ، والحنين الى ربوعه ، والتأوه على بعض الاحوال الشاذة التي يتخبط فيها . وان كنا نرى في هذا الباب احيانا نقدا للبنان وابنائها ، فان هذا النقد منبعث عن المحبة ، من العطف : انه قضيبي الوالد وثره المعلم وعتب الابن .

(١) وليم كتسفليس في : مجموعة الرابطة القلمية - ص ٥٢ .

الحزن لفراق الوطن والاهل والخلان

ان بعض المهاجرين هاجروا لاسباب نفسية
جعلتهم يشعرون بغريبتهم في وطنهم . ولكنهم

هاجروا وفي قلوبهم اسى وحسرة . يقول فوزى معلوف (١) :

لهمني للربوع تصحي وتمسي وهي خلصوا من التنكيد
ينزع الساكنون عنها - ووجه الارض رحب - الى المزار البعيد
هجروها وماء ها وهواها لم يطبقوا فيها هوان القعود
ودعوها والدمع ملء الاماقي لنواها والنار ملء الكبود
ولو ان الاصم يسمع صوتا صرخوا بالبواخر الصم : عودي
والوطن قتال بحبه ، ولو كان احيانا يعيل عن فراخه اما قسرا واما جهلا .
يقول فوزى معلوف (٢) :

مهما يجر وطني علي واهلة ارثي لبؤسهم واندب حالهم
فالاهل اهلي والبلاد بلادى بنغي ، وارثي حظهم بمدادى
قسما باهلي لم افارق عن رضى اهلي ، وهم ذخري وركن عمادى
لكن انفت بان اعيش بموطني عبدا ، وكنت به من الاسياد

في المهجر : اسى وتذكر وعندما يصل المهاجرون الى مهاجرهم يستعرضون الاحوال
التي دفعتهم على اكف الموج الى ارض غريبة . فيفسرون ،
ويحللون ، ويخلصون اخيرا الى ان رؤية الوطن تساوى ذهب الدنيا . يقول نعمة قازان (٣)

هجرت وللنفس اطماعها واني مع الحظ في هجرتي
فلا المال اشبع من جوعثي ولا المجد اطفأ من غلثي
غريب اراني على ضفة كانني غيري على ضفتي
فحتى السواقي اذا نعمت كان السواقي بلا نعمة
وحتى الحساسين لو غردت كان الحساسين في لجة
وتمر في مخيلة الشاعر القروي صور الماضي الحبيبة ، فاذا به امام النهر

(١) فوزى معلوف في : ذكرى فوزى معلوف - ص ٢٩٠

(٢) فوزى معلوف في : ذكرى فوزى معلوف - ص ٣٠٠

(٣) نعمة قازان - معلة الارز - ص ٦٠ - ٦٢

يرتج • واذا صوت ينبعث هدارا قاسيا يدعو الى الرحيل (١) :

ففي ظل روض ظليل	والماء من جانبينا
وللنسيم العليل	روح ترف علينا
لم يعض غير القليل	والحظ عبد لدينا
حتى دعا للرحيل	داعي النوى فمضينا

اين السعادة اين ؟

في البيت ، في الوطن الام	والعود غرض وريق
والشمل عقد منظم	ام ، اب ، وشقيق
اميركا ، ليتها لم	تفتح اليك الطريق
من بعد ذاك الهنا كم	لوغتنا فبكسينا

اين السعادة اين ؟

ويتوهم البعض ان المهجر جنات نعيم وغنى ، فليس على الانسان فيها ، الا ان ينحني ليلتقط الذهب • ولكن المهجر ، في عرف الذين اصابتهم لوعته ، هو غير هذا : انه بلاد غريبة عنك لسانا وعنصرا واهدافا واخلاقا ونفسا ، انه بلاد تفتح لك صدرها لتضمك ، ولكنها غالبا ما تضمك لتعصرك • قال المثل : " ليس نبي مكرما في وطنه " ، ولكن المهاجرين تلقوا في هجرتهم امائيل تكذب المثل السائر ، فشعر شفيق معلوف بان

للنفس في اوطانها حرمة ضائعة في غير اوطانها (٢)

وشعر القزوى بان طريق الهجرة وعرة المسالك ، فلا المهجر يحويك بعطف ، ولا المال ينال بغير الخساسة وبغير الشقاء (٣) : د

نأت عنك الاحبة والديار	فدمعك والاسى وطن وجار
وشطبك المزار فليس الا	صدى ما ابقت الذكرى مزار
دفنت ربيع عمرك في بلاد	لها طالت لياليك القصدر

(١) القزوى - القرويات - ص ٣٧ - ٣٨

(٢) شفيق معلوف - عبقر - ص ١٦٩

(٣) القزوى - القرويات - ص ٥٣ - ٥٦

ولكن اللثام بها كثار	بلاد ربما قبيها كرام
فبين ضلوع اهليها الحجار	اذالم تحوتريتها حجارا
ويمسكني عن العود افتقار	اروم الى ربي لبنان عودا
وهذا الاوج سلمه الصغار ؟	وكيف اطيع للاثرا سعيًا

الحنين الى لبنان وهناك ، في الافق البعيد ، جلس المهاجرون وعيونهم وقلوبهم الى
 لبنان ، الى كوخ في قرية ، الى عززال في صنوبرة ، الى عين ماء ،
 الى نسيم له بين النسائم لحن خاص وشذى خاص . فاذا بهم يبنون في احلامهم ما كان
 لهم بالامس في لبنان ، فيسعدون هنيئة ليعودوا بعدها الى مرارة الواقع ، الى عالم
 الاعمال في دنيا غريبة . وهكذا يخاطب القروي ذلك المحظوظ العائد الى بلاده (١) :

واذا مررت بمضرب الامواج قف عند "الوطا" بالمنزل المهجور
 فهناك بين جبيل والبترون لي عهد يقوم يومه بدهشور
 وسل الشواطىء والكروم عن الالى كانت تقر بهم اعز الدور
 حيث السماء بظل كل عريشة حيث الملاك بوجه كل صغير
 فهناك . . . هناك فحسب ، كان للحياة رونق . . . هناك كان النسيم نسيمًا ،

والبحر بحرا (٢) :

يا نسيم البحر البليل سلام زارك اليوم صبك المستهام
 طالما زرتني اذا انتصف الليل بلبنان والانام نيام
 ورفعت الغطاء عني قليلا فاحست بمزحك الاقدام
 يا نسيم المحيط ما هكذا في ساحل البحر عندنا الانعام
 ومثل هذا الشعور الذي يختلج في صدر القروي شعور مماثل يتأجج

في قلب نعمة قازان (٣) :

تغنيت بالارز . ما حيلتي	اذا الارز طابت به نغمتي ؟
اذا نبت الارز في مهجتي	فماذا علي طيب المنبت ؟

(١) القروي - القرويات - ص ٣٣٠

(٢) القروي -

(٣) نعمة قازان - ص ٥٩ - ٦٠

ولبنان ؟ امي به حفنة
سقتك السماوات يا حفنتي
واهلي ! وماذا اقول باهلي ؟
وماذا اقول بمحبوبيتي ؟
اقول : بقاع الدنسى حلوة
واحلى بقاع الدنى بقعتي .
ويتذكر فوزى معلوف واديه فيقول (١) :

واطول شوقي (٢) الى الوادى
وادى الهوى والحب والشعر
ملهى صباى وملهى ميلادى
وعسى يكون بحضنه قبرى
واها على الماضى وايامه
ما كان اسعداها واقصرها
واختم هذا الموضوع بمقطع لشكرالله الجبر (٣) :

بالله يا لبنان
يا كوكب الافلاك
هل يسمح الزمان
يوما بان نـراك
ان تخلت الاجسام
فالسروح في راحك
في موكب الايام
تمشي بانـراحك
كلما زدنا اغتراب
زادنا البين هيام
ولكم زرنـاك يا لبنان
والناس نيام

وانا ما زار احدهم وطنه ، فانه يناغيه كما فعل ابو ماضي (٤) :

وطن النجوم انا هنا
حـدق ٠٠٠ اتذكر من انا ؟
المحت في الماضى البعيد
فستى غريرا ارعـنا ؟
جدلان يمح في حقولك
كالنسيم مدندنا ؟
لا يتقي شر العـيون
ولا يخاف الالـسنا ؟
ولكم " شيطان " كـسي يـدور القـول غـية " شيطاننا "
انا ذلك الولد الذى
دنـياه كانت هـنـا

(١) Faizy Aoun - Faouzi Me'abuf - p. 176

(٢) الاصح : اشواقى ، كي يستقيم الوزن .

(٣) شكرالله الجبر في : ضعون - ذكرى الهجرة - ص ٤٥٥ .

(٤) ايليا ابو ماضي - جريدة السميع - عدد ٢٦ كانون الثاني - ١٩٤٨

التأثر بحياة المهجر ولكن المهاجرين رأوا في المهاجراناسا يسعون الى اعلا شأن
بلادهم ، يبذلون الجهود لحياة افضل وكرامة حصينة الحياض .
والتفتوا الى لبنان فرأوا تركيا يدوس رقاب الناس ويركل الكرسي من تحت اقدام الشهداء ،
او فرنسا يضرب بنعومة ويضطهد سرا لئلا يقال عنه انه خشن ، وتعصبا اعنى يؤلب الاخ
على اخيه . فلا عجب اذا اذا ارسلها المهاجرون صيحة استيا من اوضاع بلادهم ، ودعوة
الى الاحسن والاشرف . وهم في هذا مسيرون بالعاطفة نحو وطنهم . يقول شفيق معلوف (١) :
وطني موطن الغريب ولا املك منه حتى الحصى والترابا
ورده في قم الدخيل فما يمت وردا الا وجدت سرايا
ملأت جونا العناكب نسجها يوم بنتنا للعنكبوب ذبابا
ويقول مسعود سماحه (٢) :

نفسى فدا ربيع راق سلسلها وسال ذوب جلي لجين في مجاريها
مالت عليها صروف الدهر جائرة فزعزعت ما تسامى من مبانيها
ساد التعصب داء في معالمها وعم - مثل هواها - كل اهلها
فدك ما دك من عمرانها وقضى واحسرتاه ! على افجاد ماضيها
ويحلل نعمه الحاج اسباب التقهقر في البلاد راسا لها اصدق صورة (٣)
وهذا يسريد بريطانيا وهذا فرنسا وذا العم سام
وهذا الثلاث وذا اثنتين وهذا ليس يرضى بغير الامام
وهذا يقول اتركونا فاننا لاهل لكل الامور الجسم
اضعنا الحقوق بهذى الفروق فيا ابن فروق بلغت المرام
واخيرا يقول فوزى معلوف (٤)

لا المجد في الارض يغنيني ولا الذهب

ان لم يكن في بلادى المجد والنشب

ولا السعادة بين الناس تقنعني ان كان من حظ قومي الضيم والنصب

(١) شفيق معلوف - نداء المجاذيف - ص ٣٢٠

(٢) مسعود سماحه - ص ٥٤٠

(٣) نعمة الحاج - ص ١٦٠

(٤) فوزى معلوف في : البدوى المظم - شاعر الطيارة - ص ٢٩٠ - ٣٠

الناس نحو الترقى سيرها خيب ونحن نحو التلاشي سيرنا خيب
والجهل والدين والاهمال علتة وليس علتة غـاز ومنتـدب
ايه بسني وطني والناس قاطبة لرفع اوطانها قامت لها اهب
هبوا الى المجد ولننشىء لنا وطنا قوامه العلم لا الخطية القضب

امنية المهاجر الاخيرة حتى اذا ما انقضى العمر دون بلوغ الارب ، وكتب على اللبناني
ان يخر في مهجره ، طلب هذا الى بني امه قبل سقوطه
ان ينقلوا رفاتة الى لبنان ويواروه في ثراه (١) :

فاحفروا قبري بجانب خيمتي عند الكروم
حيثما كنت اراقب في دجى الليل النجوم
لا انام...

خضعت الاتجاهات التي سبق الكلام فيها الى مؤثرات افردت لها فصلا

خاصا عرضتها فيه باسهاب . ولم اذكر في فصل "المؤثرات" ما قد يكون اثر في الاتجاه الطبيعي . بيد انني ذكرت في كلامي عن اثر العلاقات بين الشرق والغرب (١) ان العرب ترجموا في نهضتهم الكثير من آثار الغرب الادبية ، وتأثروا بمواضيعها واساليبها وطرقها ، كما تأثروا بنظر الادب الغربي الى الحياة بكل ما يحيط بها .

ليس الاتجاه الطبيعي اتجاها جديدا في الادب العربي . فلا نقول اذا

ان هذا الاتجاه قد دخل الى ادبنا مع ما دخل من المواضيع الجديدة . ولكن هذا الاتجاه يحتل مكانة مرموقة في الادب اللبناني الحديث ، وهو يسير باتجاه جديد ، وهذا ما يجعلنا نعتقد ان ثمة مؤثرات خارجية اخرجت هذا الاتجاه من الجمود الذي وقع فيه في ايام الانحطاط ، واخرجته عن طريقه القديمة المتبعة سائفا . ويقيني ان المؤثرات هنا كامنة - في قسمها الكبير - في ما نقل الى العربية من آداب الغرب ، وفي ما اطلع الادباء اللبنانيون عليه في مصادرهم . وكيف لا يتأثر هذا الاتجاه بادب الغرب ، وقد ترجم العرب - اكثر ما ترجموا - تلك القصائد الخالدة التي ابدعها الشعراء الرومانطيقيون؟

والشعر الرومانطيقي يتجه غالبا الى معايشة الطبيعة وكأنها رفيق امين (٢) . وليس ممن المستبعد ان يستمد الشاعر اللبناني من هذا الجو الرومانطيقي حب الطبيعة ، وان ينظر بالتالي الى الطبيعة نظرة جديدة ؛ بينما كانت الطبيعة قديما صورة يعكسها الشاعر دون ان يعكس نفسه معها فتي اكثر الاحيان ، اصبحت الان كائنا حيا يعيش الشاعر بجواره ؛ فالصخر يشعر ، والزهر يحس ، والمياه كلها حياة ، والاشجار ، حين تهمس ، انما تنقل الى الشاعر اسرارها واسرارها حسبه منها انها خير دواء لشجون قلبه . لقد بلغ من تعصب البعض للطبيعة وتولبعها - كالكائنات النباتية والحيوانية ، والحياة الريفية - ان راح يدعو الى حياة بعيدة عن ضوضاء المدن ، الى حياة في احضان الغابات والقرى الالمنة ، بعيدا عن مستحدثات الحضارة . وهكذا نشأ تجاوب بين الادب والطبيعة ، تجاوب

(١) راجع الصفحة ٧٧ من هذا البحث .

(٢) مثلا قصيدة "البحيرة" للمارتين . ترجمها الدكتور نقولا فياض .

كان من شأنه ان يجعل الاديب يفصح امام الطبيعة عن نفسه ، فبتنا نراها سافرة ازاءها لا غش فيها .

الطبيعة كائن حي كثيرا ما يرى الكاتب نفسه مضطرا الى الهرب من واقعه الى حيث يسبح في جو صريح لا يفقد عليه طهره شر وخبث وخداع . ولا يجد خيرا من الطبيعة يأنس اليها ، فهي تسمع وتعي ، وان تكلمت ، فانما تتكلم بغير اللسوم والوشاية ، تتكلم لتؤاسي ، تتكلم لتصلح ، تتكلم لتشتكي . . .

وشعرالكاتب في خلوته بالطبيعة بان هذه كائن حي مثله . لقد لمس حيويتها في غبنا الجنادب المستمر ، وفي اغاريد الطيور ، وفي تمتعة الساقية في الوادي ، وفي تمايل الدوح امام النسيم ، وفي الصدى الحنون ، صدى اصوات النعاج الثاغية في مرج اخضر . فانما بالطبيعة ، هذا الكائن الحي ، يرحب بالرييح (١) :

الثرى والشجر	رحبا والبشر
واطل القصر	ساجدا في السماء
كسفين يعوم	في خضم الغيوم
وضياء النجوم	بدد الغيها
وتغنى الغدير	هازجا بالخرير
ذهب الزمهرير	وتولى الشتاء

والنسيم العليل ، كم ان شقيا والهيا امام فتاة (٢) :

انني خلته يئن حواليك	ويبكي في شعرك المسدول
وبانفاسه يداعب خديك	حييا كراغب التقبيل

وهوذا الليل يسمع ويعي . هوذا ينحني فوق الانام مصغيا الى اناتهم (٣)

سمع الليل ذو النجوم انينا وهو يغشى المدينة البيضاء
فانحني فوقها كمسترق الهمس يطيل السكوت والاصفا

اما الازهار الطاهرة ، فانها تنام جنبا الى جنب على حافة النهر ،

(١) نعمة الحاج - ص ١٠٠ .

(٢) فوزى معلوف في : ذكرى فوزى معلوف - ص ٢٥ .

(٣) ايليا ابو ماضي - الجداول - ص ٢٢ .

مصغية الى الحانه (١) :

اجفلتها وهي بمهد السلام على ضفاف الكوثر العذب
آمنة تحت ظلال الغرام نائمة جنباً الى جنب
ناعمة الابدان طيبة النشر
كونها الرحمن من معدن الطهر
نامت على الحان حورية النهر
وجادها في الليل حب الغمام ما شاء من لؤلؤة الرطب
حتى اذا ما انتق الشاعر من واقعه ، وذاب في اشراق الطبيعة ، ثم
التمازج بين الحاضن والمحضون ، فاذا بالروض والندى والظلام وغيرها اشخاص تواكب
الشاعر (٢) :

وقفت سعاد تسامر القمر ولليل يسمع ذلك السمر
والروض قد رشفت ازاهره خمر الندى فاختال ان سكر
قالت : تبارك من حباك سنى يجلو الظلام ويخطف البصر
يا ساهرا والناس قد رقدوا اني احب لاجلك السمر

سكنت فقال الليل مفتخرا حسبي فلي قمران قد سفرا
هذا يسامر ذاك مبتهجا وكلاهما بسميره سحرا
وارى لعمر الحق خيرهما قمر حوى العينين والشعرا

الحوار بين الشاعر والطبيعة وليس عجيبا بعد هذا ان يدور الحوار بين الانسان والطبيعة .
_____ افلم يشعر الانسان بان الطبيعة كائن حي ؟ افلم
يؤمن الانسان بان هذا الكائن الحي يسمع ويعي ويتكلم ؟ فلم يجفوه اذا ولا يجاذبه
الكلام ، علّه يحظى منه ببلسم لجروحه ؟ لقد جرت بين الشاعر والطبيعة احاديث واحاديث ،
كشف فيها الشاعر من خفايا قلبه . يقف ميخائيل / امام نهر متجمد ، فتعود به الذاكرة الى ،

(١) القروى - القرويات - ص ٢٠٠

(٢) امين ناصر الدين - الالهام - ص ١٣٠ - ١٣١

عهد ماض، ايام كان النهر يسيل مترنما ، مفرجا عن الشاعر كريتته (١٠) :
يا نهر هل نضبت مياهك فانقطعت عن الخرير ؟
ام قد هزمت وخار عزمك فانثنت عن المسير ؟

بالامس كنت مرنما بين الحدائق والزهور
تتلو على الدنيا وما فيها احاديث الدهور

بالامس كنت اذا سمعت تنهدى وتوجعني
تبكي ٠٠٠ وها ابكي انا وحدي ، ولا تبكي معي

واذا وجد امين ناصر الدين ان الافصح عن الرأي امر فيه مدعاة للوم
لجأ الى القمر يناجيه شاكيا (٢) :

ملك الدجى هل للملوك علاكا	وسناؤك السامي وجم سناكا ؟
تخذ الملوك الارض مملكة لهم	هيئات ليست ارضهم كسماكا
وسروا لحرب اذ سريت مسالما	شتان ما اسراؤهم وسراكا
زعموا مساواة ولكن لم يزل	هذا بهم يعلى ويخفض ذاكا
واضأت انت فما خصصت مواضعا	في الارض دون مواضع بضياكا
ييدو على الهضبات نورك ساطعا	ويمد نخوسفوحها اسلاككا

وينظر خليل مطران الى الكوكب ، فاذا به ، مثله ، ساهد حيران ، فيقول (٣)

ارى مثل سهدى في الكوكب	احل يهـ مثل ما حل بي ؟
يهيم هيامي من وجدده	ويهرب من مهدج مهربي
فيا لك من صامت ناطق	ويا لك من معجم معرب
وبي مثل ما بك معن شاغل	ولي مثل ما لك من مأرب

ويقف نقولا فياض حائرا . ترى ، ما الكون ، وما وراء الكون ؟ انه يخاطب

(١) ميخائيل نعيمة - همس الجفون - ص ١٠٠ - ١١

(٢) اخين ناصر الدين - الالهام - ص ٤٠ - ٤١

(٣) خليل مطران - جز ١ - ص ٢٩٠ - ٣٠

الليل مستنهما ، محاولا ان يستجليه خفايا الكون (١) :

خفف الوطء عليا

علني افهم شيئا

مذك يا ليل .

كلما انعمت فيك النظرا

لارى ما لا يرى

خلت اني بالغ تلك الحدود والسدود

خلف غابات الظنون

فاذا بي حاسر الطرف كليل

دمك الاسود من عيني يسيل

حرقا تحت الجفون .

ويخط ويخاطب جبران سعادة المهجرى الروض قائلا (٢) :

يا روض هلل ما تشاء مرحبا رضي الحبيب وفارق القلب الضنى

ولقد تعاتبنا وكان عتابنا الله لو شاهدته ما احسنا

شرب النسيم دموعنا فتحولت ذراته عطرا تفوح حولنا

يا روض سلني ما الهنا ومن ترى مثلي جدير بالحديث عن الهنا

وقد شجعت بادرة الكتاب هذه الطبيعة على الخروج عن وقارها وصمتها ،

فباتت ترى في الشاعر الناقم احيانا مخلوقا يدفن في قلبه السر ، فراحت تشكوه همها

وظلم الناس (٣) :

نظرت ورده الي وقالت انت مثلي في الكون للكون كاره

فلماذا تلومني وبكائي كان مما اخاف من اخطاره

ويح نفسي من الريح ففيه اجتنى بين آسه وبهاره

(١) نقولا فياض - رفيف الاقحوان - راجع ص ١٠٩ و ص ١٢٦

(٢) جبران سعادة في : توفيق ضعون - ذكرى الهجرة - ص ٤٥٢

(٣) فوزى مخلوف في : ذكرى فوزى مخلوف - ص ٢٠

ومن الصيف فهو يحرق اكمامي على رغبها بلفحة ناره
والنسيم البليل؟ هل هو الا قاتلي بين وصله ونفاره؟
يتصابى حتى اسلمه نفسي فيجفسو والعهر ملء ازاره
ثم يرتد وهوريج فيرديني ويمشي مهينما بانتصاره
وهناك شجرة قطعها يد الانسان تبكي حزينه وتحمل على الظالم الذي
اودى بحياتها (١) :

قد كان رأسي في السما * يطاول القمر المنير
تلقي علي الشمس اول نظيرة عنـد البـكـور
تشدو الطيور على غصوني فوق مصطلق السـفـدير
فكأنني الفسردوس يرتع في ولسـدان وحـور
ما زلت اهزأ بالصواعق والعناصر والعصـور
حتى دنا من ساحتي فرد بلا ذنب حقير
قزم قصير بسات طرفي عن تبينه حـسـير
واتى بمنشار كشدق الحوت يسطع منه نـسـور
وهوى على جذعي به حتى غدوت على شفير

ايحاء الطبيعة ولكم اثار صوت طير ذكريات مؤلمة في قلب الشاعر ، ولكم اثار منظر
طـ الطبيعة لواعج النفس الساكنة الى آلامها . فاذا ما تساقط الثلج ،
تذكر رشيد ايوب لبنانه وخلانه في لبنان وصاح (٢) :

يا ثلج قد هيجت اشجاني ذكرتني اهلي بلبناني
بالله عني قل لجيراني ما زال يرعى حرمة العهد

يا ثلج قد ذكرتني الوادي متنصتا لغديره الشادي
كم قد جلست بحضنه الهادي فكأنني في جنة الخلد

(١) القروي - القرويات - ص ٧٩ - ٨٢

(٢) رشيد ايوب في : مجموعة الرابطة القلمية - ص ٢٠٦

يا ثلج قد ذكرتني الموقد
نعنو لديه كأنه المسجد
ايام كنا حوله ننشد
وكاننا النساك في الزهد

المطالبة باللجوء الى الطبيعة - تجيد القرية اغرق البعض في اتصالهم بالطبيعة حتى
امسوا يرون الخير كل الخير في ملازمتها .
وقد اطلق نعيمه سلسلة من الاقوال في قصته "ساعة الكوكو" وهي كلها ترمي الى تأليه
الارض وجعلها اماحنونا . من هذه القوال (١) : "من الارض لباسك ، ومن الارض غذاؤك ،
ومن الارض مأواك . فما اجهلك تحتال على الحياة لتحصل على لباسك وغذاءك ومأواك من
غير ان تلمس الارض . " و (٢) : " اذا دفنت في الارض حبة فاعطتك عشر حبات ، فاين هو
الرجل الذي يجسر ان يدل عليك باصبعه قائلا : هوذا سارق ؟ " وهو يقول اخيرا (٣) :
" ان في التراب لعطرا لا تعرفه حوانيت العطارين . "

وقد انتقل حب الكتاب من الطبيعة الى القرية ، وهي بنت الطبيعة . فكان
للقرية في ادبنا الحديث مركز هام . ان في الادب الشعبي اوفى ادب الفصحى . يقول
انيس المقدسي (٤) : " على ان للشعر القروي في لبنان صبغة خاصة يمتزج فيها الوصف بشي
من الاعتزاز الوطني . فاللبناني فخور بجبله وبالحياة المرحية فيه . " لقد عبر الادباء
الشعبيون عن حبهم للقرية - وهم غالبا من ابنائها - بقصائد رقيقة لم تترك ناحية في القرية
الا وخاضتها : العين - الصاج - الكر - المحدلة . . . وعلى رأس الادباء الشعبيين الذين
يمجدون القرية اميل مبارك في كتابه "اغاني الضيعة" .

اما ادباء القرية فيج باللغة الفصحى فمنهم - بل اشهرهم - الياس ابو شبكه .
لقد كرس هذا الشاعر كتابه "الالحن" للتحدث عن القرية : عما فيها من جمال ، وسداجة ،
وبها ، وعما في رنة الناقوس ، عند الغروب ، من جرس خاص في القلب (٥) :
اسجدى لله يا نفسي
فقد وافى المغيب

(١) ميخائيل نعيمه - كان ما كان - ص ١٣ - ١٤

(٢) ميخائيل نعيمه - كان ما كان - ص ١٤

(٣) ميخائيل نعيمه - كان ما كان - ص ١٤

(٤) انيس المقدسي - الجزء ٢ - ص ١١٨

(٥) الياس ابو شبكه - الالحن - ص ٥٦

اسمعي الاجراس في قبة دهر الراهبات
يحمل السوادى صداها للنفوس الزاهدات
فيه اصوات حنان ويقايا زفرات
صعدتها راهبات الدير قدام الصليب
اسجدى لله يا نفسي فقد وافى المغيب
ويذهب به اندفاعه الى المطالبة بالغاء ما ادخل على القرية من الوسائل
الحديثة كالكهرباء ، لان هذا يشوه جمال القرية الفطرى . يقول (٢) :
ارجع لنا ما كان يا دهر في لبنان
كانت لنا احلامنا والمضى
وكان صفو الزمان
ارجع اليها الصاج والجبرن والمهباج
وخصبنا في الربى ونورنا في السراج
واسـترجع الكهرباء
وكـانـذبات الغنى
يا دهر ارجع لنا
ما كان في لبنان

وهناك اديب خص القرية بجزء من قلبه ، هو فؤاد سليمان . يقول في
قطعته "البلايل الحمراء" (٢) :

..... وماذا بعد يا بلبل ؟
ماذا عن ضيعتي البيضاء ، التي تغرق في النور ؟
اني منقادك الاحمر حبة من ترابها ؟ حبة واحدة يا بلبل ، القها
على شباكى ؟

وهل فيه ورقة خضراء من سنديانتها ؟
وهل مرغت جناحك باطياب ورودها ونرجسها ؟
ماذا يا بلبل ، عن ضيعتي ؟ *

(١) الياس ابو قبلكه - الالحن - ص ٢٤

(٢) فؤاد سليمان - درب القمر - ص: ٢٣

وقام الكثيرون يقابلون بين الطبيعة والحضارة ، بين الطبيعة والمدينة ،
فإذا المدينة في نظرهم حافلة بالاثام ، وإذا الطبيعة موئل الطهر والجمال . يقول جبران
في "مواكب" (١) :

ليس في الغابات حزن لا ، ولا فيها المموم
فإذا هب نسيم لم تجيء معه السموم
ويخاطب نعمة الحاج فراشة ، فيدعوها الى مغادرة المدينة العاجزة القصور
التي "ملأوها ، مذ شيدوها ، شرورا" ، والى الالتحاق بالطبيعة (٢) :

فاهجرى السوق والحمى والاناما واقصدى الروض والرى والخزاما
وانشقي الزهر ضاحكا بساما وإذا ما سمعت هذا الكلاما
فانقلى للطيور ما تسمعينه

هذا ما كان من شأن الطبيعة في ادبنا الحديث . فبينما كان الشاعر القديم
يعرض مظاهر الطبيعة عرضا خارجيا موضوعيا ، او بصور مفقطة عن صناعة ، افرد الشاعر
الحديث للطبيعة فصلا خاصة بها ، وصور نفسه اذ صورها ، وامتنح بها حتى اصبحا وكأنهما
مخلوق واحد . وان دل هذا على شيء ، فهو يدل على ان الفكر الحديث قد انطلق من
قيود الجمود ، وان الخيال الحديث يسمو الى طرق في التعبير جديدة لم يألفها القدماء ،
او ، ان الفوها ، فهم لم يتخذوها خطة عامة عندهم بل كانت خطرات تمرني ذهن شاعر
وما تلبث ان تخبر .

أدب الغرب ومستقبلها

يقول الأستاذ كبنغاير الألماني (١) : " وقد انقسم السائرون بها (المنهضة) من حملة الأقلام الى اقسام ثلاثة :
أما الفريق الأول فهو مشبع بالحنين الى القديم وان طرب لبعض بدائع الجديد ...

وأما الفريق الثاني فهم يصغون الى موسيقى التطور الادبي فسي الغرب ثم يوقعون انغامهم على وتر شرقي ...

أما الفريق الثالث فهم النشء الجديد وهم كعنادب الربيع ، تسمع منهم وهم في صبح الحياة انغام الامال كما ترى فيهم اجمل ابتسامات المستقبل ...
والواقع ان صاحب هذا الحكم مصيب . فالفريق الأول كان بالفعل مشبعا بالحنين الى القديم . ان ادباء عهد الانتقال ، ادباء عهد مطلع النهضة ، كانوا يحجون الى القديم كلما ^{دعوا} ^{دعوا} نطغ لغوى او ادبي لذلك . فاسلوبهم ليس قديما قديما ، كما انه ليس حديثا : انهم يحافظون في مقدماتهم على الاسلوب المسجع ، كما انهم يحافظون في نصوصهم على مسحة هي الى القديم اقرب . وقد هب اولئك الادباء لقلب اوضاع الفساد في العربية ، وعادوا بذلك الى القديم يتعصبون له ، فلا يسمحون بتجاوز ولو بسيطا على حساب اللغة (٢) . بيد ان هذه الفئة آخذة في الاضمحلال ، مخلفة الطريق امام فئة من الادباء لا يرون حرجا في تسخير ~~بعض~~ بعض القواعد او بعض التعابير احيانا خدمة

(١) كبنغاير في : ذكرى فوزى معلوف - ص ٤٢ - ٤٣

(٢) اصدر احمد فارس الشدياق كتابا في قواعد اللغة عنوانه " غنية الطالب ومنية الراغب " . ويبدو انه ورد في الكتاب بعض ما اعتبره سعيد الخورى الشرتوني خطأ ، فكتب في السرد على الشدياق كتابا سماه " السهم الصائب في تخطئة غنية الطالب " ، ومن المآخذ التي اخذها على الشدياق تسميته همزة التعدية اداة ، بينما يرى هوان تسمى سببا او واسطة ! وهنالك مآخذ كثيرة غيرها ليس هنالك مجالها . ثم تصدى لغويان مشهوران لكتاب الشرتوني فكتب الشيخ يوسف الاسير " رد السهم للسهم " ، وكتب الشيخ ابراهيم الاحدب " رد السهم عن التصويب وابعاده عن مرمى الصواب بالتقريب " . وكلاهما يرجعان الى الاقدمين في اعتراضهم .

لمتطلبات الفكرة .

وكما ان هذا الفريق قد آمن للنهضة لغة صحيحة لا يشوبها ضعف او خلل ، فان الاعمال الادبية قامت بنوع خاص على اكتاف الفريق الثاني ، اولئك الذين "يصغون الى موسيقى التطور الادبي في الغرب ثم يوقعون انغامهم على وتر شرقي" . . . اولئك اكتسبوا من فنون الغرب الادبية ما اكتسبوا وراحوا يسكبون عواطفهم وافكارهم ، فنشأت في الادب اللبناني الحديث من جرا ذلك اتجاهات هامة كان لبعض الادباء فيها جولات موفقة .

ولكن . . . هل استطاع ادباء النهضة ان يسيروا بها الى الامام كثيرا ، ام انهم ما يزالون متأخرين عن ركب الادب العالمي ؟ يقول ميخائيل نعيمة (١) : " لكن نهضتنا الادبية لا تزال في الاقطة ، وما نطقنا به حتى اليوم ليس سوى لثغ طفلة لا يزال مقيد اللسان ، محدود العواطف ، ضعيف العضل " . ولئن صح هذا القول في النهضة عموما ، في اكثر ادب النهضة ، فانه لا يصح في اكثر الآثار التي اوردتها في الفصول الخاصة بالاتجاهات الادبية . بيد ان هذه الآثار ليست سوى نخبة مختارة ، كان علي ان انتزع احدها احيانا من ديوان يفوق عدد قصائد المئة ، او من كتاب يتجاوز عدد صفحاته المئات . لذلك لا يمكن ان نحكم على النهضة من خلال هذه الآثار ، ولا يمكننا بالتالي ان نقول ان ادب النهضة قد بلغ مرحلة انسانية اجتماعية متقدمة ، وان ما كان من ادب النهضة في الطليعة هو ذلك الادب الذي خلفه كتاب ادركوا معنى الحياة فلم يقفوا عند الترهات ، من لوعة نادبة على حبيب ، الى رقصة هزلية على باب مسدوح ، الى وقفة في ديار الخلاعة ، الى لعبة لفظية يقصد منها ابراز المقدرة بالابهام ، فيبرز الابهام ولا يظهر للمقدرة اثر . اجل ، انه ذلك الادب الانساني الاجتماعي الفظي جعل كتابه بمثابة زعما ادركوا مواطن النقص فحاولوا الاصلاح . ومن هؤلاء ، ادباء المهجر الذين كان لظروفهم النفسية والمعاشية الخاصة اثر في توجيه ادبهم نحو الحياة ، نحو الانسان ، نحو المجتمع ، فبتنا نراهم يحطمون بلا وجل ، وهم ، وان اخطأوا احيانا ، قد اصابوا نفسي الغالب وشقوا امام المقيمين طريق المصراحة .

ومستقبل النهضة ، كيف يكون ؟ ان ادبنا سيتبع ولا شك سنة التطور ، فيسير الى الاحسن ، لان الحياة تتطلب هذا ، ولان التبشير فيه تدل على هذا . ولكن . . . هل يكون سيره زحفا ام وثبا ؟ لا شك في ان هنالك عقبات تعترض النهضة في المستقبل كما تعترضها اليوم . من هذه العقبات ما هو فني ، ومنها ما هو اجتماعي . وما دامت هذه العقبات قائمة بجسارة ، لها من يحميها ، فان النهضة لن تسير بعيدا . وما لم تقم على العقبات ثورة جامحة يشنها الادباء المتحررون لا يرجى لادبنا انطلاق . وقد عبّر عبد الجليل عن متطلبات النهضة بقوله (١) : " ان متطلبات النهضة هي : تدريس العربية بطريقة سهلة ملينة ، وتشكيل تراث من الالفاظ الغنية الواضحة المتنوعة ، وادخال بعض التحسينات على الابدجية بحيث تصبح القراءة اضبط ، وبذل جهد للتحرر من الرومانطيقية والثروة اللتين ما تزالان تلاقيان في اسواق الادب رواجاً . "

ووقف البعض ازا " مستقبل النهضة متسائلا متنبئا . يقول شكيب ارسلان (٢) : " بقي علينا ان ننظر كيف يكون اتجاه الامة العربية في المستقبل من حيث الثقافة ! اتأخذ بالثقافة الغربية ولوازمها وامتعاتها الى النهاية ، ام تبقى معتصمة بثقافتها الشرقية الاصلية لا تبغي بها بدلا ولا عناء حولا ، ام تأخذ من الثقافتين معا وتجعل من ذلك ثقافة خاصة لا شرقية ولا غربية ؟ هذا سؤال يرد كثيرا على خواطر الباحثين ، وكل منهم يذهب فـي الجواب مذهبا واطن ان ثقافة العرب المستقلة ستكون عصية آخذة من التجدد باوفى نصيب لكن مع الاحتفاظ التام بالطابع العربي . . . لن تكون جامدة على القديم الذي ثبت للعرب المحدثين وجوب التعديل فيه والاضافة اليه ، ولن تكون منسلخة من القديم جاحدة في التبرؤ منه . . . ولكنها تكون ثقافة جامعة بين القديم والجديد ، مختارة من كل شيء احسنه مع بقاء الصبغة العربية غير المفارقة للعرب . "

وسواء اتجهت الثقافة اللبنانية اتجاهها عربيا صرفا ، او اتجهت اتجاهها غربيا صرفا ، او اتجهت اتجاهها يجمع بين الاتجاهين ، فان الادب ، ادب اليوم ، لا يعرف لونا ، بل يعرف روحا انسانية شاملة واحدة تنبض فيه في اوربها كما في الشرق وفي

(١) P. 223 - لاله - ٤١ - Abd.

(٢) شكيب ارسلان - ص ٣٩ - ٤٠

اية بقعة من بقاع الارض . ان الادب الصحيح هو الذى يجعل قلبك ينبض شعورا مع الغير ،
فهما كانت لغته ، واتى كان مصدره . واننا الى هذا الادب لمفتقرون نوعا ، مع وجود
آثار منه تدل على علو كعب ادبائنا وعلى استعداد نفسي عندهم للتكيف حسب مقتضياته .
وانا اردنا ان نجعل من ادبنا ادبا متقدما واعيا ، فنخدم بذلك العربية كما خدمناها
في اول نهضتنا بمدارسنا ومطابعنا وصحفنا وغيرها ، وجب علينا ، لا ان نعقد الفصول فسي
واجبات الشعب تجاه الادب ، او واجبات الحكومة تجاه الادب ، ولا ان ننشئ الجمعيات
لتشجيع الادب وللرفق بالاديب ، بل ان نسير بادبنا في موكب الحياة ، ان نتقدم موكب
الحياة ، عندنا ، لان الاديب يشعر ويصور ، وهو خصوصا ينير ويقود .